بسم الله الرحمن الرحيم

من روائع مقالات الشيخ إبراهيم السكران

٣٧ مقال قصير

- ملاحظة: هذا العمل هو اجتهاد شخصي من أحد المحبين، لا يعلم عنه الشيخ إبراهيم حفظه الله.

الفهرس

المقال	الصفحة
توضيح بشأن ما كتبته قبل ورقة المآلات	١
الإطراق الأخير	٢
على قارعة التدبر	٦
لماذا لا يثق الليبراليون بالليبراليات؟	١٣
ذهول الحقائق	٢٠
السهر المجهول	٢٧
عمالة التغريبيين	٣١
القرآن لا يغيب البسمة	٤٦
مصائر التيارات غير الإسلامية	٥٨
الساعة الخامسة والسابعة صباحا	٦١
هل مجتمعنا خير من مجتمع رسول الله؟	٦٤
التقنية المشتركة بين الطوائف الفكرية	٦٩
سطوة القرآن	٧٢
شجاعة الجبناء	٧٦
عصر دبلجة الواقع	٧٧
الآن تذكرتم الفساد المالي؟	٨٢
سؤال لأبي عمر	٨٤
الإصلاح على طريقة لمز المطوعين	٩٠
من يقف خلف الأسماء المستعارة؟	٩٣
لحظة فداء	٩٧
وظيفة الإنسان (مقتطع من مآلات الخطاب المدني)	٩٩
الوسطيتان	١٠٢
الإصلاح في السعودية ليس مسألة فقهية	١٠٤
تطويل الطريق	١٠٨
أين "مؤسسة رعاية الشباب" عن "الاختناق المروري"؟!	١١١
أسلوب الوصاية	١١٣

تعظيم السلف	١١٥
كنت أظنه ظاهرة جديدة	١١٧
معايير تحديد أولويات المواجهة	١٢٣
استمداد المذاهب من خارج أهلها	١٢٧
عودة المدرسة التجريحية	١٢٩
معادلة المخالف والمخذل	١٣٦
خواطر قرآنية قصيرة	١٣٨
جوابات القرآن	١٤١
الترغيب والترهيب في قصقصة الأحكام الشرعية	١٤٣
أمنيات التفسير	١٤٤
القبعة المخفية	١٤٥
إعادة قراءة الولاء والبراء	١٤٨

توضيح بشأن ماكتبته قبل ورقة المآلات

بقلم: إبراهيم السكران

أخي أبا أسامة، عبدالعزيز قاسم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

قرأت نقد الأستاذ الدخيلي الذي بعثته لي، وهو نقد مفيد جدا، شكر الله له جهده وجعله في ميزان حسناته، لكنه نسب لي مقالة اسمها (دور السلفية في ترسيخ المشروع الأمريكي) وهي ليست لي، وإنما منشورة على الشبكة بأسماء مستعارة، وأما مان قله الكاتب من أقوال لي كانت قبل ورقة مآلات الخطاب المدني، فقد صدق فيها وأحسن في نقدها، وهي أخطاء كنت فيها ضحية الخطاب المدني المعاصر الذي خدعنا بقضيتين (أهمية الحضارة، وأهمية التسامح مع المخالف) وقد تبين لي بعدما أعدت تأمل القرآن وتدبره والنظر فيه أن ذلك كله خطأ مخالف لطريقة أهل السنة والجماعة، وقد نصحني أخي الشيخ بندر الشويقي منذ عدة سنوات أن أكتب نقداً لورقة المقررات، وأبين مافيها من مخالفة لطريقة أهل السنة والجماعة، لكنني كنت أسوّف، وأقول لمن سألني عنها إن نقد الشيخ الغصن لها كافٍ إن شاء الله ومبين للحق.

والمراد أن كل من نقدني، وأساء القول فيّ، وخاض في عرضي، بناءً على كلام لي قبل ورقة المآلات فقد صدق وبرّ وما تجاوز الحق قيد أنملة، بل هو مأجور إن شاء الله، فإن ماكتبته قبل ورقة المآلات يستحق من اللوم والتقريع أكثر مما كتب الإخوة وفقهم الله، وأنا أبرأ إلى الله من كل حرف خططته قبل ورقة مآلات الخطاب المدني، وأحذر كل شاب مسلم أن يغتر بمثل هذه المقالات التي كنت فيها ضحية الخطاب المدني المعاصر الذي يغالي في الحضارة والتسامح مع المخالف، وأنصح إخواني الذين لازالوا مخدوعين بمثل هذه المفاهيم أن يعودوا للقرآن ويسبروا الطريق واضحاً (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) [يونس: ٥٧-٥٨]

والله أعلم

أبو عمر، إبراهيم السكران

محرم ١٤٣١هـ

الإطراق الأخير

الحمد لله وبعد،،

إنسان هذا العصر منهمك في دوامة الحياة اليومية.. أصبح الواحد منا كأنه ترس في دالوب المهام والتفاصيل الصغيرة التي تستلمك منذ أن تستيقظ صباحاً حتى تلقيك منهكاً فوق سريرك في أواخر المساء..

دوامٌ مضني، ورسالة جوال، ورسالة إيميل، وتعليق فيسبوكي، وخبر تويتري، ومقطع يوتيوبي، وتنقل بين الفضائيات، وصراخ منبهات في طرق مكتظة، وأعمال مؤجلة كلما تذكرتها قرصك الهم، الخ الخ

هل نظم الاتصالات المتقدمة هذه مشكلة، لا، قطعاً، بل هي نعمةٌ من الله يجب تسخيرها فيما يرضيه، لقد جنينا منها الكثير، نعم ربحنا، لكن لا أدري، أشعر أننا خسرنا "الصفاء".. صفاء الذهن، وخلو البال، والتأمل الرقراق حين يتطامن السكون من حولك..

حين يكون الإنسان في فلاةٍ من الأرض، وتناديه عشرات الأصوات تتناهشه من كل جهة؛ فإنه لا يزداد إلا تيهاً وذهولاً..

ومع ذلك، ومع ذلك كله؛ فإن المؤمن تعتريه لحظات مفاجئة بين فينةٍ وأخرى تنتشله من هذا المسلسل المتماسك، فيخرج من مدارات التفاصيل الصغيرة، ويستعيد وعيه بالحقائق الكبرى..

لحظة الصدمة تقع دوماً حين يتذكر المؤمن لحظة لقاء الله، وقرب هذه اللحظة.. وقد أشار القرآن إلى مفارقة مؤلمة، وهي شدة قرب لقاء الله، مع كون الإنسان يغفل كثيراً عن هذه الحقيقة، لقاء الله قريب ولا زلنا غافلين، كما قال تعالى: (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ)[الأنبياء، ١].

والقرآن أخبر عن المعاد بطرق كثيرة متنوعة جداً، ولا أظن باحثاً يستطيع أن يستوعب الآيات القرآنية التي شرحت بعض مشاهد القيامة، وهذه الكثافة الهائلة لهذه الآيات التي تربط العقل المسلم باليوم الآخر ليست عبثاً، ولم تكن كثرتها مصادفةً أو اعتباطاً، ولكنها لأغراض لا تخفى على المتأمل..

والحقيقة أنه من بين الآيات التي تحدثت عن اليوم الآخر لفت انتباهي وشدني كثيراً طائفةٌ من الآيات صورت الناس لحظة القيام من قبورهم، صورت تلك الآيات مشهد الذهول البشري، بالله عليك انظر كيف يصوِّر القرآن مشاعر المقصِّرين في ذلك اليوم:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ* مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ)[إبراهيم، ٤٢-٤٣].

انظر كيف سنقوم من قبورنا شاخصةٌ أبصارنا، مهطعين أي مسرعين، ومقنعين رؤوسنا ننظر من شدة الأهوال، ومن شدة التحديق بحيث لا تطرف العين وصف القرآن هذه الحالة بأنهم "لايرتد إليهم طرفهم"، ومن شدة الفزع والرعب وصف الله القلوب بأنها كأنها فارغة فقال "وأفئدتهم هواء"..

ومن التصويرات القرآنية الأليمة لتلك اللحظات، تصوير لحظة الانكسار والذل والضعة التي تعتري المقصِّر، يقول تعالى:

(وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ)[السجدة، ١٢].

بالله تخيل نفسك منكساً رأسك في ذلك اليوم تتمنى العودة لدار العمل.. وافجيعتاه.

بل وصف الله الخجل والذل في ذلك اليوم وصفاً آخر يجعل الإنسان ينظر مسارقةً كما يقول تعالى:

(وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ)[الشورى، ٤٥]

والإنسان الذليل الخائف يسودّ وجهه، وتعلوه القتامة حتى كأن الليل البهيم يعلو محياه، كما قال تعالى:

(كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا)[يونس، ٢٧]

أرأيت وجهاً كأنه الليل؟! يالذلِّ ذلك اليوم..

ومن الصور القرآنية التي تنخلع لها القلوب صورة الجثو على الركب في ذلك اليوم، فترى الناس مستوفزين لا يصيب الأرض منهم إلا ركبهم وأطراف أقدامهم، كما قال تعالى:

(وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)[الجاثية، ٢٨-٢٩].

وكما وصف الله القلوب أنها من شدة فزعها كأنما هي خالية "وأفئدتهم هواء"، فإنه في موضع آخر وصف الله القلب من شدة الرعب بأنه من شدة خفقانه كأنما صعد للحنجرة مع الصمت المطبق:

(وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ)[غافر، ١٨].

وثمة آيات أخرى كثيرة تصف الذعر الشديد، وذهول الناس في ذلك اليوم..

ولا يقطّع نياط القلب مثل علمنا بأن هذه الأحوال التي وصفها كتاب الله لا يفصل بيننا وبينها إلا مجئ ملك الموت في الساعة المقدرة اليوم أو غداً، ومع ذلك لا زالت الغفلة تكبلنا..

وفي ست مواضع من كتاب الله وصف الله ذلك اليوم بأنه "بغتة" أي مفاجئ.. فياليت شعري على أي حالٍ سيباغتنا ذلك اليوم..

واللافت في الأمر –أيضاً– أن علماء الإلهيات يؤكدون أن القرآن أكثر من ذكر اليوم الآخر بما لايوجد مثله في الكتب السماوية، كما يقول ابوالعباس ابن تيمية:

(وفي القرآن من ذكر المعاد وتفصيله، وصفة الجنة والنار، والنعيم والعذاب؛ ما لا يوجد مثله في التوراة والإنجيل)[الجواب الصحيح، ابن تيمية].

بل إن الله تعالى تمدَّح بتعظيم نفسه بإلقاء الوحي على الرسل لكي ينبهوا الناس على اليوم الآخر، فجعل الله من أعظم وظائف الوحي تذكير الناس بقرب لحظة لقاء الله، كما قال تعالى:

(رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ)[غافر، ١٥].

والله إنه لأمرٌ محرج أن يكون الله يوضح لنا أن من أغراض الوحي تنبيه الناس على لقائه، ونحن غافلين عن هذه الغاية القرآنية العظيمة، هل نحن حين نتلو القرآن نستحضر أن من مقاصد القرآن تعميق استحضار اليوم الآخر في النفوس؟ هل منحنا الآيات التي تصور مشاهد اليوم الآخر منزلتها التي تستحقها؟

حين ننشغل بدنيانا ونغفل عن هذا اليوم القادم، فنحن لا نغفل عن يومٍ عادي بتاتاً، إننا نغفل عن يوم وصفه كتاب الله بقوله:

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا)[الإنسان، ٢٧]

هذا الإطراق، وخشوع الأبصار، وتنكيس الرؤوس، وفراغ القلوب من الرعب، والجثو على الركب، في ذلك اليوم العصيب، ماسببه؟ لماذا تتيبس الأعصاب وتتجمد الأطراف؟ لا شك أن ذلك بسبب هول العذاب، وخجل الأعمال، ولكن ثمة أمر آخر أعظم من ذلك كله، وهو جلال وهيبة الله تعالى إذ يتجلى لذلك اليوم، سبب الإطراق إدراك الجميع لـ"عظمة الله"، إنه الرحمن –جل وعلا– تخشع له الأصوات في ذلك اليوم المهول:

(يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً)[طه، ١٠٨]

وقال جل شأنه عن ذلك اليوم (وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْما)[طه، ١١١]

ومعنى عنت أي خضعت وذلّت واستسلمت كما قال أهل التفسير.

حسناً .. كلما استطاع المسلم التخلص من الضباب الكثيف الذي يصنعه الانهماك في الدنيا، ومنح نفسه ساعة تأمل في لحظة صفاء، وتذكر قرب لقاء الله؛ فإنه سيتفاجأ بحيوية جديدة تدب في نفسه، سيشعر كأنما قام قلبه باستحمام إيماني يزيل عنه العوالق والأوضار، ستتغير نظرته لكثير من الأمور..

ومن أهم ما يصنعه استحضار لقاء الله في النفوس الزهد في الفضول، فضول النظر، وفضول السماع، وفضول الكلام، وفضول الخلطة.

ومما يصنعه استحضار لقاء الله في النفوس الإقبال على القرآن، فيعيد المثقف المسلم صياغة شخصيته الفكرية على ضوء القرآن، لأن الله في هذا اللقاء العصيب القادم سيحاسبنا على ضوء هذا القرآن، كما قال تعالى (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ* فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ)[القصص، ٦٥-٦٦]

وإنه والله لغاية الخسارة أن يبني المثقف المسلم شخصيته من كتب فكرية منحرفة، هل رأيت أخسر ممن يترك النبع ويترشف المستنقعات؟!

ومما يصنعه استحضار لقاء الله في النفوس إقبال المرء على نفع إخوانه المسلمين في دينهم ودنياهم، في دينهم مثل: تعليم الناس معاني كلام الله ورسوله، ودنياهم مثل: حاجات المسلمين الطبية والهندسية والسياسية والاقتصادية ونحوها، وأي تهييجٍ لهذه المنزلة أشرف من قول النبي -صلى الله عليه وسلم- في صحيح مسلم:

(من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه)[صحيح مسلم، ٧٠٢٨]

فمن استحضر لقاء الله هل يستطيع أن يتجاهل دماء إخوانه المسلمين في ليبيا واليمن وسوريا؟ هل يستطيع أن يتجاهل إخوانه السنة في البحرين؟

ومما يصنعه كثرة استحضار لقاء الله الاستخفاف بالجاه في عيون الخلق، والتعلق بالجاه عند الله جل وعلا، وماذا يغني عنك ثناء الناس وأنت تعرف من خطاياك مالو علموه لما صافحوك؟! من وضع بين عينيه لقاء الله، والمنزلة عند الله، وكيف ستبدِّل الآخرة من منازل الناس بشكل انقلابي كما قال تعالى عن الآخرة (خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ)[الواقعة، ٣]، من استحضر ذلك كله؛ علم رخص الشهرة والظهور والرياسة، وكسد سوقُها في قلبه، وأيقن أنها أهدافٌ في غاية التفاهة بحيث لا تستحق دقيقة جهد، فضلاً عن أن يذهب عناء السنين في العلم والعمل لأجل مديح الناس.

يا ألله .. كيف يدع الإنسان جبار السموات والأرض، وينصرف قلبه لمخلوق ضعيف مثله يتوسل مديحه ويتزين لثنائه؟! وأين الله من الناس؟! ولذا فوصيتي لنفسي وأخي القارئ أنه كلما اصطدت نيتك وقد التفتت إلى المخلوقين فتذكر مباشرة قوله تعالى (آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ)[النمل، ٥٩]..

والله أعلم،،

ابوعمر

ربيع الآخر ١٤٣٢هـ

على قارعة التدبر

١-مناصحة ذاتية:

الله الله يا نفسُ بتدبر القرآن ..

الله الله أن يكون لكِ ورد يومي من التدبر لايفوتك مهما كانت الأعباء..

يانفسُ ألا ترين كثيراً من الصالحين وكيف يتحدثون عما يرونه من فرق مبهر في حياتهم، وفرقاً عظيماً في فهمهم وصحة نظرهم واستقرار تفكيرهم ببركة هذا القرآن ..

ألا ترين كثيراً من الصالحين كيف يبثون شجواهم عما يجدونه في أنفسهم بعد تلاوة القرآن.. يتحدثون عن شئ يحسون به كأنما يلمسونه من قوة الإرادة في فعل الخيرات والتأبي على المعاصي.. وراحة النفس في صراعات المناهج والأفكار واحترابات التيارات ..

بل تأملي يانفسُ كيف تشرّف النبي ذاته بالقرآن!

تأملي يانفسُ كيف كانت حال النبي قبل القرآن، وحال النبي بعد القرآن، كما قال تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ماكنت تدري مالكتاب ولا الإيمان) وقوله تعالى (بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين)..

فانظر بالله عليك كيف تأثرت حال النبي بعد إنزال القرآن عليه، بل انظر ما هو أعجب من ذلك وهو حال النبي بعد الرسالة إذا راجع ودارس القرآن مع جبريل كيف يكون أجود بالخير من الريح المرسلة كما في البخاري، هذا وهو رسول الله الذي كمل يقينه وإيمانه، ومع ذلك يتأثر بالقرآن فيزداد نشاطه في الخير، فكيف بنفوسنا الضعيفة المحتاجة إلى دوام العلاقة مع هذا القرآن..

بل انظر كيف جعل خاصية الرسول تلاوة هذا القرآن فقال (رسول من الله يتلوا صحفاً مطهرة).

وانظر إلى ذلك التصوير الشجي لحال أهل الإيمان في ليلهم كيف يسهرون مع القرآن (أمةٌ قائمة يتلون آيات الله آناء الليل)

أترى أن الله جل وعلا ينوع ويعدد التوجيهات لتعميق العلاقة مع القرآن عبثاً؟

فتارةً يحثنا صراحة على التدبر (أفلا يتدبرون القرآن) .. وتارةً يحثنا على الإنصات إليه (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتو) .. وتارةً يأمرنا بالتفنن في الأداء الصوتي الذي يخلب الألباب لتقترب من معاني هذا القرآن (ورتل القرآن ترتيلا) .. وتارةً يأمرنا بالتهيئة النفسية قبل قراءته بالاستعاذة من الشيطان لكي تصفو نفوسنا لاستقبال مضامينه (وإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) .. وتارةً يغرس في نفوسنا استبشاع البعد عن القرآن (وقال الرسول

يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا) .. وتارات أخرى ينبهنا على فضله، وتيسيره للذكر فهل من مدكر، وعظيم المنة به، الخ الخ كل ذلك ليرسخ علاقتنا بالقرآن ..

أيا نفسُ .. هل ترين ذلك كله كان اتفاقاً ومصادفة لا تحمل وراءها الدلالات الخطيرة؟!

٢-مع القلوب الصخرية:

الحديث عن قسوة القلب حديث ذو شجون، ومن رزايا هذا الزمن أن صرنا لا نستحي من المناصحة عن قسوة القلب بينما قلوبنا كالحجارة أو أشد قسوة .. لكن دعنا يا أخي ندردش دردشة المحبوسين يتشاجون لبعضهم كيف يهربون من معتقلات خطاياهم..

يا أخي والله لقد قرأت كثيراً كثيراً في كتب الرقائق والايمانيات والمواعظ، وجربت كثيراً من الوسائل التي ذكروها، وأصدقك القول أنني رأيتها محدودة الجدوى، لا أنكر أن فيها فائدة، لكن ليست الفائدة الفعلية التي كنت أتوقعها، ووجدت العلاج الحقيقي الفعال الناجع المذهل في دواء واحد فقط، دواء واحد لاغير، وكلما استعملته رأيت الشفاء في نفسي، وكلما ابتعدت عنه عادت لي أسقامي، هذا العلاج هو بكل اختصار (تدبر القرآن).

دع عنك كلما يذكره صيادلة الإيمان، ودع عنك كل عقاقير الرقائق التي يصفونها، واستعمل (تدبر القرآن) وسترى في نفسك وإيمانك وقوتك على الطاعات وتأبيك على المعاصي وراحة نفسك في صراعات المناهج والأفكار شيئاً لا ينقضي منه العجب.

كل تقصير يقع فيه الانسان، سواء كان تقصيرا علميا بالتأويل والتحريف للشريعة، أو كان تقصيراً سلوكياً بالرضوخ لدواعي الشهوة، فإنه فرع عن قسوة القلب.

وهل تعلم كيف تحدث قسوة القلب؟

قسوة القلب ناشئة عن البعد عن الوحي، ألا ترى الله تعالى يقول (**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ**)

أرأيت يا أخي؟ إنه طول الأمد .. !

لما طال بهم الأمد قست قلوبهم .. ولو جددوا العهد مع الوحي لحيت قلوبهم..

فإذا قسا القلب تجرأ الانسان على الميل بالشريعة مع هواه .. وإذا قسا القلب تهاون الانسان في الطاعات واستثقلها .. واذا قسا القلب عظمت الدنيا في عين المرء فأقبل عليها وأهمل حمل رسالة الاسلام للناس .. وإذا قسا القلب ضعفت الغيرة والحمية لدين الله ..

ومالعلاج إذاً ؟

العلاج لما يحيك في هذه الصدور هو مداواتها بتدبر القرآن .. بالله عليك تأمل في قوله تعالى (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ**)

هكذا تقدم الآية المعنى بكل وضوح "وشفاء لما في الصدور" ..

ولكن مالذي في الصدور؟!

في الصدور شهوات تتشوف .. وفي الصدور شبهات تنبح .. وفي الصدور حجبٌ غليظة.. وفي الصدور طبقات مطمورة من الرين (**كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**) ..

وهذه الدوامات التي في الصدور دواؤها كما قال الله (**قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ**) ..

فإذا شفيت الصدور وجدت خفة نفس في الطاعات .. وإذا شفيت الصدور انقادت للنصوص بكل سلاسة ونفرت من التأويل والتحريف .. وإذا شفيت الصدور تعلقت بالآخرة واستهانت بحطام الدنيا .. وإذا شفيت الصدور امتلأت بحمل هم إظهار الهدى ودين الحق على الدين كله ..

وأعجب من ذلك أنه إذا شفيت الصدور استقزمت الأهداف الصغيرة .. تلك الاهداف التي تستعظمها النفوس الوضيعة .. الولع بالشهرة .. وحب الظهور .. وشغف الرياسة والجاه في عيون الناس .. وشهوة غلبة الأقران ..

النفوس التي شفاها هذا القرآن .. ترى كل ذلك حطام إعلامي ظاهره لذيذ فإذا جرب الانسان بعضه اكتشف سخافته .. وأنه لايستحق لحظة من العناء فضلاً عن اللهاث سنوات.. فضلاً عن تقبل أن يقوم المرء بتحريف الوحي ليقال فلان الوسطي الراقي الوطني التنموي الحضاري النهضوي التقدمي الخ الخ من عصائب الأهواء التي تعشي العيون عن رؤية الحقائق..

هل تظن يا أخي أن تحريف معاني الشريعة لا صلة له بقسوة القلب؟! أفلا تقرأ معي يا أخي قوله تعالى (**وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ**)

على أية حال .. دعنا نعيد قراءة آية الشفاء (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ**)

يا أللّه .. هل قال الله "شفاء لما في الصدور" .. نعم إنه شفاء لما في الصدور.. هكذا بكل وضوح ..

هذا القرآن يا أخي له سحر عجيب في إحياء القلب وتحريك النفوس وعمارتها بالشوق لباريها جل وعلا .. وسر ذلك أن هذا القرآن له سطوة خفية مذهلة في صناعة الاخبات والخضوع في النفس البشرية كما يقول تعالى (**وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ**)

فإذا أخبتت النفوس .. وانفعلت بالتأثر الإيماني .. انحلت قيود الجوارح .. ولهج اللسان بالذكر .. وخفقت الأطراف بالركوع والسجود والسعي لدين الله .. كما يصور الحق تبارك وتعالى ذلك بقوله (**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ**)

لاحظ كيف تقشعر .. ثم تلين .. إنها الرهبة التي تليها الاستجابة .. وذلك هو سحر القرآن..

٣–وبدأ الانحراف يسبل إزاره:

أولاً وقبل كل شئ .. أسأل الله أن يثبتنا وإياك على دينه.

حالات الانحراف عن التدين كثرت هذه الأيام .. وبينها تفاوت كبير.. فبعضهم مشكلته (علمية) بسبب رهبة عقول ثقافية كبيرة انهزم أمامها.. وبعضهم مشكلته (سلوكية) بسبب ضعفه أمام لذائذ اللهو والترفيه.. وإن كان الأمر دوماً يكون مركباً من هوى وشبهة لكنه يكون أغلب لأحدهما بحسب الحال.

وأنا إلى هذه الساعة على كثرة ما تعاملت مع هذه الحالات لا أعرف علاجاً أنفع من (تدبر القرآن) فإن القرآن يجمع نوعي العلاج (الإيماني والعلمي) وهذا لايكاد يوجد في غير القرآن، فالقرآن له سر عجيب في صناعة الإخبات في النفس البشرية (وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم) وإذا تهيأ المحل بالإيمان لان لقبول الحق والإذعان له كما قال تعالى (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله).

وفي القرآن من بيان العلم والحق في مثل هذه القضايا المنهجية ما لايوجد في غيره، ومفتاح الهداية مقارنة هدي القرآن بسلوكيات التيارات الفكرية.

أعني أنه إذا رأى متدبر القرآن تفريق القرآن بين المعترف بتقصيره حيث جعله قريباً من العفو (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم) وبين تغطية وتبرير التقصير بحيل التأويل الذي جعله الله سببا للمسخ (ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) ومجرد المعصية بالصيد في اليوم المحرم لاتستحق المسخ فقد جرى من بني اسرائيل ما هو أكثر من ذلك ولم يمسخهم الله، ولكن الاحتيال على النص بالتأويل ضاعف شناعتها عند الله جل وعلا.

وإذا رأى متدبر القرآن –أيضاً– تعظيم القرآن لمرجعية الصحابة في فهم الاسلام، وربطه فهم الإسلام بتجربة بشرية، كقوله تعالى (فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به) ، وقوله تعالى (والذين اتبعوهم باحسان) ، وقوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم) وقوله تعالى (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين)، وقوله تعالى (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم)، وقوله تعالى (ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) ففي مثل هذه الآيات البينات يكشف تعالى أن الوحي ليس نصاً مفتوحاً، بل هو مرتبط بالاهتداء بتجربة بشرية سابقة، فيأمرنا صريحا أن نؤمن كما آمن الصحابة، وأن نتبع الصحابة بإحسان، ويأمرنا بكل وضوح أن نرد الأمر إلى أولي العلم

الذين يستنبطونه، وهذا كله يبين أن الإسلام ليس فكرة مجردة يذهب الناس في تفسيرها كل مذهب .. ويتاح الفهم لكل شخص كما يميل .. بل هناك تجربة بشرية حاكمة للتفسيرات.

وإذا رأى متدبر القرآن –أيضاً– بيان القرآن لتفاهة الدنيا، وكثرة ماضرب الله لذلك من الأمثال كنهيه نبيه عن الالتفات إلى الدنيا (لاتمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه). (يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها..).

وإذا رأى متدبر القرآن –أيضاً– مافي القرآن من بيان الله لحقارة الكافر وانحطاطه حيث جعله القرآن في مرتبة الأنعام والدواب والحمير والكلاب والنجاسة والرجس والجهل واللاعقل والعمى والصمم والبَكم والضلال والحيرة الخ الخ من الأوصاف القرآنية المذهلة التي تملأ قلب قارئ القرآن بأقصى مايمكن من معاني ومرادفات المهانة والحقارة، كقوله تعالى (والذين كفروا يأكلون ويتمتعون كما تأكل الأنعام) وقوله (إن شر الدواب عند الله الذين كفروا) وقوله (كذلك يجعل الرجس على الذين لايؤمنون) وأمثالها كثير.

وإذا رأى متدبر القرآن –أيضاً– ما في القرآن من عناية شديدة بالتحفظ في العلاقة بين الجنسين، كوضع السواتر بين الجنسين كما في قوله (وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب) وحثه المؤمنات على الجلوس في البيت (وقرن في بيوتكن) ونهيه عن تلطف المرأة في العبارة (فلا تخضعن بالقول) ونهيه عن أي حركة ينبني عليها إحساس الرجل بشئ من زينة المرأة (ولايضربن بأرجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن) ونحو ذلك.

وإذا رأى متدبر القرآن –أيضاً– عظمة تصوير القرآن للعبودية كتصويره المؤمنين في ذكرهم لله على كل الأحوال (الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم) وحينما أراد أن يصف الصحابة بأخص صفاتهم قال (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً..) وكيف وصف الله ليلهم الذي يذهب أغلبه في الصلاة (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصف وثلثه وطائفة من الذين معك).

والمراد أنه إذا رأى متدبر القرآن هدي القرآن في هذه القضايا وأمثالها، ثم قارنها بأحوال التيارات الفكرية المعاصرة، ورأى ما في كلام هؤلاء من تأويلات للنصوص لتوافق الذوق الغربي، والإزراء باتباع السلف في فهم الإسلام، وملأ القلوب بحب الدنيا، ولهج بتعظيم الكفار، وتكسير للحواجز بين الجنسين، وتهتك عبادي ظاهر، الخ إذا قارن بين القرآن وبين أحوال هؤلاء انفتح له باب معرفة الحق.

٤–من مفاتيح التدبر:

الحقيقة أنني رأيت كثيراً من المتخصصين في التفسير كتبوا رسائل رائعة في التدبر، ووسائله، ولست متعمقاً في هذا الموضوع للأسف، لكن دعونا ندردش في الموضوع دردشة المقصرين يتذاكرون كيف يخرجون من شؤم تقصيرهم .

وجهة نظري أنه أولاً وقبل كل شئ يجب على الانسان أن يتضرع إلى الله ويدعوه ويلح عليه أن يجعله من أهل القرآن، وأن يفتح عليه في فهم كتابه، والعمل به، وأن يجعله ممن قال عنهم (يتلونه حق تلاوته)، فإن الإنسان لا يفتح عليه في العبودية بمجرد الجهود الشخصية والتخطيط للانجاز، وإنما فتوحات العبودية من بركات اللجأ إلى الله، وكل أبواب الخير

من العلم والديانة إنما هي من باب الاستعانة ولذلك أعقب الله العبادة في سورة الفاتحة التي هي أعظم سورة في القرآن والتي أمرنا الله أن نكررها عشرات المرات يومياً (وهذا يعني أن مضامينها موضوعة بعناية وليست اتفاقاً) في هذه السورة العظيمة أعقب الله العبادة بالاستعانة، فالاستعانة بوابة العبادة .

وثانياً يجب وضع ورد يومي للتدبر كما كان الصحابة لهم أوراد وكان جمهورهم يحزبه على سبعة ايام كما تعرف، وأن لا يُغلب الانسان على ورده من التدبر مهما كانت الظروف، والورد اليومي من القرآن كما سمعت أحد الصالحين يقول: في اليوم الأول كالجبل وفي الثاني كنصف الجبل وفي الثالث كلا جبل وفي اليوم الرابع مثل الغذاء الذي تتألم لفقده .

وثالثاً أن يكون الأصل هن التدبر الشخصي، والتفسير معين، لا العكس كما يفعل البعض، وخصوصاً لمن لديهم خلفية شرعية عامة تؤهلهم لفهم جماهير الآيات، والقرآن كما قسمه ابن عباس أربع مراتب (التفسير على أربعة أوجه: تفسير لايعذر أحد بجهالته، وتفسير تعرفه العرب من كلامها وتفسير تعرفه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله) .. فأنت إذا استحضرت تقسيم ابن عباس العبقري عرفت أنه ليس كل القرآن يحتاج لتفسير .

فيقرأ الانسان في المصاحف المهمشة بالتفاسير، وأجودها وأدقها (كما علمت من كثير من المتخصصين في التفسير) هو التفسير الميسر الصادر عن مجمع الملك فهد، فقد توافر على تصميمه كوكبة محترفة من المتخصصين في التفسير، وهو زبدة رائعة لكتب التفسير، فإذا أشكلت اللفظة أو المعنى الاجمالي راجع الهامش، لكنه يحاول هو أن يستكشف الدلالات العظيمة في هذا القرآن العظيم، فإذا لم يكن متأكدا من سلامة استنباطه راجع كتب التفسير الموسعة.

وهذا الإمام العلامة أضخم مرجعية فقهية سنية معاصرة ابن عثيمين رحمه الله حي سئل عن طريقة طلب العلم وأولى العلوم بالعناية والاهتمام قال:

(نقول: ابدأ بالتفسير قبل كل شيء، لكن هذا لا يعني ألا تقرأ غيره، لكن ركز أولاً على علم التفسير..، فعليك بالتفسير، احرص عليه ما استطعت، وطريقة ذلك: أن تفكر أنت أولاً في معنى الآية، قبل أن تراجع الكتب، فإذا تقرر عندك شيء فارجع إلى الكتب، وذلك لأجل أن تمرن نفسك على معرفة معاني كتاب الله بنفسك، ثم إن الإنسان قد يفتح الله عليه من المعاني ما لا يجده في كتب التفسير، خصوصاً إذا ترعرع في العلم وبلغ مرتبة فيه فإنه قد يفتح له من خزائن هذا القرآن الكريم ما لم يجده في غيره) [الباب المفتوح، ل٨٦]

فانظر إلى هذا الفقيه الامام كيف يوصي طلابه بأن يقرأو الآيات ويستنبطوا منها ثم يراجعوا كتب التفسير، بل وكان يطبق ذلك عملياً فيعطيهم آيات ويطلب منهم أن يسهرو في الاستنباط منها ويأتون بها غدا (انظر قصصاً طريفة ذكرها حول هذا الموضوع الأخ مازن الغامدي رحمه الله في قصته مع الشيخ، وهي أهم سيرة ذاتية كتبت عن الداخل الشرعي السعودي).

ثم بعد ذلك يقرأ الانسان في مطولات التفسير قراءة مستقلة، وأعذبها وألذها تفسير الإمام فقيه الأخلاق والفروع ابن سعدي عليه رحمة الله، ومع ذلك فلا بد للانسان أن يطالع آثار السلف في تفاسير الأثر حتى لايصادم فهمهم دون وعي، وإذا سئل ابن عثيمين عن التفاسير فإنه كان يذكر ثلاثة دوماً ويمدحها ويثني عليها (ابن كثير، السعدي، الجلالين) فالشيخ كان يحب الدقة اللغوية للجلالين رحمه الله .

ورابعاً من أجمل الأمور أن يضع الإنسان لأهل بيته برنامجا في التفسير فيقرأون ويتبارون في الاستنباط ثم يراجعون التفسيرات المختصرة، والأصل في ذلك قوله تعالى (واذكرن مايتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة) فالنبي كان يتلو على نسائه القرآن. وهذا له أثر لا يتصوره الكثيرون في تحبيب الأهل في القرآن والاقبال على الاستنباط منه، بل وستجد أهلك يصبحون دائمي التساؤل حول بعض استنباطاتهم للقرآن وهدايات آياته، وأهم من ذلك كله ستجد في أهلك قوة على الطاعة ونظرة مختلفة للدنيا وزخرفها، فهذا القرآن عجيب عجيب في تصحيح المفاهيم وتزكية النظرات والتصورات .

وخامسا لا أعلم درساً شرعيا في كل علوم الاسلام أسسه النبي وأصّله نظريا بنفسه إلا تدارس القرآن، فكل دروس الشريعة نوع من الاجتهاد في تنظيم العلم إلا تدارس القرآن فهو منصوص كما قال النبي في مسلم (ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده) هذا هو أعظم الدروس الشرعية التي يحبها الله، ولذلك ما أجمل أن يضع الاخوان لبعضهم برنامجا أسبوعيا يحضّر كل منهم من تفسير معين ثم يتدارسون معانيه، هذا البرنامج دينامو إيماني ومنهجي في غاية التأثير .

والطرق كثيرة، والموضوع متشعب، والمتخصصون أبدعوا فيه، والمقصر يخجل من مناصحة الآخرين، ولكنه التذاكر والباحث في موضوع والله لم نقدره قدره بعد وماعرفنا اثره .

ولقد تأملت سيرة الصحابة في سير أعلام النبلاء وبعض طبقات ابن سعد وبعض حلية أبي نعيم فهالني والله ما رأيت من اقبالهم وتكثيف جهودهم في القرآن. وعلمت حينها مالذي منح أولئك تلك المزية، بل انظر في أبي العباس ابن تيمية الذي كتب في التفسير رسائل كثيرة، كتفسير آيات أشكلت، وتفسير سورة الاخلاص، وجمع مطولات في تفسير السلف نسقاً على الآيات (أكثرها مفقود) وجلس سنة يفسر سورة نوح، ومع ذلك حين اعتقل المرة الأخيرة في قلعة دمشق وسحبت منه الكتب والاقلام اقبل على القرآن وقال (قد فتح الله علي في هذه المرة من معاني القرآن ومن أصول العلم بأشياء كان كثير من العلماء يتمنونها وندمت على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن) هذا ابو العباس يندم على تضييع أكثر أوقاته في غير معاني القرآن، برغم أنه من أئمة التفسير أصلاً ! فماذا نقول نحن المقصرين مع كتاب الله .

اللهم اجعلنا من أهل القرآن، اللهم اجعل القرآن أنيسنا في ليلنا ونهارنا، اللهم شفع سورة تبارك فينا في قبورنا، اللهم اجعل البقرة وآل عمران غيايتان تحاجان لنا يوم القيامة، اللهم أحبنا بحبنا لسورة قل هو الله أحد، اللهم آمين، اللهم آمين..

اخوكم/ ابوعمر

محرم ١٤٣١هـ

لماذا لا يثق الليبراليون بالليبراليات؟

الحمدلله وبعد،،

كيف يتعامل الليبرالي مع المرأة الليبرالية؟ كيف ينظر إليها؟ بطبيعة الحال أمامنا تصريحات الكتّاب الليبراليين الرسمية والمستمرة بأنه يجب النظر إلى المرأة باعتبارها إنسان، وكيان يجب احترامه، لا النظر إليها باعتبارها محلاً للشهوة والفتنة، وهناك ما هو أكثر من التصريح وهو أن الليبراليين يمارسون التعيير والإدانة المتكررة للناس وللمجتمع بأنهم ينظرون للمرأة نظرة جنسية، وأما هم –أي الليبراليين– فيتعاملون مع المرأة بمنظار متسامي عن هذه النظرة الغريزية.

ويرى الليبراليون أن هذه الرؤية التي يحملونها هي "مبرر وجودهم" في الساحة الثقافية السعودية، فهم يعرضون أنفسهم كـ"مخلّص" للمرأة من براثن مجتمع يريد أن يضعها فوق سرير الجنس..

هذا هو ما يقوله الليبراليون عن أنفسهم، لكن .. هل تكفي ياترى التصريحات المعلنة؟ هل هذا كل شئ؟

الواقع أن الصورة كانت غامضة نوعاً ما في بواكير الخطاب الليبرالي، لكن في الفترة الأخيرة تسربت شهادات متكاثرة من الداخل الليبرالي نفسه تكشف أن كل ماكان يقال لم يكن إلا (بيع كلام)، وأنه شعارات ترمى للاستهلاك الإعلامي فقط، وأن الصورة كانت أكثر قتامة أخلاقية مما يتوقع المرتابون..

دعونا نتصفح شيئاً من هذه الشهادات الداخلية، إحدى هذه الشهادات أدلى بها الكاتب (منصور النقيدان)، وتأتي أهمية هذه الشهادة من عنصرين، أولهما أن الكاتب منصور النقيدان يتمتع بعضوية النادي الليبرالي، وفي نفس الوقت له خصومة تاريخية معروفة مع التيار الإسلامي؛ وبالتالي فيستحيل بأي وجه من الوجوه أن يكون النقيدان في محل تهمة بالتجني على الليبراليين، وأما العنصر الثاني لأهمية هذه الشهادة فهي أن النقيدان كشف معاناة فتيات ليبراليات كن يتصلن به ويخبرنه بما يجدنه من لا أخلاقيات الليبراليين.

أدلى النقيدان بهذه الشهادة في لقاء تلفزيوني على قناة الحرة، حيث يقول النقيدان فيه:

(ربما مع الأسف كثير ممن ينظر إليهم على أنهم مثقفين، وأصحاب رؤية واعية وراقية، ومتحررون، يعانون من هذه المشكلة الكبيرة مع المرأة، كثيرات يشتكين أن كثيراً منهم يريد أن ينام معها، يريد أن يصاحبها، يريد أن يصادقها، ولكنه يفاجؤها يوماً ما بأنه لا يستطيع أن يتزوج بها، وهو نفسه في كتاباته، وفي حديثه، وحتى في ظهوره الإعلامي، يتحدث عن حقوق المرأة، وتحرير المرأة، وأنا تفاجأت فعلاً أن أكثر من زميلة من الزميلات يتحدثن عن آخرين ممن ينظر إلى شجاعتهم في الحديث عن المرأة، لكنهم يتحدثون مع زوجاتهم ومع الأخريات بشكل متخلف مع الأسف الشديد، أنا أتفهم شخصاً يفتي بثلاثة آلاف فتوى كلها تحاصر المرأة من ضفيرتها إلى ظفرها، أتفهم كيف أن مثل هذا الشخص ينظر إلى المرأة بمنظار أسود، لكني لا أتفهم شخصاً يدعو إلى تحرر المرأة، يدعو إلى تحريرها، يقف مع حقوقها؛ ثم ينظر إليها بمنظار مزدوج، يريد أن يصل منها إلى لذته ثم ينبذها ويبحث عن بنت قبيلته) [لقاء تلفزيوني مع منصور النقيدان، برنامج حديث الخليج، قناة الحرة، يونيو ٢٠٠٩م]

لاحظ هاهنا أن هذه ليست توقعات من ناقد خارجي، بل هذه وقائع ترويها فتيات، يصرحن بأن ثمة رموز ليبرالية، لهم حضور إعلامي، يتحدثون عن تحرير المرأة، لكن إذا وصلت الأمور إلى التعامل المباشر، وأطفئت كاميرات الإعلام؛ تحول الأمر إلى محاولة –كما يروي النقيدان– أن ينام معها ويحصل لذته ثم يبحث عن بنت قبيلته للزواج!

والله كلما قرأت هذا النص شعرت بالغبن يحرقني من خسة اللؤم والدناءة..
ومكثت مرة أتساءل: ما الذي يدفع الليبرالي لممارسة هذه الازدواجية؟ ويبدو لي أن هذا الليبرالي قام بحساب المعادلة حسبةً بسيطة، فكأنه يقول: هذه الفتاة التي قبلت أن تتبسط معي بالحديث وأنا أجنبي عنها، وقبلت أن تخرج معي؛ انهارت الثقة بها، ولا يمكن أن آمن أن تتبسط مع غيري وتخرج معه بعد أن أتزوج بها..
حسناً دعنا نواصل مع شهادات أخرى، هذه الروائية "أميرة القحطاني" والتي سبق أن أصدرت رواية بعنوان (فتنة)، وكان للرواية صدى في الصحافة السعودية، وتقول هي عن نفسها (كتّابي وشعرائي كثر لكنني نشأت على حب اثنين: عبدالرحمن منيف، ونزار قباني)، المهم أن هذه الروائية سبق أن سجلت شهادة أليمة، ونشرتها في صحيفة الجزيرة، حيث تقول:

(عندما اقتربت من هذا الوسط الثقافي، وتعاملت من بعض المثقفين فيه؛ اكتشفت أنني عشت كذبة كبيرة، وأنا هنا لا أعمم فهناك من يعمل في هذا الوسط ويملك أخلاقا نبيلة، ولكن الكفة الأخرى كانت هي الأثقل وهي الأعم، للأسف أقولها وأنا أحترق ألماً على عالمي الذي خلته جنةً من جنات الدنيا، هذا العالم الذي يحمل الكذابين والمنافقين والوصوليين و(النسونجيين)، وهذه الكلمة وحدها كارثة..)
[مقالة بعنوان: مع الاعتذار للمثقفين المحترمين، صحيفة الجزيرة الثقافية، الاثنين ٢٠٠٨/١١/٣].

في النص السابق توضح الروائية "أميرة القحطاني" لحظة صدمتها بالانحطاط الأخلاقي في الداخل الليبرالي، واكتشافها الأليم لانتشار ظاهرة (الليبرالي النسونجي)، ثم تواصل الكاتبة "أميرة" بعض القصص حول هؤلاء الليبراليين النسونجيين، والتي حدثت لها حين كانت تكتب في مجلة ليبرالية شهيرة، فتقول:

(وعلى طاري النسونجيين إليكم هذه القصة القصيرة لمثقف نسونجي تخطى الستين عاماً، هذه القصة جرت معي عندما كنت اكتب في إيلاف، فقد تحدثت مع كاتب وصاحب مؤلفات لإجراء لقاء صحفي معه، وقبل إجراء الحوار – الذي لم يتم – دار بيني وبينه حديث حول الكتابة والنجاح والفشل، فقال لي حرفياً "أنا أستطيع أن اجعل من الإنسانة العادية كاتبة كبيرة!" فقلت له وأنا في دهشة مما اسمع: الكتابة موهبة لا تصنع ولا تمنح، فقال لي بكل ثقه: "أنا جعلت من إنسانه عادية كاتبة كبيره وقد أصبحت الآن مشهورة لكنها تنكرت لي عندما اشتهرت"، وعرفت من خلال حديثه انه كان يريد ثمناً لذلك التوجيه الذي يقول أنه قدمه لتلك الكاتبة، وطبعا عرض علي المساعدة "بشرط" أن يكون هناك ثمن لهذه المساعدة التي لم أطلبها منه أساساً، ودون أن أدخل معه في تفاصيل، وقبل أن أنهي معه مكالمتي سألته: هل هناك مثقفات يتعاملن معه ويتقبلن هذا الأسلوب في التعامل؟ قال وبصوت عال جدا: (طبعا)!، وأريد أن أنوه فقط بأن هذا الرجل لم يكن يخجل من الإفصاح عن رغبته، بل كان يتحدث بكل ثقة، وكأن نساء العالم كلهن ساقطات!)[مقالة بعنوان: مع الاعتذار للمثقفين المحترمين، أميرة القحطاني، صحيفة الجزيرة الثقافية، الاثنين ٢٠٠٨/١١/٣].

الواقع أن هذه القصة التي ذكرتها الروائية أميرة القحطاني تكشف جزءاً من اللعبة، وهو طبيعة الثمن الذي يقدمه بعض الليبراليين للمستغفلات من الليبراليات، وهو مساعدتها في الوصول للشهرة الإعلامية ولكن بمقابل "لا أخلاقي".
الطريف أن هذه المقالة لما صدرت أربكت الداخل الليبرالي حينها، وواجهت الكاتبة حملة من الضغوط الليبرالية والاتهامات الساخنة، ولذلك أعقبتها الكاتبة بمقالة أخرى ترد فيها على نقادها كانت بعنوان (مع الاعتذار لبعض

المثقفين مرةً أخرى) وبدأتها بقولها (أثارت مقالتي السابقة المعنونة بـ"مع الاعتذار للمثقفين المحترمين" حفيظة بعض الكتاب في المنتديات، خصوصا بعض الذكور الذين يتوارون خلف أسماء نسائية،..) ثم واصلت الإجابة عن نقد ليبراليي المنتديات لها.

وفي عام ٢٠٠٨م أصدرت الروائية السعودية (سمر المقرن) رواية بعنوان (نساء المنكر) مكرسة لتشويه هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الطريف أن الرواية منعت من دخول الكويت وأخذت صدى في الصحافة السعودية، وبعد هذه الضجة قام الإعلامي العماني خالد العلوي بإجراء حوار مع الروائية سمر المقرن، ونشر هذا الحوار في صحيفة الصوت الكويتية، ولكن الحوار تضمن في الحقيقة شهادة فاجأت الجميع، تقول سمر المقرن:

(الليبراليين في السعودية يتمسحون بالليبرالية وهم أبعد ما يكون عنها، فالليبرالية تعني الحرية وتعني الانفتاح، لكنهم ينظرون إلى الليبرالية من الجانب التنظيري فقط، فعلى أرض الواقع كل تلك التنظيرات تتبخر وتعد كلاما على ورق، كما أنهم ينظرون إلى المرأة باعتبارها ماكينة تفريخ، أو أنها وسيلة للترفيه والمتعة والجنس فقط، وينظرون لها نظرة لا أخلاقية)[حوار مع سمر المقرن، جريدة الصوت الكويتية، أجرى الحوار خالد العلوي].

سمر المقرن ممن اغتر بشعارات الليبراليين السعوديين، وكتبت روايتها على أساس المفاهيم التي تلقتها منهم، ولكنها حين احتكت فعلياً بهذا الوسط الليبرالي اكتشفت كما تقول سمر أن الليبراليين يريدون المرأة (وسيلة للترفيه والمتعة والجنس فقط، وتتبخر تنظيراتهم السابقة في الهواء) !، أي أنهم لا يقبلون بها زوجة لأنهم لا يثقون بها، وهذا الكلام ليس كلام شيخٍ في مركز صيفي، بل هو كلام روائية ليبرالية اكتشفت الواقع المر وأطلقت آهتها على صفحات الصحف!

وهذه الكاتبة الليبرالية المتطرفة "نادين البدير"، سبق أن كتبت شهادةً عن لاأخلاقيات الداخل الليبرالي، ونشرتها في صحيفة الوطن، تقول الكاتبة نادين:

(من السهل الكشف عن أولئك الذين يدعون الليبرالية دون أن يؤمنوا بها أو يطبقوها على أنفسهم، فحياتهم الخاصة مليئة بالمفاجآت التي تعكس ازدواجية الشخصية..، هناك الليبرالي الذي ينادي بخروج المرأة واختلاطها بالرجل، مطالبة واقعية ومنطقية ومفرحة، لكن لنسأله: أين زوجتك أو زوجاتك؟ أين أخواتك؟ أين بناتك؟ هل يخرجن فعلا ويختلطن بالرجال؟ أين نساء عائلتك عن الندوات التي تعقدها مع غيرك من المثقفين؟ لمن إذاً توجه دعوات التمرد؟ إنها لنساء الغير، لزوجات الغير، وبنات الغير)[مقالة بعنوان: الليبرالية السعودية: موضة أم نفاق؟، نادين البدير، صحيفة الوطن، ٢٩ديسمبر٢٠٠٥].

تلاحظ في هذه العبارة التي تقولها نادين (الليبرالي يوجه دعوات التمرد لنساء الغير) أنها تختصر الانتهازية الليبرالية اللاأخلاقية، ودجل شعارات تحرير المرأة وحقوق المرأة التي يتستر بها بعض الكتبة الليبراليين، وأن كثيراً من الليبراليين يقول هذه الشعارات ليحصل على بغيته من نساء الغير، لكنه لا يرضى أن تكون هذه المرأة الليبرالية زوجةً له لأنه لا يثق بها.

هذه الشهادات السابقة لم تعد لوناً نافراً في لوحة متماسكة، بل هي مجرد اصبع واحد من أصابع اتهام كثيرة صارت تشهر في وجه الليبرالية السعودية، وتجد هذه الإدانات ما يزكيها في سلوكيات الليبراليين الشخصية، فقد فاحت روائح العلاقات غير المشروعة حتى زكمت الأنوف، وبعض الليبراليين أصحاب الفجاجة لم يعد يخجل من إعلان نظرته

الجنسية للمرأة، فهذا الكاتب الليبرالي عبد الله بن بخيت كتب قبل ثلاثة أشهر مقالاً في صحيفة الرياض التي يرأس تحريرها تركي السديري، يفتخر فيه بأنه يحدّق في أجساد المارّات في المطارات ويقارن بين أجسادهن، يقول ابن بخيت:

(أحيانا تبرز من بين مفردات الوجه مفردة واحدة تتفرد بالجمال، نقول البنت هذه عليها عيون أو شفايف أو خدود، وإذا دققنا سنرى أن الأنف إما أن يخرب التركيبة أو يضفي عليها سطوة الجمال الذي تأخذك إلى جحيم المتعة، من عادتي إذا جلستُ أنتظر في مكان عام، مطار دولي مثلاً، لا أضيع وقتي بالهواجيس أو القراءة، أقيم مسابقة جمال فورية لكل النساء اللاتي يمررن أمامي، إذا نادى المذيع لصعود الطائرة أغلق باب القبول وأعلن النتيجة، أحيانا أدهش لماذا صارت أم فستان أحمر الاسكندنافية أو الهندية أو السعودية ملكة جمال مطار هيثرو أو دبي، أقلّبها في دماغي، أقارنها بمنافساتها اللاتي انتزعت اللقب منهن،أول اكتشاف أن لون البشرة لم يكن حاسما، لأن منافساتها كن على ألوان مختلفة، سمراء وبيضا وغامقة وحنطية.. الخ. ألاحظ أيضا أن الطول لم يلعب دورا كبيراً، المتنافسات اللاتي وصلن للأدوار النهائية مختلفات الأطوال، كما أن العمر لم يكن له تلك القيمة فالعشر الأوائل يقعن في مسافة عمرية تتفاوت من الأربعينيات إلى العشرينيات، من ناحية السمنة ألاحظ أن المتنافسات يبدأن من المربربة حتى النحيلة المغطاة بكمية كافية من الأنوثة..)[مقالة بعنوان: جمال المرأة، ابن بخيت، صحيفة الرياض، ١٥سبتمبر ٢٠١٠].

لاحظ أنه يعتبر (القراءة) مضيعة وقت، فيقول أنه لا يضيع وقته في القراءة وإنما يتفرس ويحدِّق في أجساد المارّات ويقارن بينهن، حسناً .. أين كلام الليبراليين الطويل والعريض أن المرأة إنسان، ويجب النظر إليها على أنها ذات رأي وعقل ودور اجتماعي؟! تبخرت هذه الشعارات وصار الليبرالي يقارن بين النساء (هذه سمينة وهذه نحيلة مغطاة بكمية كافية من الأنوثة)!

كنت وأنا أقرأ كلام ابن بخيت السابق أفكر في مشاعر زوجة ابن بخيت المسكينة لو وقعت عينها على هذا الكلام الذي يكتبه زوجها، وكيف يتبجح بأنه يتلذذ بإلصاق عينيه في النساء العابرات؟! افترض أنك نسيت حق الله في غض بصرك، فأين حق زوجتك المسكينة؟!

ربّاه .. وهل يلام الفقهاء في تحريم الاختلاط لتسلم نساء المسلمين من هذه العيون المريضة وأمثالها؟!

وفي العام ٢٠٠٤م وصلت إلى السعودية الصحفية الأمريكية (إليزابيث روبين)، وقامت بجولة واسعة في أرجاء السعودية، والتقت بعدد من الكتّاب الليبراليين وأخذت منهم تفاصيل مطولة عن حياتهم الشخصية ونقدهم للتيار الإسلامي في السعودية، وممن التقت بهم هذه الصحفية الأمريكية الكاتب الليبرالي (عبدالله ثابت) الذي كتب رواية (الإرهابي ٢٠)، وقد أفصح عبدالله ثابت لهذه الصحفية بكل تبجح أنه يتمنى ممارسة العلاقات غير المشروعة بذات الطريقة البهيمية العبثية، وقد نشرت الصحفية اليزابيث تصريح عبدالله ثابت هذا في مجلة (نيويورك تايمز)، وهي مجلة أمريكية أسبوعية معروفة تُنشر ملحقة بعدد الأحد من صحيفة النيويورك تايمز، وتنشر فيها عادةً المقالات والتحقيقات المطولة، تقول الصحفية اليزابيث روبين في هذه المجلة:

(بينما كنا أنا وعبدالله ثابت نلتف حول جبال عسير ذات القمم الصخرية الحادّة؛ صادفنا على المنحدرات الصخرية مئات القردة من فصيلة البابون، وكانت تمارس الجنس وتستمني وتعوي وتضحك، تمهل عبدالله في سيره وأخذ يستمتع بحيويتها، ثم قال "أتمنى أن أعيش مثلها"، ثم واصل مسيره)

[NY Times Magazine, 7March2004]

والحقيقة أن أي قارئ سبق أن طالع أية مطالعة عابرة في المنتديات الانترنتية الليبرالية السعودية فلن يعوزه اكتشاف التأزم الغريزي لدى الشريحة الليبرالية، فالصور التعبيرية التي يضعها أعضاء هذه المنتديات تحت أسمائهم كثيرٌ منها صور لنساء في أوضاع إباحية ومخلة بالفطرة السليمة والذوق الراقي، ثم لا يجدون أية غضاضة في التظاهر بالحديث عن أن المرأة إنسان وليست محلاً للشهوة والفتنة، وأننا يجب أن لا ننظر للمرأة نظرة جنسية! وهل ينظر للمرأة نظرة جنسية أحدٌ سواكم؟!

وأشهد لله شهادةً يسألني عنها الرقيب الحسيب يوم الفزع الأكبر، أنني سبق أن جلست عدة مجالس مع رموز تغريبية معروفة على الساحة، وكانوا يتوصفون أجساد المذيعات ويقارنون بينهن على سبيل التشهي والتلذذ، ولما رأو نفوري صرفو حديثهم، ثم يخرجون على الناس في وسائل الإعلام ويتحدثون عن تحرير المرأة وأنها إنسان وليست محلاً للشهوة والفتنة، مساكين **(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)[البقرة، ٩]**.

ومما يزيد الأمر خطورة أن هذا التوجه الليبرالي الشهواني المتستر بحقوق المرأة ليس مجرد كتابات متناثرة عابرة، بل هناك ريموتات خفية تعطي الضوء الأخضر من هنا وهناك، وتُساند وتُبارِك وتؤز، بل يصل الأمر إلى تدخل قوى خارجية كبرى بشكل يستبعده كثير من القراء غير المتابعين لهذا التيار، من يستطيع أن يتصور –مثلاً– أن الأمريكان قريبين، وقريبين جداً، إلى درجة المشاركة الفعلية في مؤتمرات تغريب المرأة؟! أنا شخصياً كنت أضحك ممن يقول هذا الكلام، لكن تفضل خذ هذه القصة المرعبة التي روتها الدكتورة الفاضلة نورة السعد في مقالةٍ لها نشرتها قبل أيام، تقول الدكتورة نورة:

(في عام ١٤٢٣هـ وفي الفترة من "١٥–١٧ذو القعدة" كان احتفال الافتتاح في الليلة السابقة للافتتاح الرسمي لمنتدى جدة الاقتصادي،تحت رعاية حرم أمير المنطقة، وشاركنا بالحضور في القاعة التي كانت خاصة بالنساء فقط، ولكن عندما حضرنا في صبيحة اليوم التالي وجدنا أن الصالة واحدة بين الرجال والنساء، وهناك حاجز فقط، ولكن المشاركين في المنصة تستطيع النساء في الصفوف الأولى أن تشاهدهم وهم يشاهدنهن! سألت إحدى المسئولات عن التنظيم، وكانت أمريكية ترتدي بدلة لونها أزرق فاتح: لماذا هذا التنظيم الذي لم يكن بالسابق؟ قالت لي: نحن تعمدنا هذا حتى نلغي الحاجز تدريجياً(gradually)، قلت لها: من قال لك أننا نريد إلغائه؟ أدركت المرأة إني لست ممن يرحبن بالاختلاط وإزالة الحاجز تدريجيا! فارتبكت قليلاً، ثم أشارت إلى امرأة أخري بريطانية ترتدي بدله لونها وردي وقالت لي: تلك المرأة هي المسئولة عن التنظيم، فذهبت إليها وسألتها السؤال نفسه، فنظرت لي طويلا ثم قالت :أنا لدي "تعليمات" بهذا التنظيم(orders) [مقالة بعنوان: قضايا المرأة تحت مظلة منتدى جدة، د.نورة السعد، الخميس ٣٠ديسمبر ٢٠١٠]

لاحظ كيف أن الموظفة الأمريكية والبريطانية لديهن "تعليمات" بمسلسل تدريجي لإلغاء الحاجز بين الرجال السعوديين والنساء السعوديات على أرض السعودية نفسها! يا ألطاف الله، كيف يصل الاختراق إلى هذه الدرجة؟!

ونتيجةً لهذه الصورة الأخلاقية المتعفنة للداخل الليبرالي؛ فإن كثيراً من المراقبين أطلقوا على الليبراليين السعوديين توصيفات طريفة، ومن هؤلاء الكاتب الوطني في صحيفة عكاظ الأستاذ "خالد السليمان" حيث يقول:

(المشروع الليبرالي ليس أكثر من مشروع انثوي يبدأ بالمرأة، وينتهي بالمرأة، مرورا بالمرأة) [عكاظ، ٢٦مايو٢٠٠٧]

ومن هؤلاء المراقبين –أيضاً– الكاتب الديمقراطي د.محمد الأحمري، حيث يقول عن الليبراليين السعوديين:

(مجموعات من الليبراليين فهمت الليبرالية على أنها "ليبرالية الجزء الأسفل من الإنسان" ولذلك – مثلاً– الروايات السعودية روايات جنسية، وطابع الانفتاح هو انفتاح في القضايا التافهة، وليس في قضايا من مصلحة الناس)[لقاء مع د.الأحمري، برنامج إضاءات، ٩فبراير٢٠٠٩م]

ولكن هل ياترى هذه النظرة الشهوانية المتسترة بتحرير المرأة خصيصة لليبرالية السعودية، أم أن الليبرالي العربي يعاني – أيضاً– من نفس المرض؟ أميل شخصياً إلى أن هذه عاهة عامة في غالب التغريبيين، وليست خاصة بالتغريبيين السعوديين فقط، فغالب التغريبيين يتحسر في الإعلام على تحرير وحقوق المرأة وإنسانية المرأة، وإذا جاء مستوى التعامل المباشر رفرفت الشعارات بعيداً بعيداً. خذ مثلاً بعض الأمثلة، فهذا المثقف اليساري الملتزم بوعلي ياسين، والذي قدم عدة دراسات اجتماعية للمجتمع السوري، وكان ضليعاً في تراث ماركس، يقدم شهادةً أخرى على التغريبي العربي، حيث يقول في كتابه عن أزمة المرأة شارحاً كيف لا يثق الليبرالي في المرأة الليبرالية، وأنه يريدها للمتعة فقط:

(الرجل المثقف في مجتمعنا يدعو إلى المساواة ويطالب المرأة بأن تكون ندا للرجل ولكنه نادراً ما يتزوج هذه المرأة المتساوية معه أو الند ل، إنه يقبلها صديقة، رفيقة، زميلة؛ لكنه يخافها ويبتعد عنها كزوجة.. إنه يريدها غرّة، ولذلك تراه يركض وراء المراهقات) [أزمة المرأة في المجتمع الذكوري، بوعلي ياسين، ص٨٩]

لاحظ هذا التصوير الذي يقدمه بوعلي ياسين لليبرالي السوري الذي يرفع شعار تحرير المرأة، إنه قريب جداً من الحالة الليبرالية السعودية، فهو يريد المرأة صديقة للمتعة لكنه لا يقبل بها زوجة!

وهذا المفكر المصري المعروف د.جلال أمين، يكشف عن نفسه وعن زملائه النظرة النسونجية للمرأة، وليس في الشارع ولا في السوق، بل وهو في موقع دكتور جامعي وأمام طالبات جامعيات يفترض أنهن يثقن فيه ويعتبرن العلاقة معه علاقةً علمية بحتة، حيث يقول في كتابه "ماذا علمتني الحياة؟" :

(وكم ظلت رؤية وجه جميل لطالبة معينة أو أخرى، واستثارة تعبير الإعجاب منه؛ حافزاً إضافياً لديّ للذهاب بحماس لإلقاء المحاضرة، وقد اعترف لي مرة أستاذ مصري كبير بأن شيئاً كهذا هو الشيء الوحيد الذي يجعله يطيق مهمة التدريس أصلاً!) [ماذا علمتني الحياة؟، د.جلال أمين، ص٢٨٧]

واخيبتاه إذا كانت هذه هي سلوكيات الأستاذ الجامعي!

حسناً .. أعتقد أن الشواهد والمعطيات السابقة كافية جداً لتزويدنا بمؤشرات في غاية الخطورة حول حجم التدهور الأخلاقي في الداخل الليبرالي والتغريبي، فالسؤال الآن: ماهي الثمرة من هذا التصور؟ وماذا يفيدنا تكلف فحص المعطيات حول الواقع الأخلاقي الليبرالي؟

الحقيقة أن فحص وتحليل المعطيات حول الواقع الأخلاقي الليبرالي برغم أنها مؤذية لمشاعر المؤمن؛ إلا أنها مهمة جداً لتحقيق عدة استنتاجات وخلاصات، منها:

أن بعض الذين ينسبون أنفسهم للتجديد الإسلامي من المتصالحين مع المشروع التغريبي يتورطون في تدليس حقيقة الصراع مع التيار الليبرالي، وتراهم يكررون دوماً بأن الصراع مع التيار الليبرالي صراع مفتعل، وساذج، وحول قضايا تافهة، وأنه يدور حول مشاغل ليست من حاجات المجتمع الحقيقية، ونحو هذا الكلام، وهذا تلبيس فظيع على الناس،

بل الصراع بين الإسلاميين وجمهور الليبراليين هو صراع بين الفضيلة والرذيلة، وليس هذا مجرد دعوى، بل هذا باعتراف وشهادة كثير ممن هم داخل التيار الليبرالي نفسه.

وهل حفظ الفضيلة في المجتمع المسلم، وحماية فتيات المسلمين من هذا المشروع الانحلالي المذهل؛ ليس من حاجات المسلم الحقيقية، يا لله العجب، وهل على المسلم شيءٌ بعد التوحيد أغلى من الأعراض؟! ألا بئست تلك النفوس التي زهدت في حفظ أعراض المسلمات..

ومن أعجب الإشارات القرآنية إلى هذا التيار الانحلالي المفسد أن الله تعالى قابل بين إرادة الله التوبة، وإرادة هؤلاء المفسدين انتشار العلاقات غير المشروعة، وهذا تنبيه لطيف من الله تعالى أن ضد مراد أولئك من تشريعات الزكاء والطهر ما شرعها الله لنا إلا ليتوب علينا ويزكينا ويطهرنا، قال تعالى موضحاً هذه المقابلة:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلا عَظِيمًا)[النساء، ٢٧].

وما رأيت أكثر مجازفة من هؤلاء المفسدين، فإن الله لم يكتف بالعقوبة الأخروية، بل حذرهم عقوبتين، عقوبة دنيوية وعقوبة أخروية، والدنيوية أعم من الحد، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ)[النور، ١٩]

ويحك إنك لا تطيق عقوبة ملك من ملوك الأرض، فكيف تطيق عقوبة ملك الملوك في الدنيا والآخرة؟!

ومن أهم النتائج لاستيعاب الانحدار الأخلاقي في الداخل التغريبي أن الشاب المسلم حين يرى ذلك يرفع يديه بحمد الله وشكره والثناء عليه أن شرفه وذاده وجنّبه الدخول في هذه المستنقعات الليبرالية، فهذا كله فضل من الله وحده جل وعلا، كما أشار كتاب الله لذلك:

(وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا)[النور، ٢١].

بل تأمل في قرب تأثير الشيطان لولا لطف الله بالعبد كما يقول تعالى:

(وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلا قَلِيلا)[النساء، ٨٣]

يا ألله .. لاتبعنا الشيطان إلا قليلا؟!

فكيف لو حجب الله التوفيق عن العبد؟! والحقيقة أن تأمّل هذا يوجب للعبد مزيد تعلق بالله، وشدة تفويض الأمور إليه، والبراءة من الاغترار بالقدرات الذاتية، فإن الله تعالى إن وكلك إلى نفسك فوالله لا يبالي الله بأي أودية الدنيا هلكت، كما أشار كتاب الله لهذه الحاجة المركوزة في فطر بني آدم إلى لله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)[فاطر، ١٥].

ففي القلوب صدع لايرأبه إلا الإقبال على الله، وفي النفوس وحشة لا يطمئنها إلا ذكر الله والتعلق به **(الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)[الرعد، ٢٨]**

ومن أعظم ثمرات هذا التصفح للواقع الأخلاقي الليبرالي الأليم؛ أن فيه أمارة من أمارات نبوة محمد، وتصديقاً لخبره صلى الله عليه وسلم، فكلما رأيت شدة وانهماك التغريبيين في التركيز على (ملف المرأة) تعاظم يقيني بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وصدق خبره، فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

(إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء)[مسلم، ٧١٢٤]

وروى البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

(ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء) [البخاري، ٥٠٩٦]

ومن أعظم ثمرات اكتشاف تغرير الليبراليين بالفتيات السعوديات تحت شعارات تحرير المرأة وحقوق المرأة وعمل المرأة ونحوها؛ أننا يجب أن لا نقف متفرجين مكتوفي الأيدي، بل يجب أن نتحرك بكل ما في وسعنا لإنقاذ أكبر عدد يمكن إنقاذه من هؤلاء المستغفلات، وفي الداعيات والمثقفات الإسلاميات خير كبير، وهن الأمل –بعد الله– في تنفيذ هذه المهمة الإنقاذية بشكل إسعافي عاجل.

ومن نتائج الوعي بالمكر الليبرالي الخطير في ملف المرأة؛ معرفة فضل العلماء الربانيين المحتسبين الذين صاروا مرصاداً لهؤلاء المفسدين، وعامة علمائنا ولله الحمد لهم جهود مشكورة في تعليم الناس الفضيلة وتحذيرهم من مخططات هؤلاء المفسدين، ولكن الأحداث الأخيرة أظهرت إمامين اختصا بجهاد لا يكل ولا يفتر، وهما الإمامان عبدالرحمن البراك وعبدالمحسن العباد، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، فاسأل الله أن يزيدهما شرفاً في الدنيا والآخرة، لقاء ماقدما لأمة محمد صلى الله عليه وسلم.

والله تعالى أعلم،،

ابوعمر

صفر ١٤٣٢هـ

ذهول الحقائق

الحمدلله وبعد،،

في يوم الأربعاء الثاني من هذا الشهر قدم إلى الرياض أحد أقاربي يكنى بأبي عبدالكريم، وهو في منتصف الأربعينات من عمره، وكانت بيني وبينه مودة حميمية خاصة، وإلى هذه الساعة مارأيت مثله في سلامة القلب للناس والإحسان للمستضعفين كالعمال والجاليات والأطفال ونحوهم، وله علي خصوصاً فضل خاص لا أنساه ما حييت، وما إن وصل لمنزلي إلا وكانت آثار الإرهاق بادية عليه، فطلب فراشاً ونام في المجلس ساعةً، ولما حان موعد الغداء أيقظته وتناولنا الغداء سوياً، ثم جلسنا نتجاذب أطراف الحديث فأثار مسألة (صلاة الجماعة للمسافر)، وطلب مني كتباً عن هذا الموضوع، فصعدت لمكتبتي وأتيت بجزء الصلاة من فتاوى ابن باز التي فرّغت من نور على الدرب، وفتاوى ابن عثيمين التي جمعها الشيخ فهد السليمان، قرأنا المسألة التي أرادها، ثم استأذن وغادر..

هذا كان يوم الأربعاء، وفي يوم الجمعة الذي يليه اتصلت بي والدتي تقدم لي خبراً على التدريج، فقالت لي: ابوعبدالكريم، ياوليدي، الحمدلله على قدره، جاه حادث، ثم سكتت.. سألتها: وفي أي مستشفى هو الآن؟ فقالت لي: توفي الله يرحمه..

صمتُّ برهةً، وودعت الوالدة وأغلقت الهاتف، كل الذي دار في خلدي تلك الساعة أن الوالدة أتاها الخبر بشكل خاطئ، وأن أباعبدالكريم قطعاً لم يمت، مكثت قليلاً ثم عاودت الاتصال، وسألت والدتي: أنت متأكدة من الخبر؟ قالت: هاهم أهله يبكون..

ودعت الوالدة وأغلقت الهاتف مرةً ثانية، بقيت في مكاني لا أعرف ماذا أصنع، ثم اتصلت بشقيقه، فلما رد علي وسمعت صوته المتهدج، دب إلي اليقين، وسألته:ابوعبدالكريم.. فقاطعني وقال بصوت ممزوج بعبرات متكسرة: ابوعبدالكريم يطلبك الحل.

أدرت محرك سيارتي متوجهاً لمنزله خارج الرياض، وذهبت في نفر من أهله إلى مغسلة الموتى التي سيغسل فيها، وحين فرغ المغسل أذن لنا بالدخول، وكشف لنا عن وجهه، فسلمت عليه، وقبلت بين عينيه، ودعوت له، ولم أملك نفسي حينها أن قلت: ما أطيبك حياً وميتاً يابوعبدالكريم..

جلسنا في منزله وقدم بعض الناس يعزون، وأنا لا زلت غير قادر على الإفاقة من صدمة المواجهة.. عدت للرياض وإلى هذه الساعة وصورته لا تفارق ناظري، وأعيد تذكر كل كلمة قالها حين كان في ضيافتي يوم الأربعاء الذي سبق وفاته، بل وكنت أدخل المجلس وأشاهد الزاوية التي افترشها ونام فيها..

مررت بحوادث ووفيات كثيرة، لكن لأول مرة يهجم علي الإحساس بقرب الموت ودنو الأجل بمثل هذه الصورة.. لما كنت في منزل ذويه والمعزون يقدمون عليهم كنت أطالع وجوه الناس، وأنظر لنفسي بينهم وأقول: كلنا قدمنا للعزاء، وغالبنا يظن أن المصيبة مصيبة غيره، وننسى أن هناك ساعة سجلت لكل واحد منا سيغادر فيها هذه الحياة، وسيغسل، ويوضع في كفنه، ويوسد لحده، وتصف اللبنات فوقه، ويهال عليه التراب، وينصرف الناس عنه.. من الناس من سيموت في هذا الشهر، ومنا من سيموت قبيل رمضان هذا العام ولن يدركه، ومنا من سيدرك سنةً أو سنتين أو مازاد على ذلك.. ولكنها النهاية المحتومة.. ساعةٌ مكتوبةٌ قريبةٌ منا سنغادر فيها هذه الحياة..

هذا الساعة التي تم تحديدها قبل أن تخلق السموات والأرض، وكتبها الملائكة الكرام حين كان الإنسان جنيناً عمره أربعة أشهر، نحن نسير إليها الآن بالعد التناقصي، فإذا كان العام الماضي يفصلنا عنها ثلاث سنين، فاليوم يفصلنا عنها سنتان، وهكذا نحن نقترب كل دقيقة من هذه اللحظة الحاسمة للانتقال للدار الآخرة..
هذه الحقيقة الكبرى كيف غفلت عنها طوال هذه السنوات؟ وكيف يغفل كثير من الناس عنها؟ الكثير من الناس يعرف هذه الحقيقة معرفة نظرية عقلية بحتة، لكنه لم يعشها يقيناً قلبياً غامراً يستحوذ على تفكيره..
ومن أعاجيب النفوس، وما يمور فيها من الأحاسيس؛ أن بعض الناس يكره ذكر الموت، ويدور في مشاعره الخفية أنه حين يتحاشى ذكره فإنه يبتعد عنه، وحين يذكره يكون قريباً منه، ويتكلف الأسباب المشروعة وغير المشروعة في مدافعة الموت يظن أنه سيؤجل يومه المكتوب؛ وهذا (الفرار النفسي) من الموت صوره القرآن تصويراً تبكيتياً حين قال تعالى: **(قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) [الجمعة، ٨]**

و هَبْ أنك فررت، وافترض أن خطراً من الأخطار سلمت منه؛ فحتى ما ستعيشه بعد ذلك سيظل فترة زمنية محدودة، يقول تعالى:
(قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لا تُمَتَّعُونَ إِلا قَلِيلا)[الأحزاب، ١٦].
فحتى لو سلمت من خطر معين، فسيظل المتاع قليل، وسيأتي خطر لن تفر منه..

وصوّر القرآن معنى آخر قريباً من الفرار، وهو التحايد، فالفرار ابتعاد عن موضع الخطر، والتحايد أشبه بمحاولة التحاشي عن سهام الموت، يقول تعالى:
(وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ) [ق،١٩].

فلن ينفع الفرار، ولن ينفع التحايد.. وستأتي قريباً ساعة الانتقال للدار الأبدية..
بل تأمل ما هو أعجب من ذلك، وهو أن الإنسان يسير بقدميه إلى الموضع الذي كتب الله وفاته فيه، وهو لايعلم القدر المخبوء، حيث يقول تعالى:
(قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ)[آل عمران، ١٥٤]
بل قد تجد كثيراً من الناس يمر بطريق، أو غرفة، أو مستشفى، أو غيرها، سنوات عديدة من عمره، ولا يخطر بباله أن هذا الموضع الذي يمر به هو الذي كتب الله وفاته فيه بعد كذا وكذا من الساعات والدقائق..

والمراد أن هذه اللحظة القادمة التي تنتظرني وتنتظرك يا أخي الكريم؛ لحظةٌ لا تقبل التأجيل ولا التقديم، ساعة قررها الجبار جل جلاله، كما قال تعالى:
(وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ)[النحل، ٦١]

ومن جملة التعلق بالأسباب المادية أن كثيراً من الساسة والأثرياء يتوهمون أنهم في قصورهم المشيدة أبعد عن مخاطر الموت من سكان الشقق والصفيح والأحياء العشوائية، والقرآن يكشف هذا الشعور المزيف، حيث يقول تعالى:
(أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ)[النساء، ٧٨]

ولذلك فإن فريقاً من الناس يكره فريضة (الجهاد) لأنه يظن أنها تقربه للموت! وينسى أن الموت قررت له ساعة معينة قبل أن يخلق، وقد شرح القرآن شيئاً من هذا التصور كما يقول تعالى:
(وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ)[النساء، ٧٧]
ولذلك يعرف الناس قصصاً كثيرة لمقاتلين تمرغوا فوق جبهات الشظايا وتحت قصف الطائرات، ومع ذلك عادوا لبلدانهم وعمروا سنين عددا، ويعرف الناس بالمقابل أصحاء أشداء داهمهم الموت فجأة فوق أسرَّتهم الأنيقة.. لماذا؟ لأن هذه الآجال محسومة قبل أن يخلق الناس لا ينفع فيها فرار ولا تحايد..

بل إن بعض الجهلة إذا ذكر له أن رجلاً من الناس مات في سبيل الله اعتبر سلامته هو من هذا الموت نعمة من الله، وهذا نظير تفكير عبدالله بن أبي حين حكى الله تصرفه ومقالته:
(وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا) [النساء، ٧٢]

وقفت بعد هذه الجنازة وأخذت أتذكر قوائم من الأصدقاء والأقرباء وغيرهم ممن حانت ساعة رحيلهم المكتوبة وودعونا في السنوات السابقة، تذكرت أصدقاء درسوا معنا في المرحلة الثانوية، وأصدقاء درسوا معنا في الجامعة، وأقرباء كانوا

يخالطوننا بشكل دوري، وتذكرت علماء كانوا سمع الدنيا وبصرها، حين كنا نتداول أخبارهم، تذكرت ابن باز وابن عثيمين وابن جبرين وابن غديان وغيرهم، بل تذكرت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– الذي طاف بالكعبة وسعى بين الصفا والمروة وقرأ بالناس إماماً في مسجده بالمدينة النبوية؛ ذهبوا كلهم بين أطباق الثرى.. فكيف يا ترى يأمن الإنسان ويغفل وهو يرى الناس حوله يتناقصون؟! هذا والله سر من أسرار النفس البشرية..

حين يتمعن الإنسان في هذه الحقيقة الكبرى، حقيقة الموت؛ تسري به سلسلة التساؤلات إلى هذه المفارقة التي نعيشها يومياً، أعني التناقض بين العقيدة والسلوك، إذا كنا نؤمن فعلاً بأن لحظة توديع الدنيا قريبة منا، قريبة منا جداً، إنها لحظة بالأبواب، إنها على طرف الثمام، وقد أخذت أعداداً ممن ساكنونا وآكلونا وناقشونا وزاملونا ودرّسونا؛ فكيف ياترى نغفل ونحن نرى أخبار الموتى لا تتوقف؟ وقد أشار القرآن إلى هذه المفارقة بين قرب الأجل في مقابل استمرار الغفلة، فقال تعالى:

(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ) [الأنبياء، ١]

وأخذت مرةً أتأمل أسباب هذه الإشكالية في كتاب الله، وأحاول البحث عن موقف القرآن من هذه العلاقة، فوجدت ثلاث مشاهد صور القرآن تفاصيلها تكشف سراً من أسرار المشكلة، ألا وهو مشكلة التأجيل..

فهذه الخطايا التي لازلنا نواقعها لا تجدنا غالباً مخططين للاستمرار عليها، وإنما نقول في أنفسنا إنها مجرد فترة يسيرة وسنصحح أوضاعنا جذرياً، لكن الزمان يتفارط، وينسل الوقت من بين أيدينا ونحن لا نشعر؛ حتى نتفاجأ بملك الموت واقف ليأخذ أرواحنا في الساعة المقدرة.. أرأيت؟ إنه الذهول عن الحقائق الكبرى تحت غمامة التأجيل..
أخبرنا كتاب الله عن فئام من الناس حين يحضرهم الموت يسألون الله أن يرجعهم، ويعاهدونه أن يعملوا الأعمال الصالحة التي أجلوها، ولكن هيهات، لقد فات الأوان، يقول تعالى:
(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ** لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) [المؤمنون، ١٠٠]
أمامنا اليوم فرصة للعمل الصالح قبل أن تأتي هذه الساعة القريبة المفاجئة التي لن تنفع فيها التوسلات بالعودة لزمان العمل..

وأخبرنا كتاب الله عن فئام من الناس حين يحضرهم الموت يسألون الله فسحة زمنية يسيرة ليتصدقوا، ولكن بعد ماذا؟ بعد أن فات الأوان؟! يقول تعالى:
(وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ** وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) [المنافقون، ١١]
وهانحن الآن في زمن إمكانية التصدق، فهل سنتردد في قرار النفقة حتى تأتي تلك الساعة التي نبدي فيها الاستعداد للتصدق، ولكن بعد فوات الأوان؟!
وأخبرنا كتاب الله عن فئام من الناس حين يحضرهم الموت يعلنون التوبة ويستغفرون الله، ولكن هل هذا هو وقت التوبة والاستغفار؟ يقول تعالى:

(وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)[النساء، ١٨]

لازلنا الآن في الساعات الأخيرة التي تسبق إغلاق باب التوبة، والتوبة إلى الله تحتاج قراراً فورياً عاجلاً، قرار لا يحتمل التأجيل ثانية واحدة، قرار يجب أن يدشن الآن، قبل أن تفوت الفرصة..

هذه المشاهد الثلاث التي ذكرها القرآن عن أحوال المحتضرين، وأمنياتهم، من أشد المشاهد زلزلة لمشاعر المؤمن الموقن بلحظة الموت وقربها.. وخصوصاً إذا وضع نفسه في هذه المشاهد، فتخيل كيف لو كان هو نفسه يسأل الله عند الاحتضار أن يعود للدنيا ليعمل صالحاً، أو يسأل الله أن يعود للدنيا ليتصدق ويكون من الصالحين، أو يسأل الله عند الاحتضار أن يتوب عليه ويغفر له، وفي كل هذه الأمنيات يواجه بالرفض لأنها دعوات تجاوزت الموعد النهائي للقبول، وقد كان يمكنه ذلك لو بادر قبل هذه اللحظة..

والواقع المشاهد اليوم أن من أكثر ما ينسج حول العيون حجاب الغفلة التنافس الاجتماعي على الدنيا، فالمرء منذ أن يُستجر إلى (دوامة المباهاة) فإنه لا يكاد يفيق منها إلا على أعتاب القبر، والناس اليوم كأفراس رهان على المناصب والمساكن والسيارات والملابس، لا يكاد أحدنا يلتقط أنفاسه من هذه المنافسات الاجتماعية على حطام الدنيا، وقد نبه القرآن على هذا المعنى الواسع بأوجز عبارة وأبلغ صياغة، بالله عليك تأمل قوله تعالى:

(أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ** حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ) [التكاثر، ٢]

أرأيت أين تنتهي حفلة التكاثر هذه؟ تنتهي عند أول ليلة في القبر وحينها يكتشف أحدنا أنه ضيع حياته المستقبلية الحقيقية، ولكن بعد ماذا؟ بعد فوات الزمن المحدد من الله جل وعلا..

وهذا التكاثر الذي تحدثت عنه سورة التكاثر؛ جاء في آية أخرى في سورة الحديد، حيث يقول تعالى:

(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ، وَلَهْوٌ، وَزِينَةٌ، وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ، وَتَكَاثُرٌ فِي الأَموَالِ وَالأَوْلاد) [الحديد، ٢٠]

وإذا وفق الله الإنسان أن ينخلع من ملاحظة ما يكتسبه الخلق، ويتزاحمون عليه، والتحرق على المنافسة فيه، من مناصب ومساكن وسيارات، وأقبل على ما هو أعظم من ذلك وهو صناعة المستقبل الأبدي وعمارة النفس بالله، فإنه سيكتشف للحياة معنى آخر، معنى أسمى من الحطام الصغير المؤقت..

كلما رأيت نفسي في غفلة، وكلما رأيت نفسي وقد ذهلت عني الحقائق الكبرى؛ قلت في نفسي: فتش عن (دوامة التكاثر) ..

ولا أعرف مفهوماً عقلياً لا يكاد المرء حين يتأمله أن يطيق آثاره الإيمانية مثل المقارنة بين (أبدية الحياة الآخرة) و (تأقيت الحياة الدنيا)، مقارنة التأقيت بالأبدية تجعل الدنيا رقماً مهملاً لا يستحق الذكر أصلاً، الأبدية ليست مائة سنة، ولا ألف سنة، ولا مليون، ولا مليار، ولكنه أبد الآبدين بلا نهاية، من يستطيع أن يتصور؟! ثم قارن ذلك بالدنيا التي لا تتجاوز سنيات معدودة، مجرد التأمل في مفهوم (الأبدية) يكاد أن يصل بالنفس إلى أعظم مراتب العزم..

تأمل معي هذا المثال: لو قيل لشخص من الناس إنك ستجلس في هذا البلد الذي أنت فيه خمس سنين، ثم سننقلك إلى بلد مجاور وستعيش فيه مائة سنة، فماذا ترى هذا الرجل صانعاً؟ لا شك أنه سيحول كل ممتلكاته وأمواله وأرصدته إلى البلد الثاني الذي سيعيش فيه الزمن الأطول، وسيقتصد في الصرف في بلده الأول قدر الطاقة، ويتبلغ بالكفاف، لأنه ينتظر الحياة المستقرة في البلد الثاني الذي سينتقل إليه، إذا كان هذا في المقارنة بين منزلين أحدهما خمس سنين، والآخر مائة سنة، فكيف بالله عليك سيكون التصرف حين المقارنة بين منزل مؤقت ومنزل مؤبد لا ينتهي أصلاً؟! ثم ليس الأمر مؤبد فقط، بل قد يكون مؤبداً بأعلى درجات السعادة في قصور الجنة ونعيمها، أو مؤبد في أحط درجات الآلام الجسدية والنفسية في أودية النهار ولهيبها.. كل ذلك أبد الآبدين.. وماذا بعد مفهوم (الأبدية) من واعظ؟!

وكنت ألاحظ في كثير من كتب الفكر المعاصر، خصوصاً الكتب الفكرية غير الإسلامية؛ أنها تكاد تخلو من ذكر الموت والدار الآخرة، ويعدون ذلك شأناً غير رفيع، فذكرت هذه الملاحظة لأحد الشباب الذين يقرؤون في هذه الكتب، فقال لي: إن هذا تصرف له ما يبرره، فقلت له: وما الذي يبرره؟ فقال لي: (إن استحضار الموت واليوم الآخر يصرف الإنسان عن بناء الحضارة والنهضة، فيجب أن نؤمن بالموت واليوم الآخر، ثم نحيّده حتى نستطيع أن نبني الحضارة والنهضة بعيداً عن الضغط النفسي لفكرة الموت واليوم الآخر) هذا ملخص كلامه، بعضه بعبارته وبعضه بمعناه.
والحقيقة أن هذا فهم مغلوط كلياً، ولا يقول هذا الكلام رجل قرأ كتاب الله وأيقن صدقاً بمعانيه، فإن استحضار الموت واليوم الآخر هو الذي يدفع فعلاً للعمل الصالح النافع المثمر طبقاً لمراد الله، فإن الله تعالى لما ذكر الصلاة، وهي رأس العبادات، ذكر أنه لا يطيقها إلا من يوقن بالموت ولقاء الله، كما قال تعالى عن الصلاة:
(وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلا عَلَى الْخَاشِعِينَ ** الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)[البقرة، ٤٦].
فانظر كيف كانت الصلاة هينة ميسرة لمن امتلأ قلبه باليقين بلقاء الله..
ولما ذكر الله تخاذل جنود طالوت، بين أنه لم يقف ويثبت معه إلا من امتلأت قلوبهم باليقين بلقاء الله، كما قال تعالى:
(فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ، قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)[البقرة، ٢٤٩]
فانظر كيف لم يصبر في مقام الجهاد، إلا من عمرت نفوسهم بحقيقة الموت واليوم الآخر..

وترى أمثال هؤلاء المفكرين التغريبيين –أو من أصابتهم بعض شُعب التغريب– يتندرون بمن يكثر من ذكر الموت، ويسميها بعضهم (عقيدة انتظار الموت) على سبيل الاستهانة والانتقاص، بالرغم من أن انتظار الموت شعبة من شعب الإيمان في كتاب الله كما قال تعالى:
(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ، وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا) [الأحزاب، ٢٣]

وامتلاء القلب باليقين بقرب الأجل والحساب نبه عليه القرآن في قوله تعالى:
(أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ) [الأعراف، ١٨٥]

وأعاد ذات المعنى في مطلع الأنبياء فقال تعالى:
(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ) [الأنبياء، ١]

وقد كان أئمة الأولياء في هذه الأمة يستحضرون دوماً قرب الأجل ودنو الموت، فهذا رأس أولياء هذه الأمة ابوبكر الصديق –رضوان الله عليه– يستحضر هذا المعنى كثيراً، فقد روى البخاري في صحيحه قصة مؤثرة عن أبي بكر، حيث جاء في البخاري:
(لما قدم رسول الله –صلى الله عليه وسلم– المدينة وُعِك أبو بكر وبلال، فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول: كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شراك نعله) [البخاري، ١٨٨٩]**

والمراد أنه ليست الإشكالية في أن يستحوذ على القلب والعقل اليقين بقرب الأجل والحساب، فهذه شعبة إيمانية قرآنية عظيمة، وإنما المشكلة تعطيل العمل والفتور عن الدعوة والإصلاح.. وقد أوضح كتاب الله أن اليقين بلقاء الله يدفع للمزيد من العمل ويمنح المؤمن القوة والصبر، لا العكس كما يتوهم كثير من التغريبيين، أو من أصابتهم بعض شُعب التغريب..

والحقيقة أن استحضار الحقائق الكبرى كالموت ولقاء الله، وتمزيق ضباب الذهول الذي يلفها؛ يثمر للمرء تصحيحاً هائلاً في مسيرته العلمية والدعوية والاجتماعية، ويغير جذرياً من نظرته لكثير من الأمور، فيصبح يقرأ الأشياء على ضوء سؤال: هل تقرب من الله وتنفع في اليوم الآخر أم لا؟
ومن أعظم ذلك القلق حول طبيعة قضاء الوقت والعمر، فالإنسان الغافل عن ذكر الموت تمر أوقاته وساعاته دون أن يتنبه ويتساءل حول جدوى ما يصنع، لكن المؤمن الذي يهجم عليه ذكر الموت ودنو الأجل وقرب لقاء الله؛ فإنك تجده يزهد في اللقاءات والاجتماعات في استراحات الضياع التي تذهب فيها الأوقات سدى، وتتعالى فيها القهقهات، ويجوب الناس فيها أحاديث لا تقرب من الله إن لم تكن تبعد عنه، حتى وإن كان ظاهر الجالسين الصلاح أو طلب العلم، فالعبرة بالحقائق، وما أكثر ما تكون المجالس في غير ما يقرب من الله..

المؤمن المستحضر لحقيقة الموت ودنو الأجل يبخل بوقته أن يذهب في روايات تلو روايات، وأفلام سينمائية في إثر بعضها، وتتبع لتعليقات وترهات على صفحات المواقع الاجتماعية كالفيسبوك وتويتر، أو منتديات الانترنت..

طالب العلم الجاد الذي تشبع بحقيقة الموت تختلف نظرته للمؤلفات والكتب، ويدب إليه الزهد في الترف النظري، ويصبح مقصوده في الكتب (معرفة الهدى بدليله) ويضمر شغفه بملح العلم ونكته ولطائفه الجانبية، وتصبح في مرتبة تبعية غير مقصودة بالأصالة، وإنما مقصوده الأصلي معرفة معاني كلام الله ورسوله وبثها في الناس..

والمجاهد الذي يجاهد التيارات البدعية والفكرية المنحرفة إذا تشبع قلبه بحقيقة الموت وقرب الحساب، صار يقتصد في ذكر الناس إلا بقدر ما يبين الحق ويظهره، وما أحسن العبارة المنقولة عن الإمام الحافظ عبدالله بن عون شيخ شعبة وابن المبارك، أنه قال (ذكر الناس داء، وذكر الله دواء) [النبلاء، ٤٤٨/١١].

والمؤمن الذي امتلأ قلبه باليقين بلحظة القبر، يتحرق على أوقات الانتظار والمسير والجلوس العابر أن تذهب في غير ذكر الله، وأي جمال وبهاء لحالة الذاكر لله واقفاً وجالساً ومضطجعاً والتي يصفها كتاب الله في قوله تعالى:
(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ) [آل عمران، ١٩١]

بل تأمل ماهو أعجب من ذلك، وهو أن الله يأمر بالصلاة التي كلها أذكار، ثم بعد الصلاة يأمر باستمرار الذكر على هذه الأحوال، فيقول تعالى:
(فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ)[النساء،١٠٣]

بالله عليك خذ هذا المثال العابر: تأمل هذه الساعات التي فاتت من ظهر اليوم، أو من عصر اليوم، هذه الساعات التي فاتت، ذهبت علي وعليك، هذه الساعات سلخت من أعمارنا ولن تعود أبداً، فإن كنا عمرناها بتسبيح أو تحميد أو تكبير أو سجدة أو نفع للمسلمين فإنها ستكون شاهدة غداً في صحائفنا، وإن ذهبت هذه الساعات من ظهر أو عصر اليوم سدى، فيا حسرتنا ويا غبننا في فرصة أعطيت لنا ثم سحبت ولم نستغلها..

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:
(وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ ** أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ) [الزمر، ٥٦].

والله أعلم،،
ابوعمر
ختام شهر الله المحرم ١٤٣٢هـ

السهر المجهول

الحمدلله وبعد،،
تتحدث كتب النفس وبرامج الاستشارات التلفزيونية والنصائح الطبية ونحوها عن مشكلة يسمونها (مشكلة السهر) .. ويطرحون لها الحلول والعلاجات ويتكلمون عن أضرارها، لكن ثمة نوع آخر من السهر لا أرى له ذكراً بينهم .. إنه سهر من نوع خاص .. سهر يذكره القرآن ويتحدث عنه كثيرا .. وكلما مررت بتلك الآيات التي تتحدث عن هذا السهر شعرت بالخجل من نفسي..

في أوائل سورة الذاريات لما ذكر الله أهوال يوم القيامة توقف السياق ثم بدأت الآيات تلوّح بذكر فريقٍ حصد السعادة الأبدية واستطاع الوصول إلى (جناتٍ وعيون) .. ولكن ما السبب الذي أوصلهم إلى تلك السعادة بين مجاهل تلك الأهوال؟ إنه (السهر المجهول) .. تأمل كيف تشرح الآيات سبب وصول ذلك الفريق إلى الجنات والعيون:
(إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ *كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ)[الذاريات،١٦-١٧].

أرأيت .. استحوذ عليك المشهد؟ لا عليك، شعورٌ طبيعي جداً..

تأمل كيف كان سبب سعادتهم أن نومهم بالليل "قليل"! إذن أين يذهب بقية ليلهم؟ يذهب بالسهر مع الله جل وعلا .. ذلك السهر المجهول.. ذكرٌ لله، وتضرعٌ وابتهالٌ بين يديه، وتعظيمٌ له سبحانه، وافتقارٌ أمام غناه المطلق سبحانه، وركوعٌ وسجودٌ وقنوت .. هذا غالب الليل.. أما القليل منه فيذهب للنوم.. القليل فقط بنص الآية (كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون)..

وفي سورة الزمر لما ذكر الله عدداً من الآيات الكونية عرض هذا السهر الإيماني بصيغة أخرى، لكن فيها من التشريف ما تتضعضع له النفوس .. لقد جعل الله هذا السهر الإيماني أحد معايير (العلم)، نعم.. قيام الليل أحد معايير العلم بنص القرآن، وهذا أمر لا تستطيع بتاتاً أن تستوعبه العقول المادية والمستغربة لأنها لم تتزكّ بعد بشكل تام وتتخلص من رواسب الجاهلية الغربية، لاحظ كيف دلت خاتمة الآية على التشريف العلمي لهذا السهر الإيماني، يقول تعالى:
(أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ) [الزمر، ٩]

فلاحظ في هذه الخاتمة كيف جعل الله من لم يقنت آناء الليل فهذا مؤشر على جهله، ومن قنت آناء الليل فهذا مؤشر على علمه.. وقد يقول قائل .. لكن كثيراً ممن لا يقنت آناء الليل نرى بالمقاييس المادية المباشرة أن لديه علماً؟ فالجواب أن القرآن اعتبر العلم بثمرته لا بآلته، وثمرة العلم العبودية لله، فمن ضيع الثمرة لم تنفعه الآلة..

ثم لاحظ كيف وصفت الآيات تنوع العبادة (ساجداً وقائماً) .. بل وصفت الآية أحاسيس ومشاعر ذلك الساهر .. فهو من جهة قد اعتراه الوجل من يوم الآخرة ومن جهة أخرى قد دفعه رجاء رحمة الله (يحذر الآخرة ويرجوا رحمة ربه) .. تمتزج هذه المشاعر الإيمانية طوال الليل البهيم بينما الناس حوله هاجعون..

هل ترى الله تعالى بعظمته وقدسيته سبحانه يصوِّر هذا المشهد الإيماني الليلي بلا رسالة يريد تعالى إيصالها لنا؟ أليس من الواضح أن الله يريدنا كذلك؟ يريدنا أن نكون قانتين آناء الليل ساجدين وقائمين نحذر الآخرة ونرجوا رحمة ربنا..؟ وتذكّر أن الله جعل ذلك معياراً من معايير (العلم)، ألا نريد أن نكون في معيار الله من (أهل العلم) ؟

وفي أواسط سورة السجدة ذكر الله المؤشرات الظاهرة التي تدل على إيمان الباطن، حيث استفتحها بقوله (إنما يؤمن بآياتنا.. الآية) وفي ثنايا تلك المؤشرات صورت الآيات مشهد ذلك المؤمن الصادق، وهو في فراشه، تهاجمه ذكرى الآخرة فلا يستطيع جنبه أن يسترخي للنوم.. تأمل قوله تعالى:
(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا) [السجدة: ١٦].

أخي الكريم .. يشهد الله وحده –وأنا أعلم شدة هذا الاستشهاد– أنني مامررت بهذه الآية إلا أحسست بمقاريض الحرج تنهش أطرافي .. هاقد تصرمت ثلاثة عقود من عمري وأنا لم أتذوق هذا المقام الذي تصوره هذه الآية .. مامررت بهذه الآية إلا تخيلت أولئك القوم الذين ترسم هذه الآية مشهدهم .. وكأني أراهم منزعجين في فرشهم تتجافى بهم يتذكرون لقاء الله، ثم لم يطيقوا الأمر، وهبُّوا إلى مِيضأتهم، وتوجهوا للقبلة، وسبحوا في مناجاة مولاهم .. {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا} ..

صحيحٌ أن هناك آيات كثيرة صورت السهر الإيماني، لكن هذه الآية بخصوصها لها وقعٌ خاص، مجرد تخيل أولئك القوم وهم يتقلبون في فرشهم ثم يهبّون للانطراح بين يدي الله وتضرعه وهم بين الخوف من العقوبة على خطاياهم والرجاء الذي يحدوهم لبحبوحة غفران الله، ثم مقارنة ذلك بأحوالنا وليلنا البئيس يجعل الأمر في غاية الحرج، إنهم قومٌ (تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا)..

بل وتأمل في بلاغة القرآن كيف يجعل البيات قياماً كما قال تعالى في وصف عباد الرحمن في سورة الفرقان (وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا)[الفرقان: ٦٤]
إنهم يبيتون .. لكنهم يبيتون لربهم في سجود وقيام..

ومن ألطف مواضع السهر الإيماني أن الله جعله من أهم عناصر التأهيل الدعوي في بداية الطريق، الله سبحانه وتعالى لم يجعل أعظم السهر الإيماني في آخر الدعوة النبوية بعد استيفاء التدرج، كلا، بل جعله في أولها! فقال تعالى لنبيه في آياتٍ كادت تستغرق الليل:
(يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلا) [المزمل، ١-٢]

لاحظ معي أن النبي –صلى الله عليه وسلم– في بداية الدعوة، ومع ذلك يقول له (قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه)..

وهل كان فعل ذلك مختص برسول الله؟ لا، بل كان أصحابه في أيام غربة الدعوة يصلون معه تلك الصلوات التي تستغرق الليل، يقول تعالى في آخر السورة:
(إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ)[المزمل، ٢٠].

السابقون الأولون من أصحاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم– خلّد الله قيامهم غالب الليل في كتابه العظيم، أي شرف أعظم من هذا الشرف لأصحاب رسول الله..

أما نحن فمنا أقوامٌ ينامون الليل كله ويستثقلون دقائق معدودة ليتهجدوا فيها بين يدي الله، ومنا أقوامٌ يسهرون الليل كله لكن في استراحات اللهو ويستكثرون أن يتوقفوا لدقائق ليقفوا بين يدي الله، ومنا أقوامٌ يذهب ليلهم في تصفح شبكة الانترنت ومواقع التواصل الاجتماعي ومشاهدة مقاطع اليوتيوب وتعليقاتٍ تافهة لا تقرب من الله ويمن على نفسه بركيعات في آخر الليل لله جل وعلا.. بل هناك ماهو أتعس من ذلك، وهو أن بعضهم ينقضي الليل ويدخل وقت الفجر وتقام صلاة الفريضة والإمام يقرأ فوق رأسه بينما هو لازال كما قال تعالى: (وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ) [النساء، ١٤٢].

وأتذكر مرةً أنني كنت أستمع لبعض المنتسبين للدعوة يتحدث عن النجاح والوقت وإدارة الذات الخ، ولما جاء لقضية النوم، عرض النوم كما يعرضه الإنسان الغربي تماماً، بل صار يغالي في ضرورة أخذ أكبر قدر من النوم ويتحدث بنفس

المعايير الغربية.. يا ألله .. هل بلغت غربة الدين هذا المبلغ؟ فأين ذهبت حقائق القرآن (كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون) ، (أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائما) ، (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) ، (والذين يبيتون لربهم سجداً وقياما).. صحيح أن ذلك نفلٌ ولكن لماذا صار النفل يغيب عن وصايانا؟ لماذا خضعت الشريعة للتخفيضات؟ لماذا صرنا نخجل من كتاب الله؟ لو كان النوم بالمعايير الغربية أنفع للإنسان لما ندبنا الله لضده في كتابه في مواضع كثيرة..

والله لو تدبرنا القرآن ونحن مستحضرين هذا السؤال: كيف نصوغ حياتنا في ليلنا ونهارنا؟ لفجعنا بشدة المفارقة بين فهم المؤمن لهذه الحياة الدنيا، وفهم الإنسان الغربي المسكين لها..

وبعض الشباب يقول: إنني لم أتعود على قيام الليل، وليس لي تجربة سابقة، وأشعر أنها صعبة، الخ والجواب: يا أخي استعن بالله ولنبدأ سوياً من هذه الليلة القادمة، لا تؤجل هذا المشروع أبداً، وصدقني ستجد لذةً في البداية يهبها الله من يقبل عليه ليعينه، وهذه اللذة والسرور تحدث عنها أهل العبودية يقول ابن القيم (قال الجنيد "واشوقاه إلى أوقات البداية" يعني: لذة أوقات البداية، وجمع الهمة على الطلب والسير إلى الله) [مدارج السالكين، ابن القيم].
فهنيئاً لك يا أخي الكريم لذة أوقات البداية..

وهذه الآيات كلها التي صورت قيام الليل يدخل فيها مرتبتان، قيام الفرض كصلاة العشاء وقيام الكمال كالتهجد، وبعض المفسرين يخطئ في حمل بعض هذه الآيات على أحد المحملين، والصحيح أنها تشمل المرتبتين..

ولكن ما وظيفة هذا السهر الإيماني؟ الحقيقة أن وظائفه كثيرة جداً، ولكن من أعظم وظائفه أن تلك اللحظات هي لحظات (الاستمداد) .. إذا تجافى جنب المؤمن عن المضجع وتوضأ ثم وقف بين يدي ربه ثم سجد بدأت دقائق الاستمداد .. فيستمد من خزائن رحمات الله.. من أرزاقه.. من العلم.. من التوفيق.. من الهداية.. إنها لحظة الدعم المفتوح.. ورحمات الله إذا فتحت فلا تسل عن أمدائها (مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا) [فاطر، ٢]

اللهم يارب الليل البهيم .. اجلعنا من تتجافى جنوبهم عن المضاجع ندعوك خوفاً وطمعا.. (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا)[السجدة، ١٦].

ابوعمر
ذو القعدة ١٤٣١هـ

عمالة التغريبيين

الحمدلله وبعد،،

سيدة الأعمال السعودية المعروفة "حصة العون" ترأس مجلس إدارة شركتين تجاريتين، وأربع جمعيات أهلية، وهي الأمين العام لمجلس اتحاد المستثمرات العرب، هذه المرأة هي أول من أزاح الستار –وعلى الهواء مباشرة– عن تفاصيل ما يدور في استراحات الليبراليين من علاقات دافئة بين مسؤولين أمريكيين وصحفيين سعوديين.

ففي شهر سبتمبر من العام ٢٠٠٦م وعلى الفضائية اللبنانية LBC روت الأستاذة حصة العون حادثة واقعية مرت بها وقالت:

(إي نعم السفارة الأمريكية أنا زارتني أكثر من مرة، وحاولوا معي أكثر من مرة، وطلبوا كمان يعطوني دعم مادي، ويعطوني قروض، ويعطوني تسهيلات كثيرة، ورفضتها، وزارتني القنصل أكثر من مرة في مكتبي). [حصة العون، قناة إل بي سي، سبتمبر٢٠٠٦]

أنهت الأستاذة حصة مكالمتها من هاهنا، وارتجت الصحافة السعودية عن بكرة أبيها من الجهة الأخرى، كانت روائح علاقة الليبراليين السعوديين مع المسؤولين الأمريكيين لم يتعامل معها الجميع بالجدية الكافية، ولكن بعد هذه الحادثة الواقعية وعلى الهواء مباشرة؛ اختلفت النغمة كثيراً، وكان ممن علق على الحادثة الكاتب المعروف في صحيفة عكاظ الأستاذ خالد السليمان، حيث قال:

(قنبلة حصة العون تكتسب دويها من كونها واقعة شخصية انتقلت بالمسألة بعيداً عن الجدال الذي لم يتخطّ سابقا حدود الاتهامات العامة والمبهمة..، ويجب التأكيد أن سلوك مثل هذه السفارات ليس ابتداعا جديداً، بل هو جزء من أسلوب عمل بعض أجهزتها لخدمة مصالح دولها في أغلب دول العالم، ويتخذ مثل هذا السلوك أشكالا مختلفة ابتداءً من الاحتفاء ومد الجسور الشخصية، وصولاً إلى التجنيد التام، مرورا بتقديم الهدايا التي لا تخلو من المشروبات الروحية) [خالد السليمان، صحيفة عكاظ، ٢٤ سبتمبر ٢٠٠٦م].

تعليق الأستاذ خالد السليمان تضمن عدة ملحوظات ذكية، ربما من أهمها الإشارة إلى طبيعة الحوافز التي يقدمها السياسيون الغربيون لدعم التغريبيين السعوديين، ومن أطرف تلك الحوافز التي ذكرها السليمان تزويد الكاتب الليبرالي بالزجاجات التي يحتاجها بدلاً من أن يتكلف المشوار إلى بعض الدول الخليجية المجاورة، وهذا الحافز لدى بعض الكتّاب الليبراليين يعدل أموال قارون! ولذلك فإن حلقة طاش الشهيرة عن الليبراليين لم تستطع أن تخفي مركزية الشراب المحرم في الوسط الليبرالي السعودي.

ولم تمض ستة أشهر فقط من (قنبلة حصة العون) التي لم تكد غيوم بارودها تتبدد؛ إلا ونشرت صحيفة الاقتصادية السعودية خبر دعم مالي مشبوه دفعته الحكومة البريطانية لمركز سعودي في جدة بلغ سبعمائة ألف ريال، ويتعلق –أيضاً– بفتيات سعوديات! جاء في صحيفة الاقتصادية:

(قدمت الحكومة البريطانية دعما بملغ ٧٠٠ ألف ريال **لدعم برامج مركز خبراء المستقبل للتدريب والتطوير في جدة، وذلك لتغطية نفقات ٢٥ دورة تدريبية مجانية تقام في جدة وحائل والمدينة المنورة وأبها، لتطوير مهارات السعوديات يستفيد منها نحو ألف سيدة سعودية..، وقام السيد "جيرارد راسل" القنصل البريطاني العام في جدة، بتوقيع العقد مع المالكة–المدير العام للمركز، في احتفال أقيم بهذه المناسبة في مقر القنصلية في جدة) [صحيفة الاقتصادية، ١١ مارس ٢٠٠٧م]**.

القنصل البريطاني يستضيف مالكة المركز في حفل في القنصلية البريطانية، ويدفع لها سبعمائة ألف ريال لتدريب ألف سيدة سعودية في مختلف مناطق المملكة! من يتصور؟ يا للجرأة!

والقنصل البريطاني في جدة "جيرارد رسل" –الذي دفع المبلغ واستضاف مالكة المركز– ليس مجرد دبلوماسي وظيفي بحت، بل هو رجل يحمل (أجندة فكرية) ويتحمس لبثها في المنطقة، وهو يتحدث اللغتين العربية والدارية (اللغة الدارية هي أحد اللغتين الرسميتين في أفغانستان وهي صيغة من الفارسية وتسمى أحياناً "الفارسية الأفغانية").

وجيرارد رسل هو الذي صمم ورأس (وحدة الإعلام الإسلامي) (IMU) التي أنشأتها الحكومة البريطانية في أعقاب هجمات سبتمبر، بهدف التأثير في الرأي العام العربي والإسلامي باتجاه مصالحها، وهذه الوحدة لها قسمان رئيسيان: قسم متخصص في شبه القارة الهندية، والقسم الثاني متخصص في العالم العربي.

ومن شدة عناية "جيرارد رسل" بترويج الرموز التغريبية كتب مقالة حِجاجية قبل شهرين، وكانت قبيل إعلان جائزة نوبل هذا العام، في صحيفة الجارديان البريطانية المعروفة؛ يجادل فيها بوجوب منح الشاعر الإلحادي العربي "أدونيس" جائزة نوبل للأدب، وكان عنوان المقالة (لماذا يجب أن يفوز أدونيس بجائزة نوبل؟) وفي سياق الاعتبارات التي ذكرها "جيرارد رسل" لدعم أدونيس قوله:

(أدونيس وظَّف في شعره كل التقاليد الدينية، وتحداها جميعاً أيضاً، يقول أدونيس في لقاء رائع "كل الناس يدّعون أن الله أخبرهم كلماته الأخيرة"، وهو يشك في ذلك) [G. Russell, Guardian, 6/10/2010]

ومن نماذج النشاط "الفكري" للقنصل البريطاني "جيرارد رسل" أنه نفذ زيارة لأحد أهم الصحف التغريبية في المنطقة وهي "صحيفة عكاظ"، وأخذ يبحث معهم شؤونهم الإعلامية! كما تقول صحيفة عكاظ:

(قام القنصل العام البريطاني بجدة "جيرارد راسل" يرافقه المسؤول الاعلامي والسياسي بالسفارة البريطانية بالرياض "الكساندر فيتالي" بزيارة لمجمع «عكاظ» الصحفي، والتقى الضيفان رئيس التحرير المكلف، ودار الحديث حول عدد من الموضوعات ذات العلاقة بالشأن الاعلامي) [صحيفة عكاظ، ٢٣ فبراير ٢٠٠٧م].

هل قدم "جيرارد رسل" هذه المرة –أيضاً– مبالغ مالية، هل قدم أية عروض أو تسهيلات أو مزايا؟ الله أعلم، لا أحد يستطيع أن يجزم بشئ، قد يكون قدم لمهندسي التغريب في صحيفة عكاظ خدمات مادية فعلاً، وقد يكون اكتفى بخدمات فكرية ودعم معنوي فقط، لكن المهم أنه حاضر وفعال في النشاط التغريبي في المنطقة.

وفي شهر يوليو من هذا العام نشرت صحيفة الوطن خبر لقاء الأمير خالد الفيصل بطالبات كلية (عفت)، ومن أطرف ما في هذا الحفل أن إحدى الطالبات روت ببراءة خبر علاقة البرنامج بجهات أجنبية وصلت لدرجة اللقاء بالرئيس الأمريكي نفسه وتلقي توجيهاته وتوصياته في كيفية التغيير في المملكة، حيث تقول إحدى الطالبات كما تنقل الصحيفة:

(ذكرت الخريجة من كلية التمريض بدار الحكمة، وهي إحدى ٨ طالبات اللاتي تم اختيارهن للمشاركة في قمة ريادة الأعمال التي أقيمت في الولايات المتحدة الأمريكية حيث قالت: شاركنا في هذه القمة التي استغرقت يومين، وحظينا بمقابلة الرئيس الأمريكي "أوباما" وقالت "افتتحت هذه القمة من قبل الرئيس الأمريكي، الذي ناقش معنا الكيفية التي نستطيع من خلالها تبادل العلاقات الاجتماعية بين الولايات المتحدة والمملكة، وتنمية الريادة الاجتماعية، وكيف تم الارتقاء بهذه الريادة لكي يتم تطبيقها في المملكة) [صحيفة الوطن، ٢٠١٠/٧/٥]

كنت أقرأ هذا الخبر وأقضم أسنان الحسرة كيف صار الرئيس الأمريكي يلقن فتياتنا أفضل أساليب التغريب!

وفي أواسط الشهر الماضي نوفمبر اجتمعت أربع عشرة ناشطة بريطانية من أعضاء البرلمان (مجلس العموم) لتشكيل حملة لدعم التغريبيات السعوديات، ووجهن خطاباً خاصاً في ١٨ نوفمبر للكاتبة التغريبية المتطرفة "وجيهة الحويدر" لتنظيم العلاقة، وفي البداية حافظت الحويدر على سرية الخطاب الذي تلقته منهن، لكنها بعد أسبوعين قررت كشف العلاقة، فنشرت عبر الموقع السعودي المتخصص في أخبار الشيعة (راصد) قصة العلاقة مع هذه الجهة الأجنبية، ونشرت صورة الخطاب الذي تلقته من البرلمانيات البريطانيات، وهذه الجرأة في كشف التفاصيل تعكس حجم (البجاحة السياسية) ومستوى التحدي الذي وصل إليها التغريبيون السعوديون، وأكثر ما أدهشني في الخطاب أن البرلمانيات البريطانيات كتبن الخطاب على الأوراق الرسمية للبرلمان البريطاني (مجلس العموم)!، وهذا الإجراء يوحي بمستوى الجدية والاندفاع في الدعم والمساندة.

وقد استفتحت البرلمانيات البريطانيات الخطاب بذكر بعض المسائل التي تعاني منها المرأة السعودية، وذكرن منها ثلاث مسائل: حرية السفر للمرأة (أي بلا محرم)، وحرية الزواج بلا ولي، وحرية الطلاق بلا تطليق من الزوج، ثم جاء في خاتمة قولهن:

(ونحن كبرلمانيات نساء، من عدة أحزاب سياسية في بريطانيا، سنكون مسرورين بمعرفة ما إذا كان هناك أي شئ نستطيع أن نفعله لمساعدتك..، وبإمكانك أن تراسلي الدكتورة سارا ويلسون على العنوان التالي..) [Letter from Sarah Wollaston, 18/11/2010]

ثم اكتظ ذيل الخطاب بتوقيعات أربع عشرة برلمانية بريطانية!

والأستاذة وجيهة الحويدر اعتادت أن تخاطب الغربيين بلغة في غاية الذلة، أشد من طأطأة العبد لسيده، فهي تخاطب الغربيين في صحافتهم بلغة (نريد أن نكون نسخة منكم)، ففي مقالة نشرتها الأستاذة وجيهة في الصحيفة الأمريكية الأشهر "الواشنطن بوست" تقول فيها للقارئ الأمريكي:

(أرسلت ولديّ الاثنين للدراسة في ولاية فيرجينيا بأمريكا لأنني لا أريدهم أن يكونوا كغيرهم من الشباب السعودي) [The washington post, 16/8/2009]

لكن بغض النظر عن ذلك، ما سبب كشف الأستاذة وجيهة الحويدر لذلك الخطاب الخطير من البرلمانيات البريطانيات؟ يمكن تفسير ذلك من عدة مداخل، لكن في تقديري أن هذا التصرف أرادت به الأستاذة وجيهة إيصال "رسالة ردع" للسياسي وللممانعة الإسلامية على حد سواء، بأن فريق وجيهة الحويدر من التغريبيات ليس مجموعة أفراد ضعفاء لا ناصر لهم، بل وراءهم قوى أجنبية كبرى تراسلهم بأوراق البرلمان ذاته، وتضع تحت إشارتهم خدمات "مفتوحة" !

هذا الخطاب يعني أن التغريبيات لسن مجرد مثقفات يعبرن عن رأيهن، بقدر ما إنهن ثكنة داخلية لبرج مراقبة خارجي، ويبدو لي أنه إذا وصلت العلاقة بين (الغربيين) و (التغريبيين) إلى هذا المستوى فهذا يعني أن أجراس الإنذار ستنفجر قبل أن تصرخ.

وفي مفتتح سبتمبر من هذا العام ٢٠١٠م بثت فضائية (العربية) برنامجاً وثائقياً بعنوان (الإسلام والغرب)، وتضمن البرنامج ربطاً بين دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب التي تتبناها السعودية وأحداث العنف العالمية، وهذا الربط هو ما جاهدت السعودية على نفيه وبيان بطلانه خلال السنوات العشر الماضية، ولذلك فإن هذا التصرف من محطة العربية استفز المسؤولين من عدة مستويات، وأثناء التهاب الحدث فوجئ القراء بتوقف الأستاذ عبدالرحمن الراشد عن الكتابة في عموده المعروف في صحيفة الشرق الأوسط في الخامس من سبتمبر، تلا ذلك إعلان الراشد أنه قدم استقالته من إدارة قناة العربية، وكان ذلك طبعاً نتيجة انزعاج حاد من عدد من المسؤولين بسبب تصرف الراشد في محطته، ثم وبشكل مفاجئ –أيضاً– أعلن الراشد في منتصف سبتمبر عودته للكتابة في الشرق الأوسط ولإدارة محطة العربية!

كل هذه الأحداث العاصفة المتلاحقة لواحد من أهم القيادات التغريبية لم تكن هي المفاجأة، وإنما المفاجأة حين نشرت الصحيفة الصهيونية (إيديعوت أحرونوت) حزنها الشديد على ما تعرض له الراشد، وأسهبت في ذكر مناقبه، ثم أشارت إشارة في غاية الخطورة إلى أن جهة أمريكية معينة ضغطت على مالك المحطة الوليد الابراهيم لإعادة "عبدالرحمن الراشد" لإدارة القناة!

تقول الصحيفة الصهيونية الأشهر (إيديعوت أحرونوت) :

(العائلة المالكة في الرياض قررت أن تغلق في وجه الصحافي الجريء عبدالرحمن الراشد كل الابواب: أصدرت حظراً على نشر مقالاته، قررت تنحيته عن كرسي مدير عام "العربية"، الراشد فهم فوراً الإشارة

وأعلن بأن لا حاجة الى إرسال خطاب الإقالة، الإستقالة الصاخبة للراشد صمدت أربعة أيام عاصفة، والأمريكيون ضغطوا من خلف الكواليس، وتلقى الراشد بلاغاً بالتوقف عن حزم أمتعته) [إيديعوت أحرونوت، ٢٠١٠/٩/٢٠م]

أن تصل أيدي الأخطبوط الأمريكي إلى داخل استديوهات محطة العربية، وأن تصل أصابع الأمريكان إلى أدراج مسؤولي العربية أنفسهم، ويسعون لدعم موقع (عبدالرحمن الراشد) والحفاظ عليه؛ فهذا يعني أن هذه الجهة الأمريكية تعرف جيداً أن إدارة الراشد تدفع باتجاه تعزيز المصالح والقيم الأمريكية في المنطقة، وهذا الاستقواء التغريبي بالأجنبي لم يتجاوز الأرقام القياسية فقط، بل دهس الأرقام المتخيلة أصلاً!

ومن المثير للدهشة أن الجهات الأجنبية المشبوهة تتعامل مع التغريبيين السعوديين تعاملاً مزدوجاً، فهي تدعمهم في الداخل السعودي من جهة، ومن جهة أخرى تستثمر مقالاتهم وتترجمها لتوظيفها خارجياً في تشويه "المجتمع السعودي" وتأليب الرأي العام عليه، وتخويف العالم من الواقع الشرعي في السعودية.

ونماذج توظيف الجهات الأجنبية المشبوهة لمقالات (الليبراليين السعوديين) في استعداء العالم ضد المجتمع السعودي كثيرة جداً، سواءً في الصحافة مثل الواشنطن بوست، والنيويورك تايمز، والجارديان، والاندبندنت، ونحوها، أو في الإعلام المرئي كالفوكس نيوز، والسي إن إن، ونحوها، فلا تمر فترة قصيرة إلا وتجد في وسائل الاتصال هذه اقتباسات من مقالات الليبراليين السعوديين تستخدمها هذه الوسائل الإعلامية الامبريالية في تحريض القارئ الغربي ضد "المجتمع السعودي" بكل مكوناته الشرعية، وسأكتفي هنا بمثال واحد لتوضيح الظاهرة، حيث نشرت الصحيفة الصهيونية الأشهر (إيديعوت أحرونوت) هذا التوظيف لأحد المقالات في صحيفة الرياض التي يرأسها الأستاذ تركي السديري:

(الكاتب فارس بن حزام يقول "نحن ليس لدينا الشجاعة لنواجه الحقيقة، وبدلاً من أن نعتذر نذهب نلوم أطرافاً خارجية"، ويقول فارس بن حزام أيضاً: "الدعاة في المساجد السعودية، والمواقع الانترنتية الراديكالية، هم المسؤولون عن موجات من الشباب السعودي نفذت الهجمات الجهادية حول العالم"، في هذه المقالة التي نشرت في صحيفة الرياض السعودية اتهم الكاتب فارس بن حزام المجتمع السعودي بكونه تجاهل الأسباب الحقيقية خلف الهجمات الجهادية وتجنيد الشباب)
[Yedioth Ahronoth, 22/10/2006]

وهكذا تستند الصحافة الصهيونية على مقالات (الليبراليين السعوديين) في تعبئة الرأي العالمي ضد المجتمع السعودي، لتخفيف العبء الذي تواجهه تجاه عدوانها على المسلمين، ولذلك فإنه قد يبدو للمراقب أن (العمالة الليبرالية) هي عمالة مزدوجة، فالأجنبي يستغل الليبراليين السعوديين لترويج أجندته الفكرية في الداخل السعودي، ويستغل مقالاتهم لتشويه المجتمع السعودي في الخارج.

وفي هذه الأيام تابع الجميع الفعاليات الأليمة لمنتدى "خديجة بنت خويلد" الذي ترعاه الغرفة التجارية الصناعية بجدة، وقد رفع المنتدى شعار "تذليل العقبات أمام المرأة السعودية" وهو شعار رائع ونحن بحاجة إليه، فالمرأة السعودية تعاني من

مشكلات كثيرة منها: قلة وجود بيئات العمل المتناسبة مع قناعاتها الدينية كالنقاب والمباني المستقلة عن مزاحمة الرجال، ومثل مشكلات عضل الفتيات عن الزواج، والعنوسة بسبب كلفة الزواج، وحرمان المرأة السعودية في مرحلة (الحمل والحضانة) من تسهيلات خدمية كثيرة تليق بشرف ورفعة الدور التربوي الذي تقوم به، وطول ساعات العمل بالنسبة للمرأة بما لا يتناسب مع احتياجاتها الأخرى، فيجب المبادرة بتخفيض ساعات العمل للنساء وزيادة أجورهن لتغطية أعباء الحياة المتزايدة، وغير ذلك كثير من مشكلات المرأة في السعودية والتي تورطنا بكثير منها بسبب الاستهلاك الأعمى لنظم الحياة الغربية المادية البائسة.

ومع كل هذه المشكلات فقد تألم المجتمع كثيراً حين انكشف له أن المنتدى لا صلة له بمعاناة المرأة السعودية من قريب ولا من بعيد، بل المنتدى يدفع باتجاه تعقيد أزمة المرأة في السعودية، فالمنتدى كله عن فرض المزيد من الاختلاط مما يعني حرمان المنقبات من بيئات عمل مناسبة ومريحة، وكسر الحشمة والفضيلة لدى سافرات الوجوه، فضلاً عما تخلل المنتدى من مشاهد مخلة بالفضائل القرآنية كلبس التنورات القصيرة وكشف السيقان على الملأ، وضرب المعازف في بيئات مختلطة، وتزاحم الرجال والنساء، وترويج الفتاوى الشاذة، واستقدام غير المختصين الشرعيين وتصديرهم للناس لترقيق دينهم.

واخسارة المال، والجهد، والوقت؛ الذي يذهب من خزائن المال العام سدى، ماذا استفادت الفتاة السعودية من ذلك كله سوى تحويل مشكلتها من مشكلة بسيطة تحتاج لحلول إدارية منظمة إلى سفور ومعازف واختلاط؟! لقد أثبت الزمن أنه ليس لدى التغريبيين السعوديين أي "حلول مدنية" لمشكلات الناس، بل ليس لديهم إلا مسلسل الشهوات (سفور، معازف، اختلاط، تشويه الهيئات، علاقات مشبوهة بجهات أجنبية، الخ).

ولذلك فإن الشيخ عبدالله المطلق –عضو هيئة كبار العلماء– برغم حرصه المعروف على تجنب الإشارة لجهات بعينها إلا أنه لم يطق ماحدث من انتهاكات جسيمة للضوابط الشرعية في منتدى خديجة فصرح –حفظه الله– قائلاً (**الموضوع الذي حدث في جدة والذي تحدث عنه هؤلاء في شؤون المرأة هم حقيقةً لا يمثلون المرأة السعودية، فهي بمعزل عن هذه الافتراءات التي يأتي إليها هؤلاء ويدعون فيها إلى الاختلاط، ويفسرون الاختلاط الممنوع بأنه التلاحم الجسدي، المرأة السعودية والشعب السعودي لا يرضى بأن يمثله هؤلاء**) ونشر تصريحه هذا في وسائل الإعلام.

كما أصدر الشيخ الوالد عبدالمحسن العباد –حفظه الله– بياناً رصيناً مطولاً في إيضاح المخالفات الشرعية في هذا المنتدى بعنوان (**لا يليق اتخاذ اسم "خديجة بنت خويلد" عنواناً لانفلات النساء**).
وكذلك الشيخ الوالد عبدالرحمن البراك –حفظه الله– ألقى كلمة شرعية جزلة حول هذا المنتدى المشبوه وقال (**هذا المنتدى مؤسس على مخالفة الشريعة، وقد سموه زوراً منتدى خديجة، ولو سموه منتدى هدى شعراوي لكان أليق به، فإنها هي من مفاتيح فساد المرأة المصرية وقد اشتهرت بذلك**).
كما تحدث عن المنتدى أيضاً الشيخ صالح اللحيدان –عضو هيئة كبار العلماء– قائلاً (**ما حدث في منتدى خديجة بنت خويلد في جدة، هو في حد ذاته إساءة إلى خديجة**).

ثم بعد هذه المواقف الحسبوية للعلماء الكبار الشيخ البراك والعباد والمطلق واللحيدان؛ أصدر مجموعة أخرى من العلماء والدعاة بياناً جماعياً تحليلياً كشف كل النقاط في هذا المنتدى الخطير، وقد وقَّعه سبعون شخصية دعوية سعودية.

ويلاحظ المراقب لهذا المنتدى (منتدى خديجة) أن القائمين عليه لم يستطيعوا أن يخفوا الجهات الأجنبية المشبوهة التي قدمت مساندة خلفية لهذا المنتدى المريب، فمن ذلك –مثلاً– الدعم الذي قدمته زوجة السفير الأمريكي "جانيت سميث" حيث حضرت هذه الفعاليات التغريبية وألقت عبارات الإطراء الممزوجة بلغة "المشاركة في القضية"، فكانت تتحدث من منطلق الجبهة الواحدة وليس من منطلق المراقب المحايد، حيث نشرت صحيفة المدينة خبر حضور زوجة السفير الأمريكي لمنتدى خديجة حيث تقول الصحيفة:

(قالت زوجة السفير الأمريكي لدى المملكة الدكتورة "جانيت سميث" أستاذة العلاقات الدولية: إن المنتدى تميّز بالتنظيم الجيد والحضور المميز، متمنية أن يستمر هذا التفاعل في جميع المنتديات، وأن يحقق المنتدى الأهداف التي عقد من أجله) [صحيفة المدينة، ٢٠١٠/١٢/١].

وزوجة السفير الأمريكي "جانيت سميث" ليست شخصية هامشية، أو ترتبط بالسفير الأمريكي بمجرد رابطة زوجية/اجتماعية، بل هي جزء من المؤسسة السياسية الأمريكية ذاتها، فقد عملت كمساعدة للشؤون القانونية في "الكونغرس" نفسه، ومنذ قدمت "جانيت سميث" للمملكة وهي شغوفة باختراق الشباب السعودي من الداخل، وقد اعترفت هي ذاتها بشئ من ذلك في لقاء أجرته مجلة "سيدتي" مع "جانيت سميث" نفسها، حيث جاء في اللقاء:

(–مجلة سيدتي: ما النشاطات التي قمتِ بها خلال وجودك في الرياض؟

–جانيت سميث: انغمست خلال الشهور القليلة الأولى من انتقالي إلى هنا في التعرف على العاملين في السفارة، والتعرف إلى رجال الأعمال والمؤسسات الأميركية في الرياض، والجالية الدبلوماسية الكبيرة، والأهم من ذلك لقائي بمجموعات كثيرة من الرجال والنساء السعوديين) [مجلة سيدتي، ٢٠١٠/٣/١٩]

و "جانيت سميث" لم تقف على منصة الدعم الخارجي فقط، بل تجاوزت ذلك وأخذت تمارس دور الإفتاء والترجيح في المسائل الفقهية ماشاء الله تبارك الله! حيث تقول جانيت سميث:

(أشعر باستغراب شديد عندما استمع إلى مطالبة المرأة السعودية بحقوق هي في الأصل كانت متاحة لها في الدين الإسلامي، وأرجعت ذلك لما يعرف بالعادات والتقاليد التي استجدت وليس لأصول الدين) [صحيفة الوطن، ٢٠١٠/١١/١١]

وربما لو واصلت صحيفة الوطن جهودها المشكورة وانتدبت بعض محرريها لجمع فتاوى "جانيت سميث" لتنتفع بها الفتاة السعودية لكان ذلك عملاً جليلاً يطبع –بإذن الله– على نفقة أحد المحسنين باسم (مجموع فتاوى زوجة السفير الأمريكي).

ومن علاقات التغريبيين بمنتدى خديجة مع السفارات الأجنبية صفقة عقدوها مع السفارة الفرنسية لتدريب بعض الليبراليات تمهيداً لخوض معركة قانونية في "التغيير التشريعي" في السعودية حيث نشرت صحيفة عكاظ:

(غادر وفد نسائي سعودي إلى العاصمة الفرنسية باريس لزيارة عدد من المؤسسات والوزارات الحكومية في فرنسا، بدعوة من "السفارة الفرنسية" في الرياض، لتنفيذ برنامج يهدف إلى تعزيز الثقافة الحقوقية والقانونية للمرأة السعودية) [صحيفة عكاظ، ٢٠١٠/١٢/٦]

أضحكتني كثيراً هذه اللغة البريئة في عرض الخبر! حسناً إذن.. كان "البرنامج" بدعوة من "السفارة" الفرنسية نفسها، فهي التي تكبدت تخطيط البرنامج، وكلفته المالية، وتحديد مضامينه، والرسالة التي يراد إيصالها منه، وهذا يعني –أيضاً– أن هناك جلسات تنسيق مسبقة بين (التغريبيين) في غرفة جدة، وبين (الغربيين) في السفارة الفرنسية، جلسات قد يتخللها أمور كثيرة تليق بهذه العلاقات.

وفي أثناء أيام منتدى خديجة رمت الأميرة عادلة "تصريحات تغريبية مفتوحة" أفزعت الناس، وكان فيها شئ من التحدي لمشاعر المجتمع، كقول الأميرة عادلة مثلاً (النقاب متعلق بالتقاليد وليس بالدين)!، وقد ردّ على الأميرة عادلة طليعة من العلماء والدعاة المحتسبين، منهم سماحة الشيخ الوالد عبدالمحسن العباد، والعالم الشاب عبدالعزيز الطريفي، والشيخ عصام العويد.

فأما الشيخ الوالد عبدالمحسن العباد –حفظه الله– فقد أصدر بياناً قال فيه:

(يا ابنة خادم الحرمين! قد سماك والدك عادلة فكوني عادلة، وليس من العدل أن تكوني غنيمة كبيرة باردة للتغريبيين يصولون باسمك ويجولون..، وما سمعنا أن أحداً من إخوتك فرح به التغريبيون كما فرحوا بك) [الشيخ العباد، رسالة بعنوان "ليس هذا من العدل ياعادلة"]

وأما فتى الكهول الشيخ عبدالعزيز الطريفي فقد قال:

(وأنا أُدرك أن عادلة لا تُدرك من أمور الدين والعلم ما يؤهلها أن تخوض في مثل هذه القضايا الكبيرة، ولكنها ممتلئة حماساً وانسياقاً لتهيئة الموضع المناسب للمرأة كما تزعم، وهذا ما أوصلها إلى هذا الاندفاع الذي يجب على أهل الأمر والعقل الأخذ على يدها برفق، حتى لا تسوق نفسها وغيرها إلى هوة في الدين والأخلاق لا يُقام منها) [الطريفي، رسالة بعنوان "إلى الأميرة عادلة"]

ومن أجمل ما في مناقشة الشيخ الطريفي للأميرة عادلة إشارته الطريفة للجهات الأجنبية الخفية التي تدعم التغريبيين حيث قال **(والصراع الذي يحدث حول المرأة في بلادنا، صراعٌ لا يُرى منه إلا سطح الطاولة، ولا تُرى أرجلها الممسكة بها)[الطريفي، رسالة "إلى الأميرة عادلة"]**

وأما الشيخ عصام العويد –حفظه الله– فكتب مقالة تتقاطر غيرةً وشرفاً ومما جاء فيها قوله:

(فهل جئتِ أيتها الأميرة عادلة لتذبحي أحلامنا المشرقة في زهرات حياتنا بسكين "خديجة "؟ لنبكي بعد ذلك كأشباه الرجال آمالنا في بناتنا التي وئدت على عتبة باب بنت الملك!) [الشيخ العويد، مقالة بعنوان "من يحفظ بناتنا من الأميرة عادلة؟"]

وأنا شخصياً لم يتضح لي جيداً: هل الأميرة عادلة تتبنى هذا التوجه التغريبي عن قناعة وخلفية فكرية فعلاً، أم تم الزج بها وتوظيفها في المشروع التغريبي استغلالاً لنسبها السياسي لكي تصل توصيات التغريبيين بأسرع الطرق لمصنع القرار؟

ويلاحظ المراقب لهذه الغارات التغريبية في السعودية أنها تميل إلى تركيز عملياتها في مدينة جدة حيث توفر لها إمارة المنطقة تغطية جوية فعالة لا تجدها في بقية إمارات المناطق في السعودية، فالأمير خالد الفيصل —هداه الله– يوفر لهؤلاء التغريبيين، وخصوصاً التغريبيين في الغرفة التجارية الصناعية بجدة؛ كل الخدمات التي يحتاجونها ويسعى لتذليل الصعاب أمامهم، ويذب عنهم من يريد إيقاف أنشطتهم المريبة، ولذلك فإنني أتذكر حين زرت الموقع الإلكتروني للغرفة التجارية بجدة وجدت نافذة بعنوان (مركز خديجة بنت خويلد) فلما دخلت الصفحة وجدت نافذة أخرى بعنوان (إنجازات مركز خديجة بنت خويلد) فشدني هذا العنوان، فقلت في نفسي لأنظر ما هي منجزات هذا المركز ياترى؟

وحين فتحت صفحة هذه المنجزات، وقرأت أول منجز يفاخرون به؛ كدت أبتلع الضحك من تدافعه، حيث يقول أصحاب منتدى خديجة في موقعهم عن أول منجزاتهم:

(خاطب المركز أمير منطقة مكة المكرمة صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل ووزير العمل، مستفسراً حول إعادة إضافة مادة (١١٤) في اللائحة التنفيذية لوزارة العمل التي تنص على أنه "لا يجوز في حال من الأحوال اختلاط النساء بالرجال في أماكن العمل"، علماً أنه قد تم إلغاء ذلك النص من النظام الجديد للعمل والعمال (مادة ١٦٠)، وقد استلم المركز شاكراً خطاباً تعميمياً من صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل أنه تم حذف المادتين من نظام العمل والعمال، وكذلك من اللائحة التنفيذية، والاستعاضة عن ذلك بمادة عامة للجميع "نساء ورجال") [موقع الغرفة التجارية الصناعية بجدة، إنجازات مركز خديجة].

هذا هو أول منجز يفاخر به مركز خديجة بنت خويلد، وهو أنهم تلقوا دعم الأمير خالد الفيصل وتأكيده بعدم عودة مادة (منع الاختلاط) التي حذفها الوزير السابق غازي القصيبي –تجاوز الله عنا وعنه– من نظام العمل والعمال!

ومن أكثر الأمور إدهاشاً فيما يتعلق بالملف التغريبي عند الأمير خالد الفيصل —وفقه الله للحق– هو أن الأمير خالد حين نفذ سلسلة الأعمال التغريبية: إيقاف محاضرات العلماء، إقامة مجالس الغناء، استضافة غلاة العلمانيين بمركز الفكر العربي، إيقاف حلقات التحفيظ، الخ حين تتابعت هذه الأعمال أعلنت مباشرة "جهة أجنبية مُريبة" منح الأمير خالد الفيصل جائزة، وقالوا صراحة أن سببها هو أنه "قام بدور أكثر من المطلوب"! حيث يقول جراهام كوك مؤسس ورئيس الجائزة:

(إن هدف الجائزة هو تشجيع كل من قام بأكثر من المطلوب) [صحيفة الوطن، ٢٠١٠/١١/٨]

فقول هذه الجهة الأجنبية "دور أكثر من المطلوب" هذا يعني أن هناك أصلاً شئ مطلوب، وأن هناك تقييم لمن يقوم بهذا الشئ المطلوب، ثم هناك جائزة حسب هذا التقييم!

ثم تطورت العلاقة بالأجنبي في "مؤسسة الفكر العربي" التابعة للأمير خالد الفيصل إلى صفقات مع مؤسسات أمريكية تقدم أجندتها الثقافية، كما تقول صحيفة الوطن مثلاً:

(يوقع رئيس مؤسسة الفكر العربي الأمير "خالد الفيصل"، ورئيس الجامعة الأميركية في بيروت الدكتور "بيتر دورمان" مذكرة تفاهم تتعلق بالمرحلة الثانية من مشروع "تمام" التطوير التربوي المستند إلى المدرسة في العالم العربي)[صحيفة الوطن، ٢٠١٠/١٢/٨]

ويعرف المؤرخون أن "الجامعة الأمريكية في بيروت" هي أقدم مطبخ تغريبي واستعماري في المنطقة، فقد أسست عام ١٨٦٦م وكان اسمها حينذاك (الكلية السورية-البروتستانتية)، وقد أسسها -وهو أول رئيس لها أيضاً- المبشِّر التنصيري (دانيال بليس) المتوفى سنة ١٩١٦م، وقد كتب عن الجامعة الكثير من الدراسات والأوراق، وأهم من ذلك كتب كثير من الدارسين فيها تجربتهم التي كشفت الكثير من الأبعاد.

ومن أهم من كتب تجربته في الجامعة الأمريكية في بيروت المفكر اليساري العروبي المشهور (د.هشام شرابي) ت٢٠٠٥م، والذي بدأ ماركسياً ثم استحوذ على تحليلاته الفكرية مفهوم (النظام الأبوي أو البطركية) وقد بالغ كثيراً في تقدير نجاعته كجهاز تفسيري، والمهم أن د.شرابي قد سجل تجربته في كتابه (الجمر والرماد)، وشرح كيف تم شحنهم بتهويل الأجنبي وتقزيم التراث، ومن الفقرات التي قالها د.شرابي في كتابه:

(أصبحنا في الجامعة الأمريكية في بيروت مشلولي الفكر تجاه ما نقرأ، وخصوصاً إذا كان مصدره أجنبياً..، ومن الغريب أني بعد صف الفرشمن انقطعت كلياً عن قراءة الكتب العربية..، لا أشك أن نوعية الفكر الذي تعرضت إليه في الجامعة الأميركية عزز اغترابي عن نفسي)[الجمر والرماد، د.شرابي، ص٢٨، ٣٦، ٤٠، دار الطليعة]

فحين أتأمل ما ينقله المؤرخون عن ضلوع الجامعة الأمريكية في بيروت في أخطر الأنشطة التغريبية في المنطقة، ثم أرى الأمير خالد الفيصل يوقع معها صفقة فكرية؛ تأخذني شهقات الاستغراب بعيداً بعيداً.. وآخذ في التساؤل: لم؟ ما الدافع ياترى؟ هل الأمير خالد يجهل أنشطتها الخطيرة؟

ومما يرفع حواجب الانتباه إلى حد الذهول أن الصحف الأمريكية الكبرى أصبحت ترمي بتثمينات عالية جداً للدور التغريبي الذي يقوم به الأمير خالد الفيصل -هداه الله-، بل وصل الأمر إلى أن مجلة "الفورن بوليسي" وهي المجلة الأشهر في مجال السياسة الخارجية الأمريكية، والتي أسسها هنتجتون (صاحب صدام الحضارات) قبل أربعين سنة عام ١٩٧٠م، هذه المجلة التي تعكس رؤية كثير من صناع السياسات في أمريكا نشرت مقالاً تدعوا فيه إلى أن يكون الأمير خالد الفيصل هو الملك القادم بدلاً من ولي العهد والنائب الثاني! حيث تقول المجلة:

(البيت السعودي في اضطراب حول من يخلف الملك...، الأمير خالد الفيصل سيظهر على الأرجح كملك المستقبل، فالأمير خالد الفيصل شاعر ورسام متحمس، وصديق لولي عهد بريطانيا الأمير تشارلز، والأكثر أهمية بالنسبة للمستقبل السياسي للأمير خالد، هو أن قد ظهر كرمز محترم بين مختلف أجنحة العائلة المالكة، كما أنه قادر على قيادة المملكة بيد ثابتة إلى الأمام) [Foreign Policy, 21/10/2010]

هذا التدخل الإعلامي الأمريكي في شؤوننا الداخلية ظاهرة مقلقة وتهدد استقرارنا السياسي، والسعوديون –بإذن الله– مهما كان بينهم من الخلاف فليسوا بحاجة إلى هذه التوصيات الأمريكية، وسيستطيع السعوديون حل مشكلاتهم والتراضي بينهم بما يحفظ لنا الأمن والاستقلال بعيداً عن دس الأمريكان أنوفهم فيما لايعنيهم.
ثم إن هذه التوصيات الأمريكية المشبوهة تدعم الرأي الذي يرى أن الأمير خالد الفيصل يسعى لكسب الكثير من الدعم الأمريكي بواسطة قراراته التغريبية.

ماسبق كان نماذج لعمالة الليبراليين السعوديين، وصيغ علاقة هؤلاء التغريبيين بالجهات الغربية الداعمة، ومستوى استقوائهم بالأجنبي؛ لكن هاهنا زاوية أخرى تحتاج لإلقاء الضوء، وهي كيف يفكر الأمريكان والغربيون تجاه علاقتهم بهؤلاء التغريبيين العملاء؟

الحقيقة أن هناك عدة دراسات وبحوث غربية يستطيع المتابع أن يستكشف من خلالها نمط التفكير الأمريكي تجاه هذه العلاقة، لكن في تقديري أن من أهم هذه الدراسات ورقة المفكر الأمريكي اللامع (جون ألترمان) المتخصص في قضايا الشرق الأوسط في مركز الدراسات الاستراتيجية (CSIS)، وله عناية خاصة بدراسة وتحليل (الإعلام العربي) وألف فيه كتابه المعروف (إعلام جديد، سياسات جديدة: من الفضائيات إلى الانترنت في العالم العربي) وحلل فيه عدداً من الصحف والفضائيات العربية وطبيعة التحديات الجديدة التي فرضتها. والمراد أن "ألترمان" هذا في يونيو ٢٠٠٤م كتب ورقة بحثية مصغرة (٩ صفحات) في دورية (بوليسي ريفيو) وهي أحد أهم دوريات اتجاه المحافظين، بعنوان (الأمل الخادع لليبراليين العرب) ثم أعاد عرض نفس الفكرة مع شئ من التلخيص في صحيفة (الفايننشال تايمز) في أغسطس ٢٠٠٤م بعنوان (الليبراليون العرب يحتاجون الاحتضان الحذر)، وبعد عشرة أيام نشرت ترجمة المقالة إلى العربية في صحيفة النهار بإذنٍ من المؤلف.

وأي قارئ لهذه الورقة البحثية، ومختصرها؛ يكتشف أن الأمريكان لديهم حيرة شديدة في تعيين المستوى الذي يجب أن يصل إليه دعمهم لعملائهم من التغريبيين، فهم من جهة يخشون أن يتخلوا عنهم فيسقط المشروع التغريبي، ومن جهة أخرى يخشون أن يندفعوا في دعمهم فتسقط سمعة التغريبيين في مجتمعاتهم إذا اكتشفت عمالتهم! يقول ألترمان:

(يحظى الليبراليون العرب حالياً باهتمام غير مسبوق من العديد من صانعي السياسات الاميركيين، ويدعو ديبلوماسيون ومسؤولون في واشنطن ولندن وباريس وعواصم أخرى هؤلاء الليبراليين العرب إلى تناول الطعام، وأحياناً إلى شرب الخمر سوياً، وغالباً ما يحصلون على مبالغ طائلة لتمويل منظماتهم غير الربحية..، وهذا الاهتمام الغربي المتزايد سوف يقولب هؤلاء الليبراليين العرب باتبارهم عملاء لجهود

غربية مزعومة لإضعاف العالم العربي وإخضاعه..، يجب ألا نتخلى عن الليبراليين العرب فالكثير منهم مقاتلون شجعان لأجل الأفكار الغربية، ومن شأن التخلي عنهم أن يوجّه اشارات خاطئة، لكن يجب ألا تجعل الولايات المتحدة كل آمالها معتمدة على نجاحهم النهائي) [FT, 3/8/2004]

والحقيقة أن من أخطر الرسائل التي تبادلها التغريبيون حول العلاقة بالأجنبي رسالة نشرها الأستاذ جمال خاشقجي قبل عدة سنوات، حيث شعر خاشقجي أن أصحابه التغريبيين مندفعون في الاستقواء بأمريكا لفرض الأجندة الليبرالية على السعودية، ولما ذهب خاشقجي لأمريكا والتقى بعدة مسؤولين وناقشهم عن مدى جديتهم في التدخل للتغيير؛ اكتشف أن الأمريكان لديهم موازنات ويرون من الخطورة التدخل المباشر، فكتب خاشقجي هذه الرسالة الصريحة لزملائه التغريبيين، ونشرها علناً في صحيفة الوطن، وسأنقلها بطولها لأهميتها في شرح الخلاف في الداخل التغريبي حول الاستقواء بالأجنبي، ومدى الاندفاع في العمالة عند أكثر التغريبيين، يقول خاشقجي:

(السادة أعضاء حزب أمريكا في العالم العربي، أعرف أن ما منكم من أحد سيقر بالانتماء لهذا الحزب المنتشر من الخليج إلى المحيط، ولكنكم ستهتمون بقراءة خطابي هذا، فأنتم بيننا، نتبادل معكم الرأي في مجالسنا ومقاهينا المشغولة هذه الأيام بتلمس مخرج من أزمات تراكمت، ليس لي أن أشكك في وطنيتكم، بل أميل إلى الإيمان بصدق ولائكم من خلال بحثكم عن أمل ولو كان بالارتماء في حضن الشيطان الأكبر، ولكن لم تندفعوا لذلك إلا بعد أن غلقت دونكم الأبواب، وأنتم ترون عالمكم العربي وأمتكم يترديان سياسيا وحضاريا، وفوق ذلك خوف من فتاوى المتنطعين وسطوتهم، فتعلقتم وقد كتمتم عقيدتكم بحبل أمريكي، ولم يعد يهمكم إن قال قائلهم إن هذا حبل من الشيطان. أيها السادة، لقد جئتكم من أمريكا بخبر يقين، أن لا تتحمسوا كثيرا للوعد الأمريكي، وأن تحافظوا على كل أسباب الوطنية والانتماء، فلا تفقدوا الأمل في إصلاح حقيقي يبعث من داخلكم، فالأمريكيون غير مستعدين لتدخل حقيقي في المنطقة، وفي حالة من الارتباك والحيرة، فلا توجد لديهم خطط مفصلة لنشر ما بشروا به من ديمقراطية و ثقافة رخاء في عالمنا، إنهم متخوفون أن يؤدي تدخل سافر منهم إلى نتيجة عكسية لما يعلنون، ذلك أنهم لم يحسموا أمرهم فيما يفعلون مثلا مع القوى الإسلامية التي يعتقدون أنها ستكون المستفيد الأول من أي انفتاح ديمقراطي وممارسة انتخابية..، حضرت مؤخرا أكثر من لقاء في الولايات المتحدة وخارجها مع أمريكيين، خبراء في الشرق الأوسط، رسميين وأكاديميين متخصصين، أصدقاء ودون ذلك، فوجدت الأكاديميين متشككين في نوايا السياسيين في نشر الديمقراطية في العالم العربي، ومن لم يشك في النوايا غير مطمئن إلى القدرات، فيرد عليهم السياسيون أن الإدارة الأمريكية صادقة في مسعاها ويكادون أن يقسموا على ذلك لشعورهم بمقدار الشك الساخر من حولهم، ولكن عندما تسألهم عن التفاصيل، ومتى؟ وكيف؟ ولماذا؟ وماذا لو ؟ يعتذرون عن الإجابة مستخدمين آلية " ليس كل ما يعلم يقال "، لذلك أيها السادة "أعضاء حزب أمريكا في العالم العربي" أدعوكم ألا تلقوا بكل ما في يدكم في السلة الأمريكية، ألا تحرقوا مراكبكم وتقفزوا في الظلام، وادعموا ما هو قائم من مشاريع الإصلاح في أوطانكم، وانخرطوا فيها معتمدين على قدراتكم الذاتية وفق طاقتكم، التي تحددونها أنتم، فما حك جلدك مثل ظفرك) [صحيفة الوطن، ٢٠٠٤/٢/١٠] .

في تقديري الشخصي أن هذه الرسالة الخاشقجية هي "أخطر" رسالة من الداخل التغريبي نفسه تكشف صراع التغريبيين أنفسهم حول "خيار الاستقواء بالأجنبي"، وتلاحظ في هذه الرسالة الصريحة إحساس خاشقجي المتوتر بأن هناك اندفاع بين التغريبيين حيال الاستعانة بأمريكا لفرض التغريب، وخاشقجي يريد طمأنتهم وأنه يتفهم اندفاعهم بأنهم رأو الأبواب مغلقة عن التغيير التغريبي، ثم يخبرهم خاشقجي بأنه زار الأمريكان وتناقش معهم وأخبروه بأنهم لازالوا غير مقتنعين بفكرة التدخل المباشر، وأطرف ما في الموضوع أن خاشقجي يحاول أن يقنع أصحابه التغريبيين بالعدول عن هذا الاندفاع في الاستقواء بالخارج بحجة أن الأمريكان "غير جادين" في مساعدتكم بشكل مباشر، وهذه الحجة التي يعرضها خاشقجي تضمر أخطر مما تفصح، فهذا يعني –طبقاً لمنطق خاشقجي– أن الأمريكان لو كانوا جادين في التدخل المباشر فلا إشكال في الاستعانة بهم!

حسناً .. يبدو أن التفاصيل والاستطرادات الكثيرة السابقة قد تسهم في تبدد الصورة الكلية للموضوع، لذلك دعنا نحاول استخلاص المشهد من جديد:
السفارة الأمريكية تتصل بعدد من المثقفين السعوديين تعرض عليهم تسهيلات وقروض، القنصل البريطاني يمول مركزاً سعودياً لتدريب الفتيات، طالبات في كلية أهلية سعودية ينفذ لهن برنامج للقاء بالرئيس الأمريكي وتلقي توصياته في كيفية التغيير في السعودية، مجموعة برلمانيات بريطانيات يراسلن ليبراليات سعوديات لعرض المساعدة في إلغاء اشتراط المحرم للسفر وإلغاء ولاية التزويج والطلاق ونحوها، جهة أمريكية غامضة تضغط على مجموعة (الإم بي سي) لإعادة الأستاذ عبدالرحمن الراشد لإدارة فضائية العربية، الصحافة الأجنبية توظف مقالات الليبراليين السعوديين لتشويه المجتمع السعودي وتعبئة الرأي العالمي ضده، زوجة السفير الأمريكي تدعم منتدى جدة، السفارة الفرنسية تصمم برنامجاً تدريبياً لمجموعة فتيات سعوديات، الأمير خالد الفيصل يمنح جائزة أجنبية لأنه قام بدور أكثر من المطلوب، ويعقد صفقة فكرية مع قلعة التغريب الأقدم "الجامعة الأمريكيةفي بيروت"، وترشحه دورية أمريكية نافذة كملك مستقبلي في السعودية، وباحثين أمريكيين رفيعي المستوى يحذرون من زيادة الدعم لئلا يتشوه التغريبيون في مجتمعاتهم باعتبارهم "عملاء"، وأخيراً .. خاشقجي يوصي أصحابه التغريبيين بأنه ناقش الأمريكان واكتشف أنهم غير جادين في التدخل المباشر!

هذا طبعاً جزء من الوثائق والأحداث التي انكشفت مؤخراً حول العلاقة العضوية الوثيقة بين (الغربيين) و (التغريبيين) السعوديين، دعونا نسجل عدداً من الهوامش الختامية حول هذه الظاهرة المعقدة:

يبدو لي أن أخطر نتيجة لهذه الظاهرة هي استنزال العقاب الإلهي، الذي قد يكون بحلول النقمة في الدنيا قبل الآخرة، بأن يحرمنا الله –مثلاً– من هذه النعم والبركات والخيرات التي تفجرت بها أرض هذه البلاد بسبب عدم شكر هذه النعمة، كما قال تعالى (**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**) **[النحل، ١١٢]**.

ومن أصعب نتائج هذه الظاهرة أن هؤلاء التغريبيين الذين قبلو بلعب دور "العميل" والتعاون مع السفارات والقنصليات ومراكز البحوث الغربية ضد بلدانهم؛ أنهم يمثلون خطراً أمنياً محدقاً يهدد استقرارنا السياسي، حيث أصبحوا مجسات

ينفذ من خلالهم الأجنبي إلى الداخل السعودي، فهم في النهاية "أدوات للاستعمار طويل الأجل"، وهذه عادة التغريبيين في التاريخ كما لاحظ ذلك رائد العقلانية العربية الأستاذ (جمال الدين الأفغاني) حيث يقول:

(علمتنا التجارب، ونطقت مواضي الحوادث؛ بأن المقلدين من كل أمة، المنتحلين أطوار غيرها؛ يكونون فيها منافذ وكوى لتطرق الأعداء إليها)[الأفغاني، العروة الوثقى، ص٥٩]

وهذه الظاهرة ليست جديدة على التاريخ الإسلامي أصلاً، فقد أخبرنا الله جل وعلا عن كثير ممن هم داخل المجتمع المسلم ويتعاونون مع أعدائه، كما قال تعالى (**وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ**) **[التوبة، ٤٧]**، ووضح لنا القرآن أنهم يستقوون بالأجنبي خشية على أنفسهم كما قال تعالى (**فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ**) **[المائدة، ٥٢]**، ووضح لنا القرآن –أيضاً– التركيبة النفعية/البراجماتية لهذه الشريحة، فهم يستقوون دوماً بالطرف الأقوى، وليس لديهم انتماء عقدي حقيقي لمجتمعهم كما قال تعالى (**فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**) **[النساء، ١٤١]**، ونظائر هذه الآيات لا تخفى بإذن الله.

وهذه النظرة ليست خاصة بالإسلاميين، بل كل المفكرين الأحرار في كل الأمم المعاصرة يعتبرون التعاون مع الأجنبي ضد البلد (خيانة وطنية)، ومن المشاهد اليوم أن الليبراليين السعوديين يدفعون اليوم باتجاه تطبيع مفهوم الخيانة الوطنية.

ومن توابع ظاهرة (العمالة التغريبية) أنها تمنح تيار (غلاة التكفير والعنف) ذرائع لتعبئة الشباب المسلم ضد مجتمعه، وتصويره بأنه مجتمع فاسد، واستقطابه للأعمال المسلحة، وهذا ليس توقع، بل هذا واقع، فقد زرت وطالعت عدداً من مجلات ومواقع غلاة التكفير والعنف ولاحظت أنهم يحتجون بتصرفات التغريبيين على شرعية جرائمهم، وهذا لا يعني صحة احتجاج الغلاة، ولكن يعني وجوب قطع الطريق عليهم.

ومن أهم جرائم هؤلاء التغريبيين تشويههم لصورة أرض الحرمين وجزيرة الإسلام ومنطلق دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وتوظيف الإعلام الأجنبي لمقالاتهم لتعبئة الرأي العالمي ضد الواقع الشرعي في المجتمع السعودي.

ومن الكوارث التي صنعها هؤلاء التغريبيون أنهم حطموا (الإبداع الثقافي) في السعودية، فالشاب المتطلع للثقافة منذ أن ينتمي إليهم تجده تدريجياً يذبل عنده حس الإبداع، وينمو لديه حس التقليد والتبعية والهزيمة النفسية للأجنبي، ويتحول من عقل يفكر إلى يدين تصفق للغربي فقط، وهذه ليست ملاحظة من جهة الإسلاميين، بل هذه حالة لاحظها مفكرون خارج التيار الإسلامي، ومنهم المؤرخ العروبي المعروف فهمي جدعان، ففي ثنايا تأريخه للفكر العربي المعاصر رمى بملاحظة مليئة بالدهشة، حيث يقول:

(والذي يثير الاهتمام لدى الكتاب التغريبيين –من المصريين خاصة– هذا الانقياد الكامل العجيب للقيم الغربية، وهذا الغياب المطلق لكل روح نقدية بإزاء هذه القيم، فلقد اشتعلت رؤوسهم ذكاء ونقداً للمدنية العربية الإسلامية؛ بينما تقلص هذا الذكاء تقلصاً كاملاً بإزاء المدنية الغربية التي كانت تلاقي

في عقر دارها في الفترة نفسها انتقادات لا ترحم) [جدعان، أسس التقدم عند مفكري الإسلام، ص ٣٣١، دار الشروق]

ويهمني هاهنا التأكيد على أنه يجب أن لا نبالغ في تقدير حجم الليبراليين والتغريبيين، فهم مجرد "شرذمة" تعاني أصلاً من نبذ اجتماعي، ولن يتم لهم بإذن الله ما يصبون إليه، وقد لاحظت أن التغريبيين والليبراليين يحرصون دوماً على إشاعة انطباعات عن سعة شريحتهم، بهدف كسر المقاومة النفسية لدى المتلقي، وهذا كله تزييف، بل إنني أتوقع لهؤلاء التغريبيين أو الليبراليين (نكبة سياسية) قريبة بسبب اندفاعهم في الاستقواء بالأجنبي وافتضاح عمالتهم لقوى خارجية مشبوهة.

ومن الأمور اللافتة أن التغريبيين يفرحون بوقوع أعمال عنف في السعودية، لأنهم يجدونها فرصة للتأليب على الواقع الشرعي في السعودية، والحقيقة أن هذا أسلوب فاشل، فالناس جميعاً يعرفون أنه لم يقطع فتنة غلاة التكفير والعنف إلا العلماء والدعاة، وليست الصحافة الليبرالية، فعلماء ودعاة أهل السنة هم الذين بينوا ودللوا ونصحوا في دروسهم وخطبهم وفتاواهم عن انحراف غلاة التكفير، وأن أفعالهم تدخل في مفهوم (الفساد في الأرض) الذي ذكره القرآن في بضعة مواضع، بل العلماء والدعاة وقع عليهم من أذى هؤلاء الغلاة أضعاف ما وقع على المجتمع، فأتذكر قبل عدة سنوات أنني تناقشت مع أحد هؤلاء الغلاة، فزودني برابطين، أحدهما عن ابن باز والآخر عن سفر الحوالي، وفيهما من تضليل الشيخين والاستهتار بهما والتلويح بتكفيرهما ما لا تطيقه أقوى النفوس، ولم أكن أتوقع حينذاك أنهم وصلوا إلى هذا المستوى، ولذلك كانت دهشتي عالية، وقلت في نفسي إذا كان هذا قولهم عن الشيخ ابن باز والحوالي فما هو قولهم عن غيرهما؟!

وأما أنجع وسيلة لمقاومة هذه الظاهرة التغريبية فهي بكل اختصار (القرآن)، فهؤلاء التغريبيين حتى لو كان معهم سفارات وقنصليات وبرلمانات غربية، فنحن معنا (القرآن)، والقرآن أقوى من هؤلاء ومن وراءهم، ولذلك قال تعالى لنبيه **(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا) [الفرقان، ٥٢]** وقد نقل أهل التفسير عن ابن عباس أنه قال أي جاهدهم بالقرآن.
وأمر الله أن تكون النذارة بهذا القرآن فقال تعالى:
(وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ) [الأنعام، ١٩]
وأمر الله أن يكون التذكير بالقرآن فقال تعالى:
(فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ) [ق،٤٥]
ولما أرسل الله موسى إلى فرعون وذكر موسى لربه بطش فرعون وجبروته قال له ربه جل وعلا **(قَالَ كَلا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ) [الشعراء، ١٥]**.

ومن وسائل الجهاد بالقرآن أن ينتدب طلبة العلم أنفسهم لعقد الدروس العامة والخاصة على الناس في (تفسير آيات الفضيلة) مثل:
مبدأ القرار (وقرن في بيوتكن)، والحواجز بين الجنسين (فاسألوهن من وراء حجاب)، ومنع إلانة الصوت (ولا تخضعن بالقول)، ومنع التبرج (ولاتبرجن تبرج الجاهلية الأولى)، وضرب الخمر على الجيوب (وليضربن بخمرهن على جيوبهن)،

وإدناء الجلابيب (يدنين عليهن من جلابيبهن)، ومنع إبداء الزينة (ولا يبدين زينتهن)، ومنع الأصوات التي توحي بحليهن (ولايضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن)، والأمر بغض البصر (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم)، (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن)، وبيان مقصد طهارة النفوس من التعلق بين الجنسين (ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن)، وتثمين حياء المرأة حتى في مشيتها (وجاءته إحداهما تمشي على استحياء)، وأمثال هذه الآيات العظيمة، وخصوصاً إذا انضم لذلك نظائرها من نصوص السنة مثل جعله –صلى الله عليه وسلم– فتنة النساء هي أضر فتنة، وتحذيره من الدخول على النساء، وقوله الحمو الموت، ومنع سفر المرأة بلا محرم، ومنع التعطر في الطريق، واستشراف الشيطان للمرأة إذا خرجت، وترك النبي مصافحة النساء، وقوله طوفي من وراء الرجال، ومنع الخلوة الخ الخ، وهذه النصوص ونظائرها لو جمعت في رسالة واحدة، ووضعت الدروس في تفسيرها وتوعية الناس بها، وتعميق حضورها في وعيهم، وأن يوضح لهم أن هذه المنظومة من النصوص تتضمن معنى كلي قطعي وهو: أن مقصود الله جل وعلا في العلاقة بين الجنسين هو التحفظ والصيانة وسد الذرائع، ولا يشك في ذلك من يقرأ أمثال هذه الآيات في كتاب الله وهو صادق في طلب الحق.

وفي رأيي أن يجب التركيز على (تفسير آيات الفضيلة) لأن المشروع التغريبي صب وقوده الأساسي في ملف المرأة، فهناك زحف تغريبي منظم لسلخ أحكام القرآن والسنة عن المرأة، واستبدالها بالمفهوم والتصور الغربي عن المرأة ودورها في الحياة، فيجب أن لا نستسلم لهم، ولن يحرقهم مثل عمارة النفوس بالقرآن.

والله تعالى أعلم.

ابوعمر

ليلة عاشوراء ١٤٣٢هـ

القرآن لا يغيِّب البسمة!

–مدخل:

الحمدلله وبعد،،

على طاولتي الآن ورقتان كل واحدة منهما تركل الأخرى من شدة المفارقة، أولهما قصاصة من صحيفة الوطن يعلن فيها الأمير خالد الفيصل تذمره الشديد ممن يفترون عليه ويقولون أنه أصدر (قرار تشريد حفظة القرآن)، جاء في خبر الصحيفة:

(اكتفى أمير منطقة مكة المكرمة الأمير خالد الفيصل بالقول: حسبي الله ونعم الوكيل.. حسبي الله ونعم الوكيل، فأنا مشغول بخدمة هذه الأرض المقدسة وأهلها والوافدين إليها من ضيوف الرحمن، وليس لدي الوقت لمتابعة مثل هذه الكتابات في هذه المواقع، ولكن أسأل الله العلي القدير الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور أن يغفر لي وهؤلاء الذين أساؤوا لي) [صحيفة الوطن، ٢٠١٠/١١/٣].

حسناً .. وضعت هذه التصريح الذي يعلن فيه الأمير خالد الفيصل قبل يومين بأنه مظلوم، وأنهم يتجنون عليه، بجانب نسخة من قرار الأمير نفسه بتشريد حفظة القرآن الكريم، والذي أصدره قبل شهر ونصف، وبلهجة بوليسية حادة، يقول فيه:

(سعادة مدير فرع وزارة الشؤون الاسلامية بمنطقة مكة المكرمة...، حيث أن التعليمات تمنع الأجانب من التدريس في حلقات تحفيظ القرآن الكريم، لذا نرغب الاطلاع والتأكيد على فروع الادارة طرفكم بمحافظات المنطقة بمتابعة حلقات التحفيظ، واستبعاد الأجانب منها فوراً، واستدعاء مدير الجمعية المذكورة، والتحقيق معه حيال أسباب تمكين أجانب من الإشراف على حلقات تحفيظ القرآن الكريم، وأخذ التعهد اللازم عليه بالتقيد بالتعليمات الخاصة بعدم السماح للأجانب بمزاولة التدريس، وقد زودْنا مدير جوازات المنطقة بصورة من برقيتنا هذه لاستدعاء الأجانب المشار لأسمائهم، وإلزام كفلائهم بتأمين عمل لهم أو ترحيلهم من البلاد. التوقيع خالد الفيصل) [خطاب من أمارة منطقة مكة المكرمة، برقم ١ش/٧١٤٦٢٨، وتاريخ ١٤٣١/١٠/١٧هـ].

عدت مجدداً لذلك الخبر الذي يقول فيه الأمير خالد الفيصل (**حسبي الله ونعم الوكيل.. أنا مشغول بخدمة ضيوف الرحمن)!** وقلت في نفسي لماذا يتم استغفال الناس بهذه الطريقة؟ يُصدِر الأمير خالد من تحت الطاولة أمراً قاسياً بتشريد حفاظ القرآن الكريم والتحقيق مع معلميهم وكفلائهم وترحيلهم من البلاد، ثم يَظهر بعدها في الصحافة بلغة عاشورائية متمسكنة تتوجع من الظلم، والتجني، ويكشف فيه عن جدوله اليومي المكتظ بهموم ضيوف الرحمن، ويردد (حسبي الله ونعم الوكيل) !

-نظامية قرار تشريد حفظة القرآن:

هذا القرار الإداري الذي اتخذه الأمير خالد الفيصل هل هو قرار نظامي صحيح، أم هو قرار غير مشروع ومشوب بعيب نظامي؟

من المعروف في (علم القضاء الإداري) أن القرار الإداري يكون معرضاً لـ(دعوى الإلغاء) إذا كان مشوباً بأحد العيوب الستة المعروفة، وقد نص عليها نظام ديوان المظالم السعودي، حيث جاء فيه:

(تختص المحاكم الإدارية بالفصل في الآتي:ب- دعاوى إلغاء القرارات الإدارية النهائية التي يقدمها ذوو الشأن، متى كان مرجع الطعن: عدم الاختصاص، أو وجود عيب في الشكل، أو عيب في السبب، أو مخالفة النظم واللوائح، أو الخطأ في تطبيقها أو تأويلها، أو إساءة استعمال السلطة) [نظام ديوان المظالم، ١٤٢٨هـ، م١٣/ب]

وحين نتأمل في القرار السابق الذي اتخذه الأمير خالد الفيصل نجد أنه مشوب بعدة عيوب، منها الخطأ في تطبيق الأنظمة، ومنها عيب عدم الاختصاص الموضوعي، وهو تحديداً (اعتداء هيئة ادارية على اختصاص هيئة إدارية أعلى منها)، لأن قرار السعودة ليس من اختصاص إمارات المناطق، وإنما هو من اختصاص هيئة إدارية أخرى أعلى منها وهي (وزارة الداخلية)، ووزارة الداخلية (المختص الفعلي) أصدرت قراراً إدارياً باستثناء حلقات التحفيظ من قرار السعودة، حيث جاء في قرار وزارة الداخلية:

(سعادة مدير عام الجوازات..، بشأن طلب معالي نائب رئيس الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بمنطقة مكة المكرمة بعدم إلزام العاملين المتعاونين مع الجمعية بنقل كفالتهم، لأن عملهم يقتصر على الفترة المسائية فقط، وهم تحت كفالة جهات أخرى..، عليه لا مانع من ذلك، ولكم تحياتنا، التوقيع: نائب وزير الداخلية، أحمد بن عبدالعزيز) [خطاب صادر من مكتب وزير الداخلية، برقم ١/ب/٤٩٢٢، وتاريخ ١٤١٩/٥/١٧هـ].

فنلاحظ في هذا القرار الإداري الصريح من الجهة المختصة استثناء حلقات التحفيظ من قرار السعودة، وبالتالي فإن إلزام إمارة منطقة مكة لحلقات التحفيظ بالسعودة هو تعدي من هيئة إدارية على اختصاص هيئة إدارية أعلى منها، وهذا عيب صريح من عيوب عدم الاختصاص التي تجعل قرار الأمير خالد الفيصل قرار غير مشروع نظاماً، بل فيه انتهاك صريح لاختصاص هيئة إدارية أخرى.

واختصاصات أمراء المناطق ليست فوضى، بل هي مضبوطة بنظام المناطق (١٤١٢هـ المعدل بالأمر الملكي ١٤١٤هـ)، والذي قسم المناطق الإدارية في السعودية إلى ثلاثة عشر منطقة، وحدد صلاحيات أمراء المناطق في المادة السابعة، وهي أقرب إلى المهام الإشرافية فقط، والأمير خالد الفيصل متبرم من ضيق صلاحياته، وقد صرح بذلك مرةً في لقاء صحفي عام، كما جاء في صحيفة الوطن:

(في رده على سؤال صحفي أثناء زيارته للقنفذة، قال الأمير خالد الفيصل ما معناه: إن محدودية الصلاحيات بيد أمير المنطقة لا تعني أن نظل مكتوفي الأيدي رهناً للحدود بلا عمل) [صحيفة الوطن، ٢٠٠٨/١/٢٣]

هذا التصريح للأمير خالد تصريح مُريب بصراحة، فهذا التصريح يؤكد أن الأمير خالد الفيصل يعي جيداً محدودية صلاحياته كأمير للمنطقة، ومع ذلك يتحدث بلغة تحدّي توحي بعزمه على تجاوز صلاحياته النظامية عمداً، وانتهاك صلاحيات هيئات إدارية أخرى! وهذا يعني أن خطأ الأمير خالد في اجتياح اختصاصات هيئات إدارية أخرى لم يكن تعدياً عفوياً غير مقصود، بل كان تعدياً واعياً لتوسيع هيمنة اختصاصاته بطريقة غير نظامية! وهذا شئ مؤسف فعلاً.

على أية حال .. الأهم في الأمر كله أن جهة الاختصاص وهي وزارة الداخلية هي التي قررت استثناء حلقات التحفيظ من قرار السعودة، ووزارة الداخلية ليست هيئة إدارية مساوية لإمارة المنطقة، بل هي هيئة إدارية أعلى من إمارة المنطقة، فإمارة المنطقة تابعة لوزارة الداخلية؛ كما نصت على ذلك المادة الخامسة من نظام المناطق:

(يكون أمير المنطقة مسئولاً أمام وزير الداخلية) [نظام المناطق، م٥]

وعليه فيمكن الادعاء بأن هذا الخطأ النظامي الذي ارتكبه الأمير خالد الفيصل يقع في ما يسميه خبراء القضاء الإداري (تعدي المرؤوس على اختصاص رئيسه).

ومما يؤكد هذا التعدي النظامي الخطير من الأمير خالد الفيصل أن بقية أمراء المناطق الإدارية في المملكة (١٢منطقة) كلها –بلا استثناء– لم يطبق أمراؤها السعودة على حلقات التحفيظ، وهم: (سلمان بن عبدالعزيز، عبدالعزيز بن ماجد، فيصل بن بندر، محمد بن فهد، سعود بن عبدالمحسن، محمد بن ناصر، فيصل بن خالد، مشاري بن سعود، فهد بن سلطان، مشعل بن عبدالله، فهد بن بدر، عبدالله بن مساعد)، فكل أمراء المناطق هؤلاء عملوا بالاستثناء الذي قررته جهة الاختصاص وهي وزارة الداخلية، وفي كل هذه المناطق الإدارية يعمل فيها غير السعودي مع أخيه السعودي جنباً إلى جنب في تحفيظ القرآن، إلا أمير منطقة مكة خالد الفيصل —هداه الله– فهو الذي عارض وزارة الداخلية —وهي جهة الاختصاص ومرجعه الاداري في ذات الوقت– وطبق القرار في محل الاستثناء!

السؤال الذي يحير المتابع: ما الذي يدفع الأمير خالد الفيصل لأن ينفرد عن كل أمراء المناطق هؤلاء بتحدي النظام وتجاوز اختصاصاته والتسلط على حفظة كتاب الله؟

–سعودة أم شماعة؟ :

المقاصد والأغراض الخفية يكشفها السياق دوماً، والناس ليسوا بلهاء ولا مغفلين، ففي منطقة مكة المكرمة لا تزال توجد في المؤسسات الحكومية والشركات الكبرى وظائف كثيرة جداً يشغلها إخوة لنا غير سعوديين، وفي كل هذه الوظائف لم يأتِ أي استثناء نظامي بشأنهم، فلماذا قفز الأمير خالد الفيصل وترك كل هذه المؤسسات والشركات، التي يجب تطبيق النظام عليها، وطبق النظام على جهة مستثناة أصلاً؟
هل أبقى الأمير خالد —بالله عليكم– موضعاً لحسن الظن؟!

لن أستعرض هذه المؤسسات الحكومية والشركات الكبرى، ولكني سآخذ عينة واحدة فقط لأنها عينة مشابهة لجمعية التحفيظ، وهي (المدارس الأهلية) في منطقة مكة المكرمة، ففي المدارس الأهلية للبنين يشكل إخوتنا غير السعوديين فيها ما نسبته ٧٠%، وفي المدارس الأهلية للفتيات تشكل أخواتنا غير السعوديات فيها ما نسبته ٤٠%، فلماذا تركها الأمير خالد الفيصل، وهي لم تستثنَ، وذهب يطبق القرار على محل مستثنى أصلاً؟!

مرةً أخرى .. هل أبقى الأمير خالد موضعاً لحسن الظن؟!

حسناً .. لنفترض أن القضية سعودة فعلاً، هل طبقت السعودة في كل القطاعات بهذه الطريقة الفجائية المريبة، تسريح ٦٠٠٠ معلم، وتشريد ١٢٠,٠٠٠ طالب في لحظة زمنية واحدة؟! في كل القطاعات التي طبقت فيها السعودة أعطيت الجهات ذات العلاقة فترة زمنية تدريجية لتصحيح الأوضاع، كخمس سنوات مثلاً، وإذا حصل عجز عن التغطية بسعوديين فإنه تستثنى كمية العجز من السعودة، وليست الأمور بهذه الأسلوب المباغت الذي نفذته إمارة مكة والذي بعثر الطلاب وأربك جمعية التحفيظ وحرم المساجد من دوي صبيان المسلمين بالقرآن.

على أية حال .. لا يشك أي متابع يتمتع بقواه العقلية بشكل جيد أن القضية لا سعودة ولا غيرها، وإنما القضية تفتيش عن شماعة يمكن أن يعلق عليها التبرير الإعلامي لمخطط الإغارة على حلقات تحفيظ القرآن.

-الافتراءات الترميمية:

بعد أن تم تنفيذ المؤامرة، واشتعال القضية إعلامياً، وتذمر الناس بشكل واسع في المجالس وعلى شبكة الانترنت، وتوالي الوفود الاحتسابية على الإمارة، وانهمار المخاطبات والمكاتبات من شتى أنحاء المملكة؛ اكتشفت إمارة منطقة مكة أنها وقعت في ورطة! ومن الواضح أنهم لم يتوقعوا أبداً أن يكون رد الفعل الشعبي بهذه الصورة! ولكن الأمير خالد الفيصل صعب عليه أن يتراجع عن قراره لأنه يشعر أن هذا فيه كسر لسيادته، وأنه يوصل رسالة بأنه خضع للضغوط، وهذه من أصعب الأمور على الأمير خالد الفيصل لمن يعرف شخصيته جيداً.

وفي هذه الظروف: ما هو الحل الذي تفتقت عنه أذهان مرتزقة الصحافة؟

لم يكن الحل هو التراجع الصريح الفوري عن القرار، والاعتذار لطلاب التحفيظ، وإنشاء حفل لتكريمهم، ومضاعفة مكافآت المعلمين تعويضاً عن الأضرار المعنوية التي لحقتهم، كلا، كل ذلك لم يقع، وإنما الحل الذي قام به مرتزقة الصحافة هو فبركة القصص والافتراء على مسؤولي الجمعية لتغطية الفضيحة، بل والتخبط في سلسلة فبركات كل واحدة منها تكذب سابقتها!

سأشير هاهنا لنموذجين من هذه الافتراءات لترميم الموقف:

الفرية الأولى: قامت بها صحيفة الوطن (وهو مما يستغرب على هذه الجريدة الصادقة أن تكذب!) حيث نسبت لفضيلة الشيخ المهندس عبدالعزيز حنفي، رئيس جمعية التحفيظ، بأنه يقول بأن الحلقات لم تغلق، وأنه يتهم المعلمين غير السعوديين باختلاق هذه الشائعات، حيث جاء في صحيفة الوطن:

(أكد رئيس الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بجدة الشيخ عبدالعزيز حنفي، أن حلقات تحفيظ القرآن بالجمعية مستمرة ولم تتوقف حسب ما أشيع مؤخرا في بعض المواقع الإلكترونية. وأوضح حنفي أن ما أثير في بعض المواقع الإلكترونية من إغلاق وتوقف لهذه الجمعيات غير صحيح، ولا يعدو كونه حملة موجهة من بعض المدرسين غير السعوديين) [الوطن، ٢/١١/٢٠١٠].

ويبدو أن صحيفة الوطن حين اختلقت هذا التصريح ونسبته لرئيس الجمعية راهنت على أن الشيح المهندس حنفي سينحني ويسكت عن نسبة هذا الاختلاق إليه، لكن الشيخ حنفي شعر أن المروءة لا تستقيم مع الصمت عن هذا الافتراء، سيما أن فيه إهانة لإخواننا غير السعوديين من معلمي القرآن، فبادر الشيخ حنفي بتكذيب ما نسب إليه، ثم أعقب ذلك ببيان صريح كذَّب فيه افتراءات صحيفة الوطن، حيث يقول الشيخ حنفي:

(نفى عبد العزيز حنفي، رئيس الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بمحافظة جدة، ما تناقلته بعض الصحف المحلية من اتّهامه للمدرسين غير السعوديين بشنّ حملة موجهة على الجمعية وقرار السعودة، مؤكدًا أن ما قاله هو أن حلقات المدرسين غير السعوديين موقفة وحلقات المدرسين السعوديين مستمرة، نافيًا أن يكون قد قال أي شيء يسيء إلى المدرسين غير السعوديين، وأشار إلى أنه يخدم القرآن وأهله منذ سنين طويلة ولا يمكن أن يتكلم بمثل هذا الكلام) [الاسلام اليوم، السبت ٦/١١/٢٠١٠]

الحقيقة أن هذا موقف شهم من الشيخ حنفي، ويعبر عن شموخ الرجولة التي يحملها بين جنبيه، فالفرية التي اختلقتها صحيفة الوطن ضد إخواننا معلمي القرآن غير السعوديين لا يمكن وصفها إلا أنها عمل دنئ منعدم المروءة.

الفرية الثانية: لما لم تنجح الكذبة الأولى للتغطية على ورطة إمارة مكة، لجأت صحيفة الوطن صباح هذا اليوم السبت إلى حياكة تمثيلية أخرى، حيث نشرت الخبر التالي:

(خالد الفيصل يعزز حلقات التحفيظ بـ١٠٧٠ سعودياً: جاء ذلك في اجتماع ترأسه الأمير خالد الفيصل، بحضور المشرف على الجمعية الدكتور عبدالله نصيف، والمدير العام للتربية والتعليم بجدة عبدالله الثقفي، ورئيس جمعية التحفيظ بجدة المهندس عبدالعزيز حنفي.وأوضح الثقفي خلال الاجتماع أن إدارته ستستفيد من أكثر من ١٠٧٠ خريجا جامعيا يبحثون عن عمل تضمهم قوائم إدارته). [صحيفة الوطن، ٢٠١٠/١١/٦]

هل تعلم من هم هؤلاء الـ(١٠٧٠) سعودي؟ هؤلاء خريجون متقدمون لوزارة التربية والتعليم لطلب العمل كمعلمين، وقد وضعتهم الوزارة على قائمة الانتظار (waiting list) ، فلما خاطبت الجمعية الإمارة للمبادرة بحل الأزمة، قال الأمير خالد الفيصل: اطلبوا من هؤلاء المنتظرين للعمل كمعلمين أن يتبرعوا للتدريس بتحفيظ القرآن براتب (٥٠٠) ريال شهرياً! فردت الجمعية بأن هؤلاء المقيدين لدى وزارة التربية والتعليم في انتظار وظيفة معلم يستحيل أن يقبلوا بأن يعملوا براتب قدره خمسمائة ريال، ولو فرض ووافقوا فلن يأتي من هؤلاء الألف إلا عشرة أو عشرين على سبيل التبرع و (الفزعة) للحلقات فقط، ثم إن الجمعية جربت كثيراً منهم فهم يأتون أول أسبوع، ثم لا يستطيعوا الإكمال لظروفهم المعيشية، ثم على فرض أن هؤلاء الألف أتوا للعمل كمعلمين، فإن عدد المعلمين غير السعوديين هو ستة آلاف، فلا يزال هناك عجز!

انفضّ الحديث بين الجمعية والإمارة على ذلك، فقامت صحيفة الوطن وصورت الأمر على أن الأزمة تم حلها بألف معلم سعودي!

هل يشك المراقب أن الصحافة السعودية تمر بأسوأ مراحلها المهنية، فلا تزال الصحافة السعودية تكذب وتتحرى الكذب!

–مجرد حلقة في سلسلة:

قرار تشريد حفظة القرآن الذي اتخذه الأمير خالد الفيصل وفقه الله، ليس قراراً مجرداً يسبح في الهواء الطلق، بل هو حلقة في سلسلة طويلة من العداء القديم والترصد ضد الدعوة الإسلامية، والأمير خالد الفيصل في هذا السياق ينفرد عن جميع أمراء المناطق، بل وعن سياسة والده نفسه الملك فيصل –رحمه الله رحمةً واسعة– فلا يعرف أحد من أمراء المناطق يترصد للدعاة ويضيق عليهم ويتحمس للحفلات الغنائية ودعم العلمانيين مثل الأمير خالد الفيصل.

فحين كان الأمير خالد الفيصل أميراً لعسير ذاق الدعاة منه الأمرّين، فقد كان مجتهداً في التضييق على الأنشطة الدعوية، والتمكين لحفلات الغناء والطرب والشخصيات العلمانية المشبوهة.

فمثلاً .. أقيم في منطقة عسير مهرجانات دعوية استضيف فيها العلماء وأقيمت فيها أنشطة ترفيهية وترويحية مباحة، فقام الأمير في البداية وأمر بإخراجها خارج المدن لمدة سنتين، لزيادة مشقة الحضور، ثم أمر بإيقافها كلياً، في الوقت الذي كان يبالغ في نشر وترويج الحفلات الصاخبة، حتى كانت مكبرات الصوت تنقل أصوات المعازف لمسافات شاسعة، فترتج أبها الجديدة عزفاً، حتى كان يتأذى كبار السن منها كثيراً.

وأما التضييق على الدعاة ونقلهم من أعمالهم فكثير، وعلى سبيل المثال الشيخ المحتسب أحمد بن حربان المالكي، حيث اشتكى ظاهرة استعمال الألعاب النارية ذات الأصوات المدوية في المهرجانات لما فيها من إزعاج كبار السن في المنطقة، فاستدعاه الأمير خالد الفيصل وعاتبه، ثم أوعز لإدارة التعليم بنقله، فاشتكى الشيخ أحمد إلى ديوان المظالم فنصره الديوان وصدر الحكم بإعادته لعمله عام ١٤٢٧هـ.

ومن إجراءات التغريب بين الفتيات في عسير دعم الأمير خالد الفيصل للأستاذة شايان ابوزنادة، حيث كانت تطوف على مدارس البنات في عسير تلقي المحاضرات لتغريب الفتيات، ولا تستطيع المدارس منعها من ذلك، وكانت شايان ابوزنادة تسعى لتحريض الفتيات ضد ولاية آبائهن عليهن، وتشويه بعض الأحكام الشرعية للحشمة والفضيلة، بل بلغ الحال أن شايان ابوزنادة وزعت مرة على بعض الفتيات نسخاً من الرواية التحريضية الساقطة (الإرهابي ٢٠) إبان صدورها.

ولا يزال المراقبون يتساءلون: لماذا الأمير خالد الفيصل هو الوحيد بين أمراء المناطق الثلاث عشرة الذي يضيق على استضافة العلماء والدعاة لإلقاء المحاضرات العلنية؟ حتى أن الأمير خالد الفيصل لما غادر إمارة عسير، وصار أميرها فيصل بن خالد؛ دبّت في عسير الحياة، فعادت لها أصوات العلماء والدعاة، وتناقصت الحفلات الغنائية تدريجياً، وشعر الناس بالتفريج.

ولما جاء الأمير خالد الفيصل إلى منطقة مكة المكرمة جاء بنفس أسلوبه الثلاثي: التضييق على محاضرات العلماء والدعاة، تشجيع المهرجانات الغنائية، دعم العلمانيين عبر مؤسسة الفكر العربي.

ومن أوائل الأعمال التي قام بها الأمير خالد الفيصل فور تعيينه في منطقة مكة عام ١٤٢٨هـ إغلاق حلقات تحفيظ القرآن التابعة للأميرة أم ثامر بن عبدالعزيز –رحمها الله– وكان الذي يشرف عليها هو ابنها الأمير ممدوح بن عبدالعزيز شخصياً، وكان فيها دور نسائية ونشاط متميز وانتفع بها أممٌ من الناس، فبحث الأمير خالد الفيصل عن مدخل لإيقافها، فوجدها غير تابعة لجمعية التحفيظ، وإنما يشرف عليها الأميرممدوح بنفسه، فأصدر قراراً بإيقافها، وتأثر الحفاظ والحافظات كثيراً بهذا القرار، وتحرك الأمير ممدوح وتابع الأمر بنفسه حتى استطاع إعادة حلقات والدته.

وكانت وزارة الشؤون الإسلامية تقيم مهرجانات دعوية شبابية في الأماكن العامة في جدة ويستضاف فيها كبار العلماء والدعاة، ويحضرها آلاف الشباب، وكان لها دور كبير في حفظهم من الجريمة والمخدرات ونحوها، وغرس القيم الإسلامية الكبرى فيهم كالصلاة وبر الوالدين ونحوها، ومن أشهرها —مثلاً– المخيم الشبابي بجوار المطار القديم، وكان فيه قسم

نسائي تلقى فيه المحاضرات العامة، وممن استضيف فيه مفتي عام المملكة، والشيخ عبدالله المطلق والشيخ عبدالله بن منيع ونحوهم من أعضاء هيئة كبار العلماء، وممن افتتحه في بعض سنواته محافظ جدة مشعل بن ماجد، وبدأ التضييق عليه بتقصير زمنه من شهر إلى أسبوعين، ثم أوقفه الأمير خالد الفيصل كلياً عام ١٤٢٨هـ ووافق الإغلاق إعلان محاضرة فيه للشيخ سعد البريك.

ومن مشروعات وزارة الشؤون الإسلامية التي أوقفها خالد الفيصل (مخيم البحر) على كورنيش جدة، وقد استضاف المخيم الشيخ عبدالله المطلق والشيخ عبدالله المنيع ونحوهم من اعضاء هيئة كبار العلماء، وافتتحه المحافظ مشعل بن ماجد عدة مرات، فضيق عليه الأمير خالد ثم أغلقه كلياً.

وأما اضطهاد قراء القرآن وأئمة المساجد المتميزين فذلك بابٌ انفرد فيه الأمير خالد الفيصل عن غيره فعلاً، ومن أمثلة ذلك: إيقاف الشيخ القارئ عبدالمحسن الحارثي إمام مسجد عليثة الحربي، وهو قارئ متميز وله تلاوات تبث في إذاعة القرآن الكريم، ويؤم مسجده فئام من الناس من أحياء جدة، ويبلغ الغبن مداه حين يعلم المرء أن الشيخ عبدالمحسن الحارثي في رمضان الماضي دعاه القائمون على جامع عمر بن الخطاب في دولة قطر والذي يخطب فيه الشيخ يوسف القرضاوي؛ للإمامة فيه لجمال قراءته، وصلى بهم فعلاً العشر الأواخر في قطر هذه السنة! وهكذا يتفنن الأمير خالد الفيصل في تشريد حملة القرآن وطلابه ومعلميه.

ومنهم الشيخ القارئ المشهور هاني الرفاعي صاحب الصوت النسماتي إمام مسجد العناني بجدة حيث أوقفه الأمير خالد الفيصل وتعنت في إيقافه برغم الشفاعات الكثيرة، حتى أن الشيخ الرفاعي صرح لبعض وسائل الإعلام قائلاً بألم: **(بذلت أكثر من المتوقع، وخاطبت الجميع قريباً و بعيداً من أجل الشفاعة، و لا أملك الآن إلا الصبر) [تصريح للرفاعي منشور في عدد من وسائل الإعلام].**

ويعرف الجميع أن هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تعاني من ضعف شديد في مدينة جدة نتيجة نقص الكوادر والحوافز والمضايقات، ومع ذلك فإن الأمير خالد الفيصل زاد التضييق عليها لدرجة الخنق، حتى أنه أصدر أوامره بعدم دخول الهيئة إلى المواقع التي هي من صميم عملها، وهذا أمرٌ سبب الفوضى الأخلاقية وتأذى الناس من القرار، ومن ذلك خطاب الأمير للهيئة الذي جاء فيه:

> **(فضيلة مدير عام فرع هيئة الأمر بالمعروف بمنطقة مكة المكرمة..، ماوجهنا به بأنه قد آن الأوان لإلغاء مثل هذه اللجان، اللجان المتعلقة بالمطاعم والأسواق والمنتجعات وما شابهها..، التوقيع الأمير خالد الفيصل) [خطاب من إمارة مكة، برقم ١ش/٥٦١٨٩٧ وتاريخ ١٤٣١/١١/١٨هـ].**

وهذا القرار قرار غير نظامي أصلاً، لأنه مخالف لقرار الهيئة الإدارية الأعلى وهي وزارة الداخلية التي قررت مزاولة هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لعملها في الرقابة الآدابية في الأسواق والمنتجعات (الشاليهات)، وللأسف فإنه لاتزال شاليهات أبحر الشمالية تعاني من مآسي أخلاقية ليلياً بسبب هذا المنع غير النظامي من الأمير خالد الفيصل هداه الله.

وأما اقتحام الأمير خالد الفيصل لمجامع النساء، والتقاط الصور مع الفتيات وهن سافرات، فهذا مما يندى له جبين الفضيلة، ومن نماذج ذلك: حين وقعت كارثة جدة فنشرت صحيفة الوطن (٢٠١٠/٦/٣٠م) خبر لقاء الأمير خالد الفيصل بالمتطوعات، وفيها صورة ملونة متمددة على طرفي الصحيفة لأربعين فتاة سافرة، وضربت المعازف في لقاء الأمير بالفتيات، والتقطوا الصور معهن! كان الناس يتمنون أن الأمير يبادر لحل الأزمة فإذا هو يوظفها لتقويض الفضيلة.

وبعد هذه الحادثة الأليمة بخمسة أيامٍ فقط، نشرت صحيفة الوطن (٢٠١٠/٧/٥م) خبر لقاء الأمير خالد الفيصل بطالبات كلية (عفت) وفيهن السافرات، وعزفت الأغاني في الحفل، وكان أخطر ما في هذا الحفل أن إحدى الطالبات كشفت بالخطأ العلاقة التغريبية المشبوهة مع جهات أجنبية، لدرجة اللقاء بالرئيس الأمريكي نفسه والاستفادة من توصياته في كيفية التغيير! حيث تقول إحدى الطالبات كما تنقل الصحيفة:

(**ذكرت الخريجة من كلية التمريض بدار الحكمة، وهي إحدى ٨ طالبات اللاتي تم اختيارهن للمشاركة في قمة ريادة الأعمال التي أقيمت في الولايات المتحدة الأمريكية حيث قالت: شاركنا في هذه القمة التي استغرقت يومين، وحظينا بمقابلة الرئيس الأمريكي "أوباما" وقالت "افتتحت هذه القمة من قبل الرئيس الأمريكي، الذي ناقش معنا الكيفية التي نستطيع من خلالها تبادل العلاقات الاجتماعية بين الولايات المتحدة والمملكة، وتنمية الريادة الاجتماعية، وكيف تم الارتقاء بهذه الريادة لكي يتم تطبيقها في المملكة**) **[صحيفة الوطن، ٢٠١٠/٧/٥]**

فالرئيس الأمريكي أوباما قدم لفتياتنا وصاياه وكيف يتم تطبيقها في المملكة؟! ثم يقولون بعد ذلك: ليس هناك مشروع تغريبي!
وهكذا يتم انتقاء بعض الفتيات، وإرسالهن للخارج للقاء بجهات خارجية مشبوهة، وتلقي التوجيهات في كيفية التغيير في المملكة! فهل يستيقظ النائمون قبل أن لا ينفع الندم؟!

وأما دعم وترويج العلمانية المتطرفة عبر (مؤسسة الفكر العربي) التي يملكها الأمير خالد الفيصل، وتمويل الشخصيات العلمانية المشبوهة بأموال ضخمة؛ فهذا من أشد الأمور إيلاماً، وسأشير لنموذج واحد فقط من ذلك، وهو لقاء (حوار العرب) الذي تشرف عليه وتنظمه (مؤسسة الفكر العربي) وتبثه قناة العربية، ففي لقائه الأخير هذا العام استضاف من جملة من استضاف الدكتور تركي الحمد، و الأستاذ إياد جمال الدين.

فأما الدكتور تركي الحمد فقد صرح بالدعوة للعلمانية الصريحة وأن الشريعة يجب أن لا تطبق على مؤسسات الدولة، حيث يقول:

(**الدين رسالة للفرد، وليس شيئاً للدولة، فالدولة لا دين لها**) **[تركي الحمد، برنامج حوار العرب بإشراف مؤسسة الفكر العربي]**

وأما الأستاذ إياد جمال الدين فقد أوجب على الدولة رعاية الكفر والإباحية واحترامها حيث يقول:

(هناك ضرورة دينية وإنسانية لفصل الدين عن الدولة، الدولة لا يمكن أن يكون لها دين، الدولة مؤسسة أمن وخدمات للجميع تعطي الماء والكهرباء للمسجد وللكنيسة وللملهى) [إياد جمال الدين، برنامج حوار العرب بإشراف مؤسسة الفكر العربي]

بل بلغت الوقاحة بالأستاذ جمال الدين إلى "شتم النبي" صلى الله عليه وسلم، وسبِّه سباً صريحاً أمام الملأ، حيث اتهم النبي بأنه أخطأ حين أقام دولة في المدينة، وأن دولة النبي –صلى الله عليه وسلم– في المدينة دولة آيديولوجية، وأن هذه الدولة النبوية هي التي تسببت في خلق ظاهرة النفاق، بل كرر في اللقاء أن حالة العربي في جاهليته أفضل من حالته في دولة النبي في المدينة، حيث يقول الأستاذ إياد جمال الدين:

(حكم النبي في المدينة أنتج ظاهرة لم يعرفها العرب في جاهليتهم، وهي ظاهرة النفاق، العربي في جاهليته لم يكن يعرف النفاق بل كان حراً كالصقور الحرة، النبي عاش في مكة ثلاثة عشر عاماً بشيراً ونذيراً لم يكن عنده شرطة ولا جيش، وعاش النبي في المدينة عشر سنوات بشيراً ونذيراً وصاحب سيف وسلطة، وفي المدينة ظهر حزب المنافقين، وهذا يعني أن أول الظواهر السلبية للحكم الآيديولوجي، حتى لو كان تحت حكم النبي؛ أنها تنتج أناساً مزدوجي الشخصية، النفاق ليس رد فعل ضد الدين، بل رد فعل ضد الدولة الآيديولوجية، حتى لو كانت بيد النبي) [إياد جمال الدين، برنامج حوار العرب بإشراف مؤسسة الفكر العربي]

وهكذا تحت رعاية (مؤسسة الفكر العربي) التي يملكها خالد الفيصل يُشتم النبي –صلى الله عليه وسلم– ويُدعى إلى أن تقوم الدولة بخدمة كنائس الكفر وملاهي الإباحية كما تَخدِم المساجد والبيوت التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه!

–فن تشويه سمعة أرض الحرمين:

سأكون صريحاً وصادقاً معك، الحقيقة أنني حين أكون داخل السعودية فإنني أتألم من ظواهر سلبية كثيرة، وجوانب نقص في نظامنا السياسي، لكن حين أكون خارج المملكة فإني أشعر بالفخر والارتياح وأحمد الله كثيراً على ما أنعم به على بلادنا من سيادة الشريعة في القضاء، وخصوصاً حين أرى كتب الفقه الإسلامي على مكاتب قضاتنا وفقهم الله، وأحمد الله كثيراً على المنزلة الاجتماعية الرفيعة التي يتبوأها علماء أهل السنة في بلدي، وأحمد الله كثيراً على نعمة جهاز هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغيرها كثير.. ولكني في هذه الأيام الأخيرة صرت أخجل حين أقابل صديقاً عربياً خارج المملكة، الجميع صار يقول لنا: لماذا تغيرت الأحوال عندكم في السعودية؟! لماذا إعلامكم صار يستهزئ بالعلماء؟! بل أعرف أحد الفلاسفة التونسيين أبدى استغرابه أكثر من مرة أن فلول اليسار عندهم صار مرحباً بهم في أرض الحرمين!

هذا الأسئلة تكاد تخنقني خنقاً..

والواقع أن ما يقوم به الأمير خالد الفيصل من منع لحلقات تحفيظ القرآن ودعم للعلمانيين المتطرفين أنه يصب في اتجاه المزيد من تشويه سمعة أرض الحرمين، الحجاج الآن يتوافدون على مكة، ويشاهدون سواري الحرم قد خلت من حفاظها!

المكانة الدينية لبلادنا هي عمق استراتيجي ومصدر استقرار سياسي لنا، وكل تقويض لهذه المكانة الدينية عبر هذا الهياج التغريبي هو خسارة من رصيد قوتنا.. لو كان قومي يعلمون.

من كان يتوهم أننا بهذا الاندفاع التغريبي سنكسب أمريكا فهو واهم، فالولايات المتحدة الأمريكية لن تحترمنا لأننا نحاكيها في أسلوب حياتها، فهناك الكثير ممن يصنع ذلك، ولكنها ستحترمنا إذا كان لنا قوة ووزن في المنطقة، فأمريكا لا تفهم إلا لغة القوة، ولا تفاوض إلا الأقوياء، والسعودية تضحي اليوم بأهم مصدر أكسبها وزنها وقوتها في العالم الإسلامي وهو طبيعتها الدينية.
السعودية اليوم مثل رئيس يحرق بيديه مؤهلات رئاسته..

معلم القرآن غير السعودي حين يرى اضطهاد الأمير خالد الفيصل له، وحين يرى مرتزقة الصحافة في سبيل التغطية على الفضيحة يتهمون هؤلاء المعلمين باختلاق شائعة إيقاف الحلقات؛ هل تظن أن هذا لن يجرح نفسياتهم؟ هل تظن أن هؤلاء سيعودوا لقومهم يدافعون عنك وينصرونك؟ لقد أخطأنا في حقهم خطأً كبيراً ويجب أن تعتذر لهم الإمارة اعتذاراً يليق بمكانتهم كمعلمين لكتاب الله.

ثم هل يظن مرتزقة الصحافة أن معلمي القرآن هؤلاء يبحثون عن "المال" ؟! لو كانوا يبحثون عن المال لفتح الواحد منهم مغسلة ملابس أو مطعم فطائر واكتسب خمسمائة ريال يومياً، وليس خمسمائة ريال شهرياً! ولكنهم قوم يحبون القرآن، ويحبون تعليمه، فانظر بالله عليك كيف كافأناهم على حسن صنيعهم! اللهم إنا نعتذر إليك مما صنع خالد.

كم هو مثير للاشمئزاز أن ترى التغريبيين في صحافتنا إذا جاء ذكر الكفار زُرق العيون الذين أهانهم الله بقوله (**إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا**) رأيتهم يتحدثون عن احترام الآخر حتى لو لم يكن على دينك، وإذا جاء ذكر معلم القرآن غير السعودي الذي شرفه الشارع بقوله في البخاري (**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**) رأيت الاستهزاء به، وقذفه بالفرية تلو الفرية، بل وكتب أحدهم في صحيفة عكاظ يستهزئ بلكنة هؤلاء المعلمين ويسخر بطريقة نطقهم للغة العربية!

لو كان هؤلاء المعلمين من نيويورك وفانكوفر ولندن لرأيت التعامل غير التعامل، والوجوه غير الوجوه، ولرأيت الحديث عن الجنسية آخر ما يمكن أن يهمس به! لكنها الهزيمة النفسية حين أصبح الكافر تمتلئ نفوس التغريبيين تعظيماً له، ومعلم القرآن يسخر به وبلكنته ويقذف بالكذبات الباردة.

–لماذا يحارب الأمير تحفيظ القرآن؟

السؤال الذي حيّر كثيراً من المتابعين للأزمة هو السؤال التالي: ما الذي يدفع الأمير خالد الفيصل لعرقلة حلقات تحفيظ القرآن؟

هناك أطروحتان تفسيريتان للإجابة عن هذه الإشكالية أولهما: (**مغازلة الترشيحات الأمريكية**) وثانيهما: (**عقدة المزاحمة الجماهيرية**).

فأما الأطروحة التفسيرية الأولى فثمة فريق من المراقبين يرى أن الأمير خالد الفيصل بإيقافه المستمر لأي نشاط شرعي، وعرقلته لجهود هيئة الأمر بالمعروف، وتشجيعه للحفلات الغنائية، وظهوره في مظهر تغريبي بين الفتيات، ودعمه للعلمانيين عبر مؤسسة الفكر العربي؛ يحاول لفت انتباه صناع الترشيحات الأمريكية باعتبار الأمير خالد الفيصل يمثل جناحاً ليبرالياً قادراً على ترويج الأجندة الثقافية الأمريكية، حيث سبق أن طُرِح في الكونجرس الأمريكي أكثر من مرة فكرة دعم أجنحة أخرى داخل الأسرة المالكة لخدمة الأهداف الثقافية الأمريكية، وخصوصاً في الفترة التاريخية التي أعقبت سبتمبر، ولذلك يتوقع هؤلاء المراقبون أن الأمير خالد الفيصل يحاول إيصال رسالة مستمرة لمهندسي الترشيحات الأمريكية هؤلاء.

وأما الأطروحة التفسيرية الثانية فترى أن الأمير خالد الفيصل ليس مجرد أمير له طموحات سياسية، بل يسعى لأن يكون له حضور ثقافي ولذلك يلقب نفسه أحياناً بالأمير الشاعر والأمير المثقف ونحوها، ونتيجةً لذلك فهو يشعر أن الأنشطة الشرعية من محاضرات وحلقات تحفيظ تسرق من الواقع جمهوراً شبابياً مفترضاً يمكن أن يحضر أمسياتهم وحفلاتهم، وقد صرح الأمير خالد الفيصل بشئ من ذلك حين أشار مرةً إلى قلة الحضور عندهم وكون المساجد يحضر للمشايخ فيها آلاف الشباب، ويدعِّم هذا الفريق أطروحته التفسيرية بأن قرار إيقاف الحلقات تم عقب احتفال جمعية التحفيظ بتخريج ألف حافظ في فندق هيلتون، وكان حفلاً مهيباً يعج بآلاف الحاضرين.

على أية حال .. سواءً كان هذا التضييق على الحلقات (مغازلة للترشيحات الأمريكية)، أو كان بسبب (عقدة المزاحمة الجماهيرية)، فالقضية كارثة شرعية تغضب الله جل وعلا، وكارثة اجتماعية تهدد صورة السعودية في الوعي العربي والإسلامي ويجب المبادرة بحلها، سيما أن القرار قرار غير نظامي أصلاً لأنه مخالف لقرار هيئة إدارية أعلى وهي جهة الاختصاص.

الحقيقة أنني مقتنع كلياً بأنه ليس من مصلحة الدعوة أن تكون في خصومة مع المسؤولين، ومقتنع كلياً أن أنجع أساليب الإصلاح هو أسلوب المداراة وحسن الظن المتبادل، ولكن الأمير خالد الفيصل –هداه الله– لم يبق لحسن الظن مكاناً، فقد ألغى الملتقيات الدعوية التي تشرف عليها وزارة الشؤون الإسلامية ويحاضر فيها كبار العلماء كالمفتي العام والشيخ عبدالله المطلق والشيخ ابن منيع ونحوهم، وأصدر قرار تشريد حفظة القرآن بعد أن كانت مساجد المسلمين تعج بأصواتهم، واستحث أصناف المغنين لتلويث أجواء البلد الحرام، واقتحم مجامع النساء والتقط الصور مع الخريجات عدة مرات، واستضاف ومول لقاءات معتوهي الفكر العربي كتركي الحمد الذي يدعو لعلمنة الدولة السعودية، وإياد جمال الدين الذي يشتم النبي –صلى الله عليه وسلم– ويدعو لأن تخدم الدولة كنائس الكفر وملاهي الإباحية! وفوق ذلك كله هو الوحيد بين أمراء المناطق الثلاث عشرة الذي يقوم بهذه الأدوار!
فهل أبقى الأمير خالد الفيصل –بالله عليكم– مجالاً لحسن الظن والمداراة؟!

على أية حال .. حين رأيت الأمير خالد الفيصل أصدر قراره بتشريد حفظة القرآن، وإحياء سوق عكاظ الجاهلي؛ تذكرت مقالاً شهيراً للأمير عنوانه (من غيّب البسمة؟) ، هذا المقال يكشف جيداً عن تصور الأمير لمفهوم السعادة، يتحسر الأمير خالد على أمور يراها غابت فيقول (**أشعار وأهازيج، والعرضات التي تقام في كل المناسبات والأفراح والحفلات، للصوت غناء وطرب، ولقرع الطبول والدفوف إيقاع ورقصة حياة وسعادة) [مقال من غيب البسمة؟، الأمير خالد الفيصل، صحيفة الوطن]**.

ويقول: (**من علم الطفل أن مشاهدة التلفزيون السعودي حرام لأن فيه موسيقى؟**) **[المصدر السابق]**.

تذكرت هذه الجمل التي تكشف توهم الأمير خالد الفيصل أن المعازف والرقصات والغناء والطرب والموسيقى هي سبب البسمة والسعادة، تذكرت ذلك وأنا أشاهده يغلق حلقات تحفيظ القرآن وقلت في نفسي: (القرآن لا يغيب البسمة يا سمو الأمير..).

ابوعمر
غرة ذي الحجة ١٤٣١هـ

مصائر التيارات غير الإسلامية

مرّ المجتمع السعودي بثلاثة مدارس فكرية كان لها دوي وأعلن أصحابها بالانتساب إليها وهي (القومية، الحداثة، الليبرالية).

فكيف فهم المجتمع هذه المدارس الثلاث؟

الملاحظ للواقع يجد أن كل مدرسة تمر بثلاث مراحل: مرحلة الغموض، ثم مرحلة الجاذبية، ثم مرحلة التنميط.

ففي مرحلة الغموض يكثر تساؤل الناس عن هذه المدرسة الفكرية ماذا تعني؟ ويكثر –أيضاً– من يستعرض و "يشخّص" بالانتساب إليها باعتبارها آخر صرعة فكرية.

وفي مرحلة التنميط حين يضعها المجتمع السعودي في سجن نمطي معين يكثر التهرب عنها، والتربص في انتظار بديل فكري جديد.

فالقومية فهمها المجتمع على أنها (علمنة)، والحداثة فهمها المجتمع على أنها (تجديف لفظي)، والليبرالية فهمها المجتمع على أنها (انحلال أخلاقي).

وتلاحظ أنه كلما تشوهت مدرسة فكرية انتقلوا إلى مدرسة أخرى، فكثير ممن كانوا قوميين في الثمانينات، صاروا حداثيين في التسعينات، ثم صارو الآن ليبراليين بعد سبتمبر! والله أعلم ماذا سيكونون بعد البيعة القادمة؟!

يحق لنا الآن أن نطرح التساؤل: من المسؤول عن هذه الصور النمطية التي تعطى للتيارات الفكرية؟ من المسؤول عن سجنها في هذه القوالب السلبية؟ لماذا تفشل لدينا المدارس الفكرية (غير الإسلامية) في زمن قياسي بمجرد أن تحتمي اللعبة؟

الإجابة المحتملة تقول (إن الإسلاميين هم الذين يشوهون هذه التيارات الفكرية) فمامدى دقة هذا التفسير ياترى؟

الحقيقة أنه لم يعد هناك أي جدل حول أن (الإعلام) هو اللاعب الرئيس في تشكيل الصور النمطية الاجتماعية، وفي بيئتنا السعودية طيلة العقود الماضية تم تسليم كابينة الإعلام للتيارات (غير الإسلامية)، هذا يعني أن التيارات (غير الإسلامية) تملك الحديث المباشر كل صباح لرجل الشارع العادي يومياً.

ومع ذلك كله فقد تشكل الوعي الاجتماعي لدينا تجاه التيارات (غير الإسلامية) بعكس المسار الذي يريده أصحاب هذه التيارات كلياً، حتى أصبحو يتحرجون من هوياتهم الفكرية.

طالما أن التيارات (غير الإسلامية) تملك الإعلام، وطالما أن خصومهم يعانون من أن ردودهم عليهم مصيرها سلة المهملات. فكيف اقتنع الناس إذن بهذه الصور النمطية؟ وكيف أفلست الآلة الإعلامية الهائلة في بناء الصورة التي تريد؟

لو سألت أي شخص في مجتمعنا ماهي الليبرالية؟ لقال لك مباشرة: (هذولا ناس يبون الحرمة تسوق، والبنات يدرسن معانا بالجامعة) هذا كل مايعرفه الفرد السعودي عن الليبرالية!

يا إلهي .. مع كل ذلك الانفراد بوسائل الاتصال الكبرى، ومع ذلك هذا كل مايعرفه الانسان البسيط عن الليبرالية !

خذ بالمقابل أمراً آخر: حاولت التيارات (غير الإسلامية) عبر إمبراطوريتها الإعلامية أن تصور علماء الشريعة بأنهم تكفيريون ومتنطعون ومتخلفون، فمالذي حدث؟ الذي حدث أن الطلب الجماهيري على استفتاء المشايخ يزداد!

ياسبحان الله، الإعلام يشوههم، والناس تزداد في استفتائهم في دقائق الأمور!

هذا يعني إذن أن هناك أمراً آخر، أقوى بكثير من التأثير الإعلامي، وهو بكل اختصار (الواقع الموضوعي) ذاته.

فالقوميون طبلوا للقومية، وأنها لاتتعارض مع الدين، لكن الواقع الموضوعي لمواقفهم لم يكن يسعفهم. والحداثيون طبلوا للحداثة وأنها لاتتعارض مع الشريعة، لكن الواقع الموضوعي لقصائدهم لم يكن يسعفهم، والليبراليون طبلوا لليبرالية وأنها لاتتعارض مع الإسلام، لكن الواقع الموضوعي لكتاباتهم ومنتدياتهم لم يكن يسعفهم.

لدرجة أن الثكنة الليبرالية التلفزيونية وهي (برنامج طاش ماطاش) حين أرادت أن تعرض الليبرالية السعودية لم تستطع أن تخفي مركزية "الشراب المحرم" في هذه البيئة الفكرية!

و (طاش ماطاش) ليس برنامجاً تصوغه إذاعة القرآن الكريم، بل هو برنامج ليبرالي محارب، ومع ذلك فالواقع الموضوعي فرض عليه ماجرى.

وحين تشاهد الاستضافات التلفزيونية الأخيرة لعدد من رموز الليبرالية الذين صارو الآن ينتقدون التصنيف، ويقولون إن مصطلح التيار الليبرالي خطأ، بل نحن جميعاً إسلاميون (كم أشعر بغصة من كونهم محرجون من تيارهم لدرجة التنصل منه) فإنك لاتستطيع إلا أن تتوقع أننا نشهد اليوم اللحظات الأخيرة لاحتضار الليبرالية.

نعم .. التنكر الأخير لمصطلح الليبرالية مؤشر عميق على أننا بدأنا فعلاً فصل الخريف الليبرالي.

حسناً .. كانت القومية والحداثة والليبرالية جذابة في بدايتها، ثم بعد تشوهها الاجتماعي، تهرب حملة راياتها عنها.

الليبرالية الآن تمر بأحلك أيامها من حيث "سمعتها الفكرية" ، فالمجتمع السعودي وضعها الآن في خانة (النسونجية)، ولن يصلح العطار ما أفسد الدهر.

بل يمكن لنا دراسة وتحليل تقييمات الكتاب السعوديين الذين خارج منظومة السلفية/الليبرالية .. تأمل معي مثلاً ماكتبه الكاتب السعودي المعروف "خالد السليمان" وهو كاتب غير محسوب على الإسلاميين، حيث يقول في عموده (المشروع الليبرالي ليس أكثر من مشروع انثوي يبدأ بالمرأة، وينتهي بالمرأة، مرورا بالمرأة) [عكاظ، ٢٦مايو٢٠٠٧]

خذ ملاحظة أخرى للدكتور محمد الأحمري، وهو مفكر يتمتع بعلاقة غير ودودة مع السلفية، حيث يقول أن الليبرالية السعودية هي (ليبرالية الجزء السفلي من الإنسان).

من المسؤول عن وضع الليبرالية في (قفص الإباحية)، من المسؤول عن تصوير الليبرالي (زير نساء) .. الواقع الموضوعي لليبراليين يفسر كل ذلك، فرواياتهم فاحشة، ومنتدياتهم صور فتيات نصف عاريات، ومقالاتهم كلها حول التخفيف من قيود الوصول للمرأة. فكيف تلوم الناس والمفكرين والكتاب غير الليبراليين على تصويرهم بهذه الصورة؟!

هناك الآن من الليبراليين من يحاول استنقاذ هذه الصورة، ويقول المجتمع فهمنا خطأً، هل سينجح هؤلاء في ستر الملابس التي خلعوها؟ ربما .. لكني غير متفائل .

إذن .. ماهي المدرسة الجديدة التي تمر بنفس الدور؟ أعني ماهي المدرسة الفكرية (غير الإسلامية) التي تعيش جاذبية الآن، ثم ستتشوه اجتماعياً لاحقاً؟

لست متأكداً.. لكن أعتقد أنها مدرسة (الوطنية) التي تجعل الشيعي والصوفي والعلماني والاسلامي كلهم إخوة على أرضية (المشتركات الوطنية)، وتجعل أساس شرعية أعمالها هي (خدمة الوطن) وليس (خدمة الإسلام)، وتجعل مدار ولائها هو (الأرض) وليس (الله)، وتجعل الشيعي السعودي الذي يستغيث بالحسين خير وأقرب إليها من البنغلاديشي الموحّد الذي يفرد الله بدعائه.

وهل ستمر هذه المدرسة الفكرية بنفس الدور الذي مرت به التيارات (غير الإسلامية)؟ بمعنى هل ستعيش مرحلة (جاذبية) يليها مرحلة (تشوه اجتماعي)؟

الحقيقة أن هذا يعتمد أولاً وقبل كل شئ على الواقع الموضوعي لأصحاب المدرسة الوطنية، فإن قدمو ولاء الإسلام على ولاء الأرض فسيحتفظون باحترامهم، وإن قدّموا ولاء الأرض على ولاء الإسلام فسيبقى المجتمع السعودي –ولله الحمد– لايعدل بدينه بديلاً.

لذلك .. كم أتمنى من الشاب المتطلع للثقافة أن لايضيع عمره في تجربة مماثلة، وليختصر الوقت من الآن، وليعرف أن هذه الأمة بعامة، وهذا المجتمع السعودي بخاصة؛ رهانه على الإسلام، ولن يبتغي غير الإسلام طريقاً، وكل مدرسة فكرية تخرج عن مرجعية الوحي فمهما استطاعت تسويق منتجاتها لفترة وجيزة، فما اقرب أن تجدها على الرفوف قد انتهت صلاحيتها.

فاختصر على نفسك الطريق ..

ابوعمر - ربيع الأول ١٤٣١هـ

الساعة الخامسة والسابعة صباحاً

ثمة مشهد لا أمل من التأمل فيه، ولا أمل من حكايته لأصحابي وإخواني، هو ليس مشهداً طريفاً، بل والله إنه يصيبني بالذعر حين أتذكره، جوهر هذا المشهد هو بكل اختصار "المقارنة بين الساعتين الخامسة والسابعة صباحاً" في مدينتي الرياض التي أعيش فيها، أقارن تفاوت الحالة الشعبية بين هاتين اللحظتين اللتين لايفصل بينهما إلا زهاء مائة دقيقة فقط..

في الساعة الخامسة صباحاً، والتي تسبق تقريباً خروج صلاة الفجر عن وقتها تجد طائفة موفقة من الناس توضأت واستقبلت بيوت الله تتهادى بسكينه لأداء صلاة الفجر، إما تسبح وإما تستاك في طريقها ريثما تكبر (في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه).. بينما أمم من المسلمين أضعاف هؤلاء لايزالون في فرشهم، بل وبعض البيوت تجد الأم والأب يصلون ويدعون فتيان المنزل وفتياته في سباتهم..

حسناً .. انتهينا الآن من مشهد الساعة الخامسة.. ضعها في ذهنك ولننتقل لمشهد الساعة السابعة .. ما إن تأتي الساعة السابعة –والتي يكون وقت صلاة الفجر قد خرج– وبدأ وقت الدراسة والدوام.. إلا وتتحول الرياض وكأنما أطلقت في البيوت صافرات الإنذار.. حركة موارة.. وطرقات تتدافع.. ومتاجر يرتطم الناس فيها داخلين خارجين يستدركون حاجيات فاتتهم من البارحة.. ومقاهي تغص بطابور المنتظرين يريدون قهوة الصباح قبل العمل..

أعرف كثيراً من الآباء والأمهات يودون أن أولادهم لو صلو الفجر في وقتها، يودون فقط، بمعنى لو لم يؤدها أبناؤهم فلن يتغير شئ، لكن لو تأخر الابن "دقائق" فقط، نعم أنا صادق دقائق فقط عن موعد الذهاب لمدرسته فإن شوطاً من التوتر والانفعال يصيب رأس والديه.. وربما وجدت أنفاسهم الثائرة وهم واقفون على فراشه يصرخون فيه بكل ما أوتو من الألفاظ المؤثرة لينهض لمدرسته..

هل هناك عيب أن يهتم الناس بأرزاقهم؟ هل هناك عيب بأن يهتم الناس بحصول أبنائهم على شهادات يتوظفون على أساسها؟ أساس لا .. طبعاً، بل هذا شئ محمود، ومن العيب أن يبقى الإنسان عالة على غيره..

لكن هل يمكن أن يكون الدوام والشهادات أعظم في قلب الإنسان من الصلاة؟

لاحظ معي أرجوك: أنا لا أتكلم الآن عن "صلاة الجماعة" والتي هناك خلاف في وجوبها (مع أن الراجح هو الوجوب قطعاً)، لا.. أنا أتكلم عن مسألة لاخلاف فيها عند أمة محمد طوال خمسة عشر قرناً، لايوجد عالم واحد من علماء المسلمين يجيز إخراج الصلاة عن وقتها، بل كل علماء المسلمين يعدون إخراج الصلاة عن وقتها من أعظم الكبائر..

بالله عليك .. أعد التأمل في حال ذينك الوالدين اللذين يلقون كلمة عابرة على ولدهم وقت صلاة الفجر "فلان قم صل الله يهديك" ويمضون لحال شأنهم، لكن حين يأتي وقت "المدرسة والدوام" تتحول العبارات إلى غضب مزمجر وقلق منفعل لو حصل وتأخر عن مدرسته ودوامه..

بل هل تعلم يا أخي الكريم أن أحد الموظفين –وهو طبيب ومثقف– قال لي مرة: إنه منذ أكثر من عشر سنوات لم يصل الفجر إلا مع وقت الدوام.. يقولها بكل استرخاء.. مطبِق على إخراج صلاة الفجر عن وقتها منذ مايزيد عن عشر سنوات.

وقال لي مرة أحد الأقارب إنهم في استراحتهم التي يجتمعون فيها، وفيها ثلة من الأصدقاء من الموظفين من طبقة متعلمة، قال لي: إننا قمنا مرة بمكاشفة من فينا الذي يصلي الفجر في وقتها؟ فلم نجد بيننا إلا واحداً من الأصدقاء قال لهم إن زوجته كانت تقف وارءه بالمرصاد (هل تصدق أنني لازلت أدعوا لزوجته تلك)..

يا أللّه .. هل صارت المدرسة –التي هي طريق الشهادة– أعظم في قلوبنا من عمود الإسلام؟!

هل صار وقت الدوام –الذي سيؤثر على نظرة رئيسنا لنا– أعظم في نفوسنا من ركن يترتب عليه الخروج من الإسلام؟

هذه المقارنة الأليمة بين الساعة الخامسة والسابعة صباحاً هي أكثر صورة محرجة تكشف لنا كيف صارت الدنيا في نفوسنا أعظم من ديننا ..

بل وانظر إلى ماهو أعجب من ذلك .. فكثير من الناس الذي يخرج صلاة الفجر عن وقتها إذا تأخر في دوامه بما يؤثر على وضعه المادي يحصل له من الحسرة في قلبه بما يفوق مايجده من تأنيب الضمير إذا أخرج الصلاة عن وقتها..

كلما تذكرت كارثة الساعة الخامسة والسابعة صباحاً، وأحسست بشغفنا بالدنيا وانهماكنا بها بما يفوق حرصنا على الله ورسوله والدار الآخرة؛ شعرت وكأن تالياً يتلوا علي من بعيد قوله تعالى في سورة التوبة:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ)

ماذا بقي من شأن الدنيا لم تشمله هذه الآية العظيمة؟!

هل بلغنا هذه الحال التي تصفها هذه الآية؟! ألم تصبح الأموال التي نقترفها والتجارة التي نخشى كسادها أعظم في نفوسنا من الله ورسوله والدار الآخرة؟!

كيف لم يعد يشوقنا وعد ربنا لنا في سورة النحل إذ يقول (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ)

أخي الغالي.. حين تتذكر شخير الساعة الخامسة صباحاً، في مقابل هدير السابعة صباحاً، فأخبرني هل تستطيع أن تمنع ذهنك من أن يتذكر قوله تعالى في سورة الأعلى (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)..

قال لي أحد أهل الأهواء مرة "المشايخ يمارسون التهويل في تصوير الخلل الديني في مجتمعنا، ولو ركزو على الكبائر لعلموا أن أمورنا الدينية جيدة، والمشكلة عندنا في دنيا المسلمين فقط"

يا ألله .. كلما وضعت عبارته هذه على كفة، ووضعت الساعتين الخامسة والسابعة صباحاً على كفة، طاشت السجلات، وصارت عبارته من أتفه الدعاوى ..

المقارنة بين مشهدي الساعة الخامسة والسابعة صباحاً هي أهم مفتاح لمن يريد أن يعرف منزلة الدنيا في قلوبنا مقارنة بدين الله.. لا أتحدث عن إسبال ولا لحية ولاغناء (برغم أنها مسائل مهمة) أتحدث الآن عن رأس شعائر الإسلام .. إنها "الصلاة" .. التي قبضت روح رسول الله وهو يوصي بها أمته ويكرر "الصلاة..الصلاة.." وكان ذلك آخر كلام رسول الله كما يقول الصحابي راوي الحديث..

بل هل تدري أين ماهو أطم من ذلك كله، أن كثيراً من أهل الأهواء الفكرية يرون الحديث عن الصلاة هو شغلة الوعاظ والدراويش والبسطاء! أما المرتبة الرفيعة عندهم فهي مايسمونه "السجال الفكري، والحراك الفكري" وهي ترهات آراء يتداولونها مع أكواب اللاتيه.. يسمون الشبهات وتحريف النصوص الشرعية والتطاول على أئمة أهل السنة "حراك فكري"!

الصلاة التي عظمها الله في كتابه وذكرها في بضعة وتسعين موضعاً تصبح شيئاً هامشياً ثانوياً في الخطاب النهضوي والاصلاحي .. ألا لا أنجح الله نهضة وإصلاحاً تجعل الصلاة في ذيل الأولويات ..

المهم.. لنعد لموضوعنا.. فمن أراد أن يعرف منزلة الدنيا في القلوب مقارنة بدين الله فلاعليه أن يقرأ النظريات والكتابات والأطروحات.. عليه فقط أن يقارن بين الساعتين "الخامسة والسابعة صباحاً" وسيفهم بالضبط كيف صارت الدنيا أعظم في نفوسنا من الله جل جلاله..

وتأمل يا أخي الكريم في قوله تعالى (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا)..

بل تأمل في العقوبة التي ذكرها جماهير فقهاء المسلمين لمن أخرج الصلاة عن وقتها حيث يصور هذا المذهب الإمام ابن تيمية فيقول:

(وسئل شيخ الاسلام ابن تيمية عن أقوام يؤخرون صلاة الليل إلى النهار ، لأشغال لهم من زرع أو حرث أو جنابة أو خدمة أستاذ ، أو غير ذلك، فهل يجوز لهم ذلك ؟ فأجاب: لا يجوز لأحد أن يؤخر صلاة النهار إلى الليل، ولا يؤخر صلاة الليل إلى النهار لشغل من الأشغال، لا لحصد، ولا لحرث، ولا لصناعة، ولا لجنابة، ولا لخدمة أستاذ، ولا غير

ذلك؛ ومن أخرها لصناعة أو صيد أو خدمة أستاذ أو غير ذلك حتى تغيب الشمس وجبت عقوبته، بل يجب قتله عند جمهور العلماء بعد أن يستتاب، فإن تاب والتزم أن يصلي في الوقت ألزم بذلك ، وإن قال : لا أصلي إلا بعد غروب الشمس لاشتغاله بالصناعة والصيد أو غير ذلك ، فإنه يقتل) [الفتاوى، ٢٨/٢٢]

عزيزي القارئ .. هل لازال هناك من يقول أن "مشكلتنا هي أننا عظمنا الدين وأهملنا دنيا المسلمين" .. بل هل قائل هذا الكلام جاد؟! وأي دين بعد عمود الإسلام؟!

حين تجد شخصاً من المنتسبين للتيارات الفكرية الحديثة يقول لك (مشكلة المسلمين في دنياهم لا في دينهم) فقل له فقط: قارن بين الساعة الخامسة والسابعة صباحاً وستعرف الحقيقة..

ابوعمر - صفر ١٤٣١هـ

هل مجتمعنا خير من مجتمع رسول الله؟

أعرف أحد المنتسبين للثقافة إذا طرح أي فكرة في مقالاته لابد أن يذيلها بمقولة (مع الالتزام طبعاً بضوابط الشريعة)، ولايمل من تكرار هذه الجملة بشكل يطمئن القارئ، لكنه في المجالس الفكرية المحدودة يعلن صراحة بأنه كما يقول: (يارجل لاحل لنا إلا بالعلمانية، وتحويل الدين إلى خيار شخصي محترم فقط، كل المجتمعات المعاصرة لم تتقدم إلا بالعلمانية، الدين شئ رائع ونبيل ولكنه يجب أن يبقى ممارسة ذاتية).

تأملت في هذا التناقض الجذري بين الأسلمة في المقالات العامة، والعلمنة في المجالس الخاصة؛ وقلت لصاحبي: أنا لا أشك أن هذه حالة (نفاق فكري)!

فقال لي صاحبي وهو رجل في غاية الطيبة: كيف تدمغه بوصف النفاق وهو يقول لا إله إلا الله ويصلي ويصوم ويتصدق؟!

لا أنكر أنني تهيبت وسكتّ.

مضى زمن على هذه القصة وصرت بعدها أهتم كثيراً بمراقبة طريقة استعراض القرآن للشخصية المنافقة؟ وماهي مشاعرها الداخلية وكيف تتحرك داخل المجتمع المسلم؟

كم كنت مندهشاً حين رأيت القرآن يتحدث عن المنافقين بأنهم يصلون ويتصدقون ويذكرون الله!

فأشار القرآن إلى كون المنافقين يصلون، بل إلى أنهم يذكرون الله، كما في قوله تعالى (**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلا قَلِيلا)[النساء: ١٤٢]**

يا ألله المنافق يصلي .. بل ويذكر الله قليلاً .. ومع ذلك لم يخرجه ذلك عن وصف النفاق!

وأشارت الآية الأخرى إلى صلاة المنافق بقوله تعالى (**وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلا وَهُمْ كُسَالَى**)**[التوبة: ٥٤]**.

وأشار القرآن –أيضاً– إلى كون المنافقين يتصدقون كما قال تعالى (**قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ**) **[التوبة:٥٣]**

بل إن النبي –صلى الله عليه وسلم– شرح كيف أن من ابتلاه الله بنفاق في قلبه يجد مشقة كبيرة في الصلاة ولذلك يجعلها في أواخر الوقت دوماً كما في صحيح مسلم عن أنس بن مالك أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال (**تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس، حتى إذا كانت بين قرنى الشيطان؛ قام فنقرها أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا**)**[صحيح مسلم: ١٤٤٣]**

بالله عليك ألم يرعبك هذا الحديث؟ والله إنه نص مخيف بكل مافي الكلمة من معنى، تأخير الصلاة لآخر وقتها جعلها النبي "صلاة منافق" برغم أنه أخّر العصر لوقت الضرورة وهو وقت تضيف الشمس للغروب، فكيف بمن يطبق على إخراج الصلوات عن أوقاتها؟ اليس ذلك أمارة قوية على أن ثمة نفاقاً خفياً في القلب؟!

بل انظر في أمر أعمق دلالة مما سبق، وهو أن الطائفة التي تهكمت بأصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– وكفرها الله من فوق سبع سماوات؛ كانوا يقولون كما قال تعالى عنهم (**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ** لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ**) **[التوبة:٦٥]**

هؤلاء لم يخطر في بالهم أن الموضوع قد يصل إلى الكفر، لأن القضية عندهم كانت مزاحاً وطرافةً، ولكن مقاييس القرآن تختلف كثيراً عن أوهامنا.

كنت أتصور سابقاً أن "المنافق" يعلم من نفسه أنه منافق! وبالسذاجة تصوري السابق! اكتشفت أن المنافق قد لايعلم بذلك، بل قد يظن نفسه حين أطلق بعض العبارات إنما أطلقها مزاحاً !

وكنت سابقاً أتوهم أن "النفاق" هو قرار يتخذه المرء، فيقرر بأنه سيكون منافق يظهر الإسلام ويبطن الكيد له، كنت أظن النفاق مؤامرة كبرى تتخذ بتخطيط شامل، ولم أتوقع بتاتاً أن النفاق قد يقع في القلب بأمور نعدها في موازيننا من هوامش الأمور!

بالله عليك .. هل تتوقع أن قوماً عاهدوا أنفسهم بأنه إن رزقهم الله مالاً أنهم سيتصدقون به، فلما رزقهم الله، شحّت نفوسهم، فسبب لهم ذلك قيام النفاق في قلوبهم! هل تتصور ذلك؟!
انظر ماذا يقول تعالى:

(**وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ** ** **فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ** فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ**) **[التوبة:٧٥–٧٧]**

انظر .. إنهم قوم يؤمنون بالله لدرجة أنهم عاهدوا ربهم، ولم يفعلوا أكثر من البخل بالمال بعد المعاهدة، ومع ذلك هجم النفاق على قلوبهم بسبب ذلك!

ولم يتأخر الأمر كثيراً .. بل كما عبر القرآن (فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم) !

ومالذي يؤمننا نحن حين نقصر في أمر علمنا تعظيم الله له أن لايعقبنا ذلك نفاقاً في قلوبنا؟ ومالذي يؤمننا حين ننتهك أمراً علمنا حرمته عند الله أن لايعقبنا ذلك نفاقاً في قلوبنا؟!

بل وكيف يأمن أقوام تتلى عليهم آيات الله في "انحطاط الكافر" ، ومع ذلك يتفننون في أظهار عبارات احترام ملل الكفر ومساواتها لغيرها؟! كيف يأمنون أن لايعقبهم ذلك نفاقاً في قلوبهم؟!

وأقوام يرون آيات الله تتلى كلها في التحفظ والاحتياط والتصون في العلاقة بين الجنسين، ومع ذلك يتهورون في إطلاق الانفتاح بين الجنسين، كيف لايأمنون أن يعقبهم ذلك نفاقاً في قلوبهم؟!

وأقوام يرون آيات الله تتلى كلها في تعظيم كمال اهتداء السابقين الاولين، ومع ذلك يطلقون عبارات لايلقون لها بالاً في أن "تجربة السلف لاتلزمنا"، كيف لايأمنون أن يعقبهم ذلك نفاقاً في قلوبهم؟!

وأقوام يرون الله في القرآن يأمر صراحة برد الخلاف والنزاع إلى النص، وهؤلاء يتذرعون بالخلاف في تعطيل النصوص، كيف لايأمنون أن لايعقبهم ذلك نفاقاً في قلوبهم؟!

وأقوام يرون الله في القرآن يأمر صراحة بموالاة المصلحين ومنافاة المضلين، ثم يرددون صبحاً ومساءً بأن كل القضية مجرد خلاف داخل الوطن ويجب ترك الاصطفاف والتحزب والاستقطاب، كيف لايأمنون أن يعقبهم ذلك نفاقاً في قلوبهم؟!

حين رأيت الله تعالى يقول عن رجل بخل بعد أن عاهد على النفقة، هذا كل ماصنع، شح بماله بعد أن عاهد ربه على الصدقة، ومع ذلك يقول الله عنه (فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه) استطعت أن أفهم قلق أصحاب رسول الله من النفاق!

والله العظيم إنني كنت أفهم حديث ابن أبي مليكة المعروف عن قلق الصحابة من النفاق على أن سببه هو "ورع الصحابة" فقط، وهو الحديث الذي يقول فيه ابن أبي مليكة (**أدركت ثلاثين من أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– كلهم يخاف النفاق على نفسه) [صحيح البخاري، ٤٨]**

كنت أقول إن هذا من باب الاحتياط المستحب فقط الذي يصنعه الصحابة، لكن هذه الآية العجيبة (فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم) والتي شاهد الصحابة واقعتها عياناً، وشاهدوا نظيرها؛ هي التي جعلتهم يفهمون النفاق على أنه "**أثر**" لسلوكيات معينة، وليس "**قراراً**" يتخذه المرء! أي أن الإنسان قد يقوم بأقوال أو أفعال فيها مصادمة لكتاب الله تقوده للنفاق وهو لايعلم! وليس بالضرورة أن يكون النفاق "إرادة واعية" .

المهم .. أنني عدت لصاحبي وقلت له إن القرآن صور المنافقين أنهم يصلون ويتصدقون ويذكرون الله ومع ذلك لم يستنقذهم ذلك من ورطة "النفاق".

فسكت صاحبي برهة ثم قال لي: ولكن هل يمكن لنا أن نعرف المنافق؟ أليس المنافق شخص متستر؟ أليس النفاق حالة قلبية لايمكن الاطلاع عليها؟

بصراحة شعرت أن عبارة صاحبي الطيب فيها "ورع" ، لكن هل الأمر شرعاً كما ذكر؟!

لنحاول أن نحلل هذا الورع على ضوء القرآن، لنكتشف هل هو ورع فيكون محموداً، أم هو خور فيكون مذموماً؟

الله تعالى بين صراحة أن بعض المنافقين مستترين لايعرفون، وبعضهم يصرح لبعض الناس لكن لايعلن ذلك، وبعضهم يظهر النفاق فقط من ملامح أفكاره وخطابه، كما يقول تعالى (**وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ، وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ) [محمد: ٣٠]**

فياترى .. كم من خطاب فكري معاصر يجد القارئ في لحن خطابه شُعَباً من النفاق التي لاتحصى؟!

ولذلك كان الصحابة يعرفون بعض المنافقين بأعيانهم بسبب أفكارهم ولحن خطابهم كما صور ذلك كعب بن مالك بعبارة بديعة في حديثه الطويل في صحيح البخاري حين قال:

(فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فطفت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلا مغموصا عليه النفاق، أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء) [البخاري: ٤٤١٨]

لله در العرب ما أبلغ عباراتهم، والمراد أن بعض المنتسبين للاسلام في مجتمع الرسول كانوا "مغموصاً" عليهم النفاق،أي مطعونين ومتهمين بذلك! فإذا كان أصحاب رسول الله يغمصون بعض الناس بالنفاق، فكيف يقال أن وصف النفاق لايمكن إطلاقه لأنه حالة قلبية مستترة؟!

وفي صحيح مسلم في شأن صلاة الجماعة يقول الصحابي (**ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق، أو مريض) [مسلم ١٥١٩]**

فقوله "منافق معلوم النفاق" فرع عن كون الصحابة يعينون آحاد وأعيان المنافقين، وهذا يدل على أن الصحابة لم يكونوا يقولون (إن النفاق حالة قلبية مستترة لايمكن معرفتها)!

بل إن هذه المقولة (أن النفاق حالة قلبية مستترة لايمكن معرفتها) تفضي إلى تعطيل جملة من أحكام القرآن في المنافقين، وسأحاول الإشارة لنماذج من هذه الأحكام القرآنية:

فمن ذلك أن الله أمرنا في موضعين من القرآن، في سورتي التوبة والتحريم، أن "نجاهد المنافقين" كما قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ) [التوبة ٧٣، التحريم٩]

والأمر بجهاد المنافقين فرع عن إمكانية معرفتهم بأعيانهم، ولو كان المنافق لايمكن تعيينه لكان هذا الأمر القرآني عبثاً، حاشا القرآن ذلك.

وكذلك نهانا الله عن الانقسام في الموقف من المنافقين، وأمرنا الله أن نكون كلمة واحدة في مواجهتهم، وغالباً مايكون الانقسام بسبب أن بعض الأخيار يطمع في هداية المنافقين فيقصر في مجاهدتهم، كما قال تعالى:

(فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ) [النساء: ٨٨]

ولو كان المنافقون لايمكن تعيينهم لكان نهي القرآن عن الانقسام إزاءهم عبثاً لامعنى له، حاشا القرآن ذلك.

كما أن القرآن نهى عن الميل لنصائح المنافقين والرضوخ لضغوطهم فقال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ) [الأحزاب: ١]

ونهانا الله عن إرخاء الآذان لهم فقال تعالى:

(وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ) [التوبة: ٤٧]

والمراد أن هناك منظومة أحكام قرآنية تنسق منهج التعامل مع المنافقين، فالقول بأن المنافقين لايمكن تعيينهم يفضي إلى تعطيل هذه الأحكام القرآنية، فانظر إلى هذا الذي يتوهم أنه متورع كيف أفضى به "وهم الورع" إلى تعطيل القرآن!

حسناً .. ماعلاقة كل ذلك بعنوان هذه الخاطرة (هل مجتمعنا خير من مجتمع رسول الله) ؟

الحقيقة أنه مرّ بي حديث في صحيح البخاري فيه أن حذيفة جاء إلى حلقة في المسجد فيها مجموعة من التابعين فقال لهم كما في البخاري:

(عن الأسود قال: كنا في حلقة عبد الله، فجاء حذيفة حتى قام علينا فسلم ثم قال: لقد أنزل النفاق على قوم خير منكم) [البخاري: ٤٦٠٢]

يعني حذيفة أنه إذا كان مجتمع النبي الذي كان الوحي فيه يتنزل، والمعجزات تظهر على يدي رسول الله، ومع ذلك وقع تورط بعض الناس في ذلك المجتمع بالنفاق، فكيف بمجتمعكم؟

إذا كان ذلك في عصر من بعد النبي، فكيف نقول عن عصرنا نحن؟

حقاً .. صدق حذيفة رضي الله عنه .. لقد أنزل النفاق على قوم خير منا.. فكيف نستبعد وجود المنافقين بيننا؟!

ابوعمر - صفر ١٤٣١هـ

التقنية المشتركة بين الطوائف الفكرية

كنت مرة أتأمل الطوائف الفكرية المعاصرة المخالفة لأهل السنة والجماعة، وأحاول أن أستكشف هل يمكن الوصول إلى تعيين "تقنية ذهنية مشتركة" تسببت في خلق الفارق بين كل هذه الطوائف الفكرية وبين أهل السنة؟

بمعنى محاولة لاستخلاص "كلي" -إن وجد طبعاً- يتيح لنا الفهم بشكل أفضل الفارق الجوهري في عملية تشكيل المعرفة بين الطوائف الفكرية وأهل السنة.. فحين نتصفح الجزئيات يمكن أن نصل غالباً إلى كليات دفينة فيها الكثير من الطرافة العلمية ..

حسناً .. ماهي أولاً "النحل الفكرية" المخالفة لأهل السنة والجماعة في نمط فهم الإسلام؟ يمكن القول -بشئ من التجوز طبعاً- أن الطوائف الفكرية المخالفة لأهل السنة والجماعة اليوم هم أربع طوائف:

(العلمانيون، الليبراليون، التنويريون، الإصلاحيون)

وقد لاحظت —وربما غيري لاحظ غير ذلك- أن هذه الطوائف الأربع يجمعها قاسم مشترك فكري واحد، أو آلية فكرية مشتركة؛ هي التي تسببت في مفارقتها لأهل السنة في نمط فهم الإسلام ..

يمكن أن نسمي هذه الميكانيزم العقلي الذي تشتغل بواسطته كل هذه الطوائف الفكرية الأربع : "تجزئة الوحي" .

لماذا أرى أن هذا الجهاز التفسيري (أعني: تجزئة الوحي) هو الذي سيساعدنا بشكل ناجع على فهم هذه الطوائف الفكرية الأربع ؟ الحقيقة أنني أن وجدت هذا المنظار التأويلي (أعني: تجزئة الوحي) يزودني بإجابة منطقية وعقلانية تفسر لي أغلب قسمات تلك التيارات ...

خذ فقط بعض الأمثلة ..

فالطائفة الأولى "العلمانيون" (أعني طبعاً العلمانية المنتسبة للإسلام، وليس العلمانية اللادينية) تجدهم يحفلون كثيراً بنصوص "ابتناء العلوم المدنية على الاجتهاد البشري" ، ولذلك أتحدى كائناً من كان أن يأتي بعلماني عربي لايحفظ عن ظهر قلب حديث التأبير "أنتم أعلم بأمر دنياكم" .. لكنهم ينفرون من نصوص تحكيم الشريعة في الأمور المنصوصة ..

فتجده أخذ بعض الشريعة وترك بعضها، ونتيجة لكونه أخذ بعض الشريعة يصنع لتفسه راحة ضمير بأنه ولله الحمد منتسب للإسلام، وأنه ليست المشكلة في الإسلام وإنما في الإسلاميين الرجعيين !

والطائفة الثانية "الليبراليون" تجدهم يحفلون كثيراً بأي نصوص شرعية تتحدث عن الحريات العامة، ومشاركة المرأة في المجتمع .. لكنهم يتبرمون بأي نصوص قرآنية أو نبوية تأمر بالنهي عن المنكر، أو معاقبة المخالف للشريعة، أو أي نص قرآني في إقصاء المخالف ..

وتجدهم حين يبثون تباريحهم بين بعضهم.. يقولون لأنفسهم نحن معجبون جداً بالاسلام، والإسلام دين حضاري، لكن المشكلة في الإسلامويين الإقصائيين!

والطائفة الثالثة "التنويريون" تجدهم يتغنون كثيراً بنصوص العمران المادي للدنيا واستفادة النبي مما عند الأمم الأخرى، ولاتجد تنويرياً إلا وهو يبدأ حديثه ويختمه بآية "واستعمركم فيها" .. لكنهم يتضايقون من نصوص تعظيم التوحيد (توحيد الشعائر وتوحيد التشريع) وأنه أعظم المطالب الإلهية، ونصوص "وسيلية العلوم المدنية" وأنها وسيلة لإظهار الهدى ودين الحق على الدين كله فتحمد بقدر ما أدت لغايتها، ونصوص التزهيد في الدنيا بالنسبة للآخرة ..

فإذا تحدثوا عن الإسلام قالوا: الإسلام دين الحضارة، ولامشكلة فيه، وإنما المشكلة في العقلية السلفية المتحجرة!

والطائفة الرابعة هم "الإصلاحيون" –والحق يقال أنهم أشرف وأرفع الطوائف السابقة وأقربهم إلى الإسلام– وهؤلاء الإصلاحيين يصاب أحدهم بلذة اصطلام صوفي حين تتلى عليه آيتي الشورى، وآيات مقاومة موسى لاستبداد فرعون، وإنكار شعيب على قومه مظالم الأموال، وكل الاصلاحيين ينقلبون محدّثين نيسابوريين يروون لك حديث "سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى إمام جائر فأنكر عليه فقتله" ..

لكنهم ينفرون نفوراً شديداً من النصوص المعظمة للعقيدة، والفروع الفقهية، ويرون فيها تشتيتاً للتركيز على القضايا الحيوية للمجتمع، وتتنغص سعادتهم كلياً إذا سمعوا آية "أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم"، ويتهكمون ببجاحة مدهشة ضد أحاديث "البخاري ومسلم" في تحريم الخروج المسلح، ووجوب الطاعة بالمعروف.

فانظر .. كيف أن العلمانيين اختزلوا الإسلام في حرية الاجتهاد المدني، والليبراليين اختزلوا الإسلام في الحريات العامة، والتنويريين اختزلوا الإسلام في قضايا الحضارة والعلوم المدنية، والاصلاحيين اختزلوا الإسلام في الإنكار السياسي.

فهؤلاء كلهم تجد غالب ما يثبتونه ويريدونه أنه من الإسلام فعلاً، فالمشكلة ليست فيما يطلبون، وإنما المشكلة فيما ينفون من تشريعات الإسلام!

وأهل السنة والجماعة لهم منهج مغاير وهو "استيعاب الوحي" أي استيعاب خلاصة توازنات النصوص، فتجدهم أخذوا بقاعدة ابتناء العلوم المدنية على الاجتهاد البشري، لكن وازنوها بقاعدة تحكيم الشريعة في المنصوص.

وأخذوا بقاعدة الحريات العامة، لكنهم وازنوها بقاعدة الإنكار والاحتساب.

وأخذوا بقاعدة دور المرأة في الحياة العامة، لكنهم وازنوها بقاعدة التحفظ والاحتياط في العلاقة بين الجنسين.

وأخذوا بقاعدة وجوب السعي لامتلاك الحضارة والمدنية، لكنهم وازنوها بقاعدة أولوية التوحيد والفرائض، وقاعدة التزهيد في الدنيا مقابل الآخرة.

وأخذوا بقاعدة الإنكار السياسي العلني، لكنهم وازنوها بقاعدة تحريم الخروج المسلح، ووجوب الطاعة بـ"المعروف" .

كلما تأملت الفرق بين تقنية "تجزئة الوحي" .. ومنهج "استيعاب الوحي" تكشف لي من جديد اختراق هذا الفارق لأدق تفاصيل الفروق بين الطوائف الفكرية وبين أهل السنة ..

كم هو طريف .. حين تذكرت أن هذا التقنية (تجزئة الوحي) لاتقدم إجابة على سؤال "الطوائف الفكرية المعاصرة" فقط، بل حتى "الطوائف العقدية التراثية" ستجد أن هذا التقنية هي حجر الرحى في بنائها المعرفي:

فالمخالفون لأهل السنة في باب الصفات الإلهية مثلاً، تجد فيهم "المعطلة" (المعتزلة والأشاعرة والماتريدية) وتجد جوهر إشكالهم هو أنهم أخذوا بنصوص التنزيه وتركوا نصوص الإثبات، و"المجسمة" أخذوا بنصوص الإثبات وتركوا نصوص التنزيه .. لكن "أهل السنة" أخذوا بكلا المعطيين الشرعيين انعكاساً لمبدئهم في "استيعاب الوحي".

والمخالفون لأهل السنة في باب القدر، تجد فيهم "القدرية" (=النفاة) وهؤلاء أخذوا بنصوص الاختيار والإرادة البشرية وتركوا نصوص الإرادة الإلهية، وفيهم "الجبرية" وهؤلاء أخذوا بنصوص الإرادة الإلهية وتركوا نصوص الإرادة البشرية .. ولكن أهل السنة أخذوا بكلا المعطيين الشرعيين.

وهكذا بقية أبواب العقيدة والتصورات في ذات الله والغيبيات، وفي استخلاص كلي رائع للإمام ابن تيمية حدد فيه هذه المعالم .. ففي العقيدة الواسطية الشهيرة لما ذكر نصوص القرآن، ثم نصوص السنة، في إثبات الصفات؛ عقّب عليها بتلخيص مكثف رائع لموقف أهل السنة والجماعة في "خمسة أبواب عقدية" يعتمد هذا التخليص على مرتكز ضمني وهو الفرق بين "تجزئة الوحي" و "استيعاب الوحي" .. يقول ابوالعباس ابن تيمية في الموضع المشار إليه:

(بل أهل السنة هم الوسط في فرق الأمة، كما أن الأمة هي الوسط في الأمم، فهم وسط في باب صفات الله سبحانه وتعالى بين أهل التعطيل الجهمية وأهل التمثيل المشبهة. وهم وسط في باب أفعال الله بين الجبرية والقدرية وغيرهم. وفي باب وعيد الله بين المرجئة والوعيدية من القدرية وغيرهم. وفي باب أسماء الإيمان والدين بين الحرورية والمعتزلة وبين المرجئة والجهمية. وفي أصحاب رسول الله بين الرافضة والخوارج).

لو حاولت أن تفهم سر هذا التوسط في هذه الأبواب العقدية الخمسة، ومالذي أملى على بقية الفرق مساراتها العقدية، لاكتشفت أنك تعود إلى قضية الفارق بين "تجزئة واستيعاب الوحي" .

المهم .. نعود إلى طوائفنا الفكرية المعاصرة (العلمانيون والليبراليون والتنويريون والاصلاحيون) .. ثمة ملاحظة لاحظتها فيهم جميعاً .. وهي ظاهرة "الإيمان المشروط" .. فهم مؤمنون بالاسلام، ومؤمنون بالوحي، بل بعضهم سيندهش لو شككت في إيمانه! لكنهم كلهم تقريباً يؤمنون بالنص القرآني أو النبوي الذي ينسجم فقط مع منظومتهم الفكرية (الآيديولوجية) .. ويتسلطون بالمكابرة التأويلية على كل نص يهدد هرم أولوياتهم الفكرية ..

الواحد منهم إذا ناقشته وذكرت نصاً ينسجم مع مايريد تراه متهللاً مستبشراً يستزيدك، فإذا ذكرت نصاً إلهياً لاينسجم مع منظومته تغير ذلك التعامل، أي إزراء بالله سبحانه وتعالى أن يجعل المخلوق حكم خالقه رهن هواه ومنظومته الفكرية؟! سبحان الله .. ألهذه الدرجة يضمر تعظيم الله في القلوب؟!

أليس هذا "الإيمان المشروط" يشبه حال ذلك الفريق الذي حكى الله سبحانه نمط تعاملهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم حيث يقول تعالى:

(وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ*وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ) [سورة النور: ٤٨-٤٩]

أليس هذا "الإيمان المشروط" يشبه –أيضاً– حال تلك الطائفة التي حكى الله مقالتها:

(يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ، وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا) [المائدة: ٤١]

مافرق هذه الحال عن تلك الحال؟!

تجزئة الوحي .. ليست ظاهرة جديدة بتاتاً .. وإنما هي ظاهرة كشف الوحي لنا عنها مبكراً، حين قال تعالى:

(أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ) [البقرة:٨٥]

(وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلا) [النساء:١٥٠]

على أية حال .. يبدوا لي شخصياً أن "تجزئة الوحي" هو المنهج الفكري الذي قاد الطوائف الفكرية المعاصرة إلى مخالفتها لأهل السنة والجماعة في فهم الإسلام .. وقد امتحن الله وابتلى "أهل العلم" هل يسعون في مكافحة حركات "تجزئة الوحي" .. أم يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى من بعد مابينه سبحانه للناس في الكتاب ؟!

والله أعلم

ابوعمر

رمضان – ١٤٣٠هـ

سطوة القرآن

الحمدلله وبعد،،

من أعجب أسرار القرآن وأكثرها لفتاً للانتباه تلك السطوة الغريبة التي تخضع لها النفوس عند سماعه .. (سطوة القرآن) ظاهرة حارت فيها العقول ..

حين يسري صوت القاري في الغرفة يغشى المكان سكينة ملموسة تهبط على أرجاء ماحولك .. تشعر أن ثمة توتراً يغادر المكان .. كأن الجمادات من حولك أطبقت على الصمت.. كأن الحركة توقفت.. هناك شئ ما تشعر به لكنك لاتستطيع أن تعبر عنه..

حين تكون في غرفتك –مثلاً– ويصدح صوت القارئ من جهازك المحمول، أوحين تكون في سيارتك في لحظات انتظار ويتحول صوت الإذاعة إلى عرض آيات مسجلة من الحرم الشريف .. تشعر أن سكوناً غريباً يتهادى رويداً رويداً فيما حولك..

كأنما كنت في مصنع يرتطم دوي عجلاته ومحركاته ثم توقف كل شئ مرة واحدة.. كأنما توقف التيار الكهربائي عن هذا المصنع مرة واحدة فخيم الصمت وخفتت الأنوار وساد الهدوء المكان..

هذه ظاهرة ملموسة يصنعها (القرآن العظيم) في النفوس تحدث عنها الكثير من الناس بلغة مليئة بالحيرة والعجب..

يخاطبك أحياناً شاب مراهق يتذمر من والده أو أمه .. فتحاول أن تصوغ له عبارات تربوية جذابة لتقنعه بضرورة احترامهما مهما فعلا له .. وتلاحظ أن هذا المراهق يزداد مناقشة ومجادلة لك .. فإذا استعضت عن ذلك كله وقلت له كلمة واحدة فقط: يا أخي الكريم يقول تعالى (**وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا**) [الإسراء:٢٤] رأيت موقف هذا الفتى يختلف كلياً.. شاهدت هذا بأم عيني .. ومن شدة انفعالي بالموقف نسيت هذا الفتى ومشكلته .. وعدت أفكر في هذه السطوة المدهشة للقرآن.. كيف صمت هذا الشاب وأطرق لمجرد سماع قوله تعالى (**وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا**) .. حتى نغمات صوته تغيرت .. يا أللهكيف هزته هذه الآية هزاً ..

حين قدمت للمجتمع الغربي أول مرة قبل ثلاث سنوات اعتنيت عناية بالغة بتتبع قصص وأخبار (حديثي العهد بالإسلام) .. كنت أحاول أن أستكشف سؤالاً واحداً فقط: ماهو أكثر مؤثر يدفع الإنسان الغربي لاعتناق الإسلام؟ (حتى يمكن الإستفادة منه في دعوة البقية)، كنت أتوقع أنني يمكن أن أصل إلى (نظرية معقدة) حول الموضوع، أوتفاصيل دقيقة حول هذه القضية لايعرفها كثير من الناس، وقرأت لأجل ذلك الكثير من التجارب الذاتية لشخصيات غربية أسلمت، وشاهدت الكثير من المقاطع المسجلة يروي فيها غربيون قصة إسلامهم، وكم كنت مأخوذاً بأكثر عامل تردد في قصصهم، ألا وهو أنهم (سمعوا القرآن وشعروا بشعور غريب استحوذ عليهم) هذا السيناريو يتكرر تقريباً في أكثر قصص الذين أسلموا، وهم لايعرفون اللغة العربية أصلاً! إنها سطوة القرآن..

ومن أعجب أخبار سطوة القرآن قصة شهيرة رواها البخاري في صحيحه وقد وقعت قبل الهجرة النبوية وذلك حين اشتد أذى المشركين لما حصروا بني هاشم والمطلب في شعب أبي طالب، فحينذاك أذن النبي –صلى الله عليه و سلم– لأصحابه في الهجرة إلى الحبشة، فخرج أبوبكر يريد الهجرة للحبشة فلقيه مالك بن الحارث (ابن الدغنّة) وهو سيد قبيلة القارَة، وهي قبيلة لها حلف مع قريش، وتعهد أن يجير أبا بكر ويحميه لكي يعبد ربه في مكة، يقول الراوي:

(فطفق أبو بكر يعبد ربه في داره، ولا يستعلن بالصلاة ولا القراءة في غير داره، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجدا بفناء داره وبرز فكان يصلي فيه ويقرأ القرآن، فيتقصّف عليه نساء المشركين وأبناؤهم يعجبون وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلا بكاء لا يملك دمعه حين يقرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين). [البخاري: ٢٢٩٧]

هذه الكلمة (فيتقصّف عليه نساء المشركين وأبناؤهم) من العبارات التي تطرق ذهني كثيراً حين أسمع تالياً للقرآن يأخذ الناس بتلابيبهم .. ومعنى يتقصّف أي يزدحمون ويكتظون حوله مأخوذين بجمال القرآن.. فانظر كيف كان ابوبكر لايحتمل نفسه إذا قرأ القرآن فتغلبه دموعه .. وانظر لعوائل قريش كيف لم يستطع عتاة وصناديد الكفار عن الحيلولة بينهم وبين الهرب لسماع القرآن..

ومن أكثر الأمور إدهاشاً أن الله –جل وعلا– عرض هذه الظاهرة البشرية أمام القرآن كدليل وحجة، فالله سبحانه وتعالى نبهنا إلى أن نلاحظ سطوة القرآن في النفوس باعتبارها من أعظم أدلة هذا القرآن ومن ينابيع اليقين بهذا الكتاب العظيم، ولم يشر القرآن إلى مجرد تأثر يسير، بل يصل الأمر الخرور إلى الأرض .. هل هناك انفعال وتأثر وجداني أشد من السقوط إلى الأرض؟ تأمل معي هذا المشهد المدهش الذي يرويه ربنا جل وعلا عن سطوة القرآن في النفوس:

{قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا} (١٠٧) سورة الإسراء

بالله عليك أعد قراءة هذه الآية وأنت تتخيل هذا المشهد الذي ترسم هذه الآية تفاصيله: قوم ممن أوتو حظاً من العلم حين يتلى عليهم شئ من آيات القرآن لايملكون أنفسهم فيخرون إلى الأرض ساجدين لله تأثراً وإخباتاً .. يا ألله ما أعظم هذا القرآن..

بل تأمل في أحوال قوم خير ممن سبق أن ذكرهم الله في الآية السابقة .. استمع إلى انفعال وتأثر قوم آخرين بآيات الوحي، يقول تعالى:

{أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا}

هذه الآية تصور جنس الأنبياء .. ليس رجلاً صالحاً فقط.. ولا قوم ممن أوتو العلم .. ولا نبي واحد أو نبيين .. بل تصور الآية (جنس الأنبياء) .. وليست الآية تخبر عن مجرد أدب عند سماع الوحي وتأثر يسير به .. بل الآية تصور الأنبياء كيف يخرون إلى الأرض يبكون..

الأنبياء .. جنس الأنبياء .. يخرون للأرض يبكون حين يسمعون الوحي .. ماذا صنع في نفوسهم هذا الوحي العجيب؟

وقوم آخرون في عصر الرسالة ذكر الله خبرهم في معرض المدح والتثمين الضمني في صورة أخاذة مبهرة يقول تعالى:

{وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ} [المائدة:٨٣]

أي شخص يقرأ الآية السابقة يعلم أن هذا الذي فاض في عيونهم من الدموع حين سمعوا القرآن أنه شئ فاق قدرتهم على الاحتمال .. هذا السر الذي في القرآن هو الذي استثار تلك الدمعات التي أراقوها من عيونهم حين سمعوا كلام الله .. لماذا تساقطت دمعاتهم؟ إنها أسرار القرآن..

هذه الظاهرة البشرية التي تعتري بني الإنسان حين يسمعون القرآن ليست مجرد استنتاج علمي أو ملاحظات نفسانية.. بل هي شئ أخبرنا الله أنه أودعه في هذا القرآن .. ليس تأثير القرآن في النفوس والقلوب فقط .. بل –أيضاً– تأثيره الخارجي على الجوارح .. الجوارح ذاتها تهتز وتضطرب حين سماع القرآن.. قشعريرة عجيبة تسري في أوصال الإنسان حين يسمع القرآن .. يقول تعالى:

{ اللَّهُ نزلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ اللَّهِ} [الزمر : ٢٣]

لاحظ كيف يرسم القرآن مراحل التأثر، تقشعر الجلود، ثم تلين، إنها لحظة الصدمة بالآيات التي يعقبها الاستسلام الإيماني، بل والاستعداد المفتوح للانقياد لمضامين الآيات.. ولذلك مهما استعملت من (المحسّنات الخطابية) في أساليب مخاطبة الناس وإقناعهم فلايمكن أن تصل لمستوى أن يقشعر الجلد في رهبة المواجهة الأولى بالآيات، ثم يلين الجلد والقلب لربه ومولاه، فيستسلم وينقاد بخضوع غير مشروط..

هذا شئ يراه المرء في تصرفات الناس أمامه.. جرب مثلاً أن تقول لشخص يستفتيك: هذه معاملة بنكية ربوية محرمة بالإجماع، وفي موقف آخر: قدم بآيات القرآن في تحريم الربا، ثم اذكر الحكم الشرعي، وسترى فارق الاستجابه بين الموقفين؛ بسبب ماتصنعه الآيات القرآنية من ترويض النفوس والقلوب لخالقها ومولاها، تماماً كما قال تعالى (**تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ اللَّهِ**)..

وفي مقابل ذلك كله .. حين ترى بعض أهل الأهواء يسمع آيات القرآن ولايتأثر بها، ولايخضع لمضامينها، ولاينفعل وجدانه بها، بل ربما استمتع بالكتب الفكرية والحوارات الفكرية وتلذذ بها وقضى فيها غالب عمره، وهو هاجر لكتاب الله يمر به الشهر والشهران والثلاثة وهو لم يجلس مع كتاب ربه يتأمله ويتدبره ويبحث عن مراد الله من عباده، إذا رأيت ذلك كله؛ فاحمد الله يا أخي الكريم على العافية، وتذكر قوله تعالى **{فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ} [الزمر: ٢٢]**

وحين يوفقك ربك فيكون لك حزب يومي من كتاب الله (كما كان لأصحاب رسول الله أحزاب يومية من القرآن) فحين تنهي تلاوة وردك اليومي فاحذر يا أخي الكريم أن تشعر بأي إدلال على الله أنك تقرأ القرآن، بل بمجرد أن تنتهي فاحمل نفسك على مقام إيماني آخر؛ وهو استشعار منة الله وفضله عليك أن أكرمك بهذه السويعة مع كتاب الله، فلولا فضل الله عليك لكانت تلك الدقائق ذهبت في الفضول كما ذهب غيرها، إذا التفتت النفس لذاتها بعد العمل الصالح نقص مسيرها إلى الله، فإذا التفتت إلى الله لتشكره على إعانته على العبادة ارتفعت في مدارج العبودية إلى ربها ومولاها، وقد نبهنا الله على ذلك بقوله تعالى (**وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا**) **[النور: ٢١]**

فتزكية النفوس فضل ورحمة من الله يتفضل بها على عبده، فهو بعد العبادة يحتاج إلى عبادة أخرى وهي الشكر والحمد، وبصورة أدق فالمرء يحتاج لعبادة قبل العبادة، وعبادة بعد العبادة، فهويحتاج لعبادة الاستعانة قبل العبادة، ويحتاج لعبادة الشكر بعد العبادة.. وكثير من الناس إذا عزم على العبادة يجعل غاية عزمه التخطيط والتصميم الجازم .. وينسى أن كل

هذه وسائل ثانوية .. وإنما الوسيلة الحقيقية هي (الاستعانة) .. ولذلك وبرغم أن الاستعانة في ذاتها عبادة إلا أن الله أفردها بالذكر بعد العبادة فقال (إياك نعبد وإياك نستعين) .. وهذه الاستعانة بالله عامة في كل شئ، في الشعائر، وفي المشروعات الاصلاحية، وفي مقاومة الانحرافات الشرعية، وفي الخطاب الدعوي، فمن استعان بالله ولجأ إليه فتح الله له أبواب توفيقه بألطف الأسباب التي لايتصورها..

اللهم اجعلنا من أهل القرآن، اللهم أحي قلوبنا بكتابك، اللهم اجعلنا ممن إذا استمع للقرآن اقشعر جلده ثم لان جلده وقلبه لكلامك، اللهم اجعلنا ممن إذا سمع ما أنزل إلى رسولك تفيض عيوننا بالدمع، اللهم اجعلنا ممن إذا تليت عليهم آيات الرحمن خرو سجداً وبكياً، اللهم إنا نعوذ بك ونلتجئ إليك ونعتصم بجنابك أن لاتجعلنا من القاسية قلوبهم من ذكر الله.

والله أعلم

ابوعمر جمادى الأولى ١٤٣١هـ

شجاعة الجبناء

عجزوا عن أن يقولوا للظالم ياظالم.. فجاؤوا للمظلوم وقالوا له أنت الظالم أصلاً..!

مرعوبون أن يقولوا لمن أكل العقارات لم أكلتها .. فجاؤوا للمغلوب على أمره وقالوا: أين فتاواك في تحريم أكل أموال الناس بالباطل (وهل رأيتم عالماً يفتي بضد ذلك أصلاً؟!).

ارتعدت فرائصهم عن أن يقولوا لمن أضاع أموال المسلمين عن بناء التقنية وصناعة التكنولوجيا لماذا أضعتها؟ فجاؤوا لمن ركنت فتاواه جانباً وقالوا له بافتراء بارد: أصلاً طويل العمر يتمزق حسرة على بناء التقنية والمدنية والحضارة لكن الذي أفتيت ضد البرقية والراديو حتى تحطمت مشاعره وترك التقنية والمدنية!

حين أرادوا أن يهمسوا بأن الولايات لاتعطى بناءً على الكفاءة وإنما بناء على النسب نشفت حلوقهم، فاستداروا وقالوا للمولى عليهم: أنتم الذين لاترغبون بالأكفاء لأنكم لم تتجاوبوا مع الفكر السياسي الحديث!

أرداو أن يقولوا لمن بيده القرار لماذا وزاراتنا متخلفة وأداؤها يتردى يوماً بعد يوم، وخصوصاً الصحة والاسكان والتعليم، أين خططكم؟ أين برامجكم؟ لماذا الناس من حولنا يحلون مشكلات وزاراتهم إدارياً بكل سهولة ونحن لانزال نراوح في مكاننا؟ اكتشفوا أن هذه المواجهة كلفتها باهضة، فجاؤوا لضحايا هذه الوزارات وقالوا أنتم الذين لم تتكلموا في الفقه الإسلامي عن طريقة إصلاح الوزارات!

قاموا يريدون أن يجددوا الدين ضد "الفساد السياسي" فاكتشفوا أنفسهم فجأة بين جدران الحاير! فخرجوا يتبسمون للفضائيات ويقولون والله عذراً على سوء الفهم أصلاً يجب أن نجدد الدين من "الفساد السلفي" .. ترى لو كانت السلفية تملك حايراً –ولو حوشاً صغيراً– هل سنرى هذا الفكرة الجديدة؟!

حين أرادوا أن يقولوا لمن بيده القرار لماذا دلقت باب الاختلاط المحرم بين الفتيان والفتيات في كليات الطب وجامعة كاوست ونحوها فأدركهم الهلع حين رأو الرؤوس تتطاير فوق المناصب، فجاؤوا لمن لم تسمع كلمتهم أصلاً وقالوا: أصلاً فتاواكم في تحريم الاختلاط هي التي دفعت من بيده القرار ليتوسع في الاختلاط، ولكل فعل ردة فعل!

بلغت قلوبهم الحناجر حين فكروا أن يقولو "سنصدع بالحق في وجه السلطة" .. فغيروا الفكرة وقالوا "سنصدع بالحق في وجه العلماء" !

يرون المنكرات السلوكية تعج بها البلد وتتزايد يوماً بعد يوم، وقفوا مع أنفسهم مرةً وقفة صدق، وفكروا أن يقولوا لمن بيده القرار: أوقف هذه المنكرات المتزايدة، لكنهم عدلوا عن الفكرة التي همسوا لأنفسهم بها مجرد همس، لأن الجدار له أذن، وقالوا: الحقيقة أن المسؤول عن انتشار المنكرات هو فتاوانا السابقة في سد الذرائع!

إيييييه .. إنها شجاعة الجبناء .. إذا رأيت النظام السياسي، والفريق الليبرالي المحيط به، يبدد الأموال من حواليك، ويشجع الكتبة المنحرفين على التطاول على الشريعة، فمن التهور أن تواجه هؤلاء الذين بيدهم المناصب والإعلام، ومن المزعج أن لاترى نفسك شجاعاً، ولذلك **فالفكرة الذكية تقتضي أن تتشيجع على "أهل السنة"، فاصفع الجدار القصير من باب الشجاعة، وارفع يد التحية للجدار الطويل من باب التعقل والرزانة!**

حين تكون في شركة يتسلط فيها الرئيس على المرؤوسين فيلتهم أموال الشركة ويحابي في المناصب فإن انتقدت الرئيس فستجد نفسك خارج الشركة، وإن سكت فسترى نفسك لادور لك، فالمنطق الرائع الذي يسمى "منطق شجاعة الجبناء" يقتضي أن تبدأ في تلاوة اللوم على الموظفين لأنهم هم العائق أمام تطوير الشركة، والرئيس المسكين يتمنى لو طورها لكن أنتم العائق بسبب ضيق أفقكم ومحدودية تفكيركم وعدم وعيكم بالمتغيرات!
يالشجاعة الجبناء!

ابوعمر

صفر ١٤٣١هـ

عصر دبلجة الواقع

الحمدلله وبعد،،

تستحق هذه المرحلة التي نعيش فيها أن تسمى حقبة (دبلجة الواقع) .. فكتابات الطوائف الفكرية المعاصرة اليوم هي أشبه باستديو فكري يحترف التصوير المضلّل أكثر من كونه خطاب نزيه يختلف معك في التقييم لكنه أمين في نقل الواقع كما هو .. ولذلك فالصور التي ترسمها الطوائف الفكرية عن الواقع الإسلامي كلها –تقريباً– صورٌ قد تمت معالجتها بالفوتوشوب الفكري.. وتدهشني للغاية قدرات الخداع التصويري الذي تمتهنه هذه الطوائف الفكرية في مقالاتها الصحفية وحواراتها الفضائية.

دعونا نقف سوياً على نماذج طريفة من هذه الفبركات التي أنتجتها استديوهات الفكر العربي والمحلي المعاصر:

-تحدثنا الطوائف الفكرية كثيراً عن أن الفتوى المحلية عندنا لديها مغالاة في (سد الذرائع) وأن مشايخنا يسدون كل ذريعة، وأنهم لايعرفون قاعدة فتح الذرائع، وبعضهم يقول: كل ذريعة تتصل بالمرأة فإن الفتوى المحلية تبادر لسدها وتحريمها، فهل هذا التصوير صحيح؟

عدت لواقع الفتوى المحلية فوجدت الذرائع التي فتحها مشايخنا أضعاف أضعاف الذرائع التي سدوها، فكل ذريعة لم تتحقق فيها شروط سد الذريعة فتحوها، خذ فقط بعض الأمثلة:

السفر لبلاد الكفار لعلم أو تجارة فيه ذريعة إلى التأثر بالكفار والنظر المحرم وغير ذلك، ومع ذلك لم يحرمه مشايخنا لأنه عارضته مصلحة راجحة. إدخال الانترنت إلى المنزل فيه ذريعة إلى دخول المواقع الفاسدة، ومع ذلك لم يحرمه مشايخنا للمصلحة الراجحة. ركوب الطالبات في حافلة يقودها رجل فيه ذريعة لفتنته بهن، ومع ذلك لم يحرمه مشايخنا للمصلحة الراجحة، وهكذا أيضاً : اتصال النساء بالبرامج الفضائية والإذاعية للسؤال والاستشارة بأصواتهن علناً فيه ذريعة إلى الفتنة، اتصال العوائل بمطاعم التوصيل السريع وتوصيف البيت لهم وإيصال الطلبات فيه ذريعة للفتنة، ويوجد في كثير من المشاغل النسائية غرف لتبديل الملابس وفيها ذرائع كبيرة لأن يستغلها بعض ضعاف النفوس ولكن مشايخنا لم يجزموا بالتحريم لأنه لم يتبين لهم إلى الآن كثرة إفضائها إلى المفسدة.

ومن الأمثلة العامة أيضاً: السهر في الولائم فيه ذريعة قوية للنوم عن فريضة صلاة الفجر، تأجير الناس الاستراحات وفيها ذريعة لأن يستخدمها بعض المستأجرين في اجتماعات غير مقبولة شرعاً، شراء السيارة للمراهق وفيها ذريعة لأن يستعملها في أغراض مضرة، الخ الخ.

وكل هذه الذرائع السابقة لم يحرمها أهل العلم عندنا، وهكذا لو تتبعت احتمالات الذرائع في تصرفات الناس فإنك لن تنتهي، ومع ذلك فإن فقهاءنا الشرعيين لم يحرموا إلا نزراً يسيراً من الذرائع التي تحققت فيها شروط سد الذريعة، وأما هذه الذرائع التي لاتخلو منها تصرفات الناس وأحوالهم الاجتماعية فإنهم لم يسدوها إما لندرة إفضائها إلى المفسدة، أو لأنه عارضتها مصلحة شرعية راجحة، أو ترتب عليها مشقة على الناس تفوق مايتخوف فيها من الفساد، كما قال ابوالعباس ابن تيمية وهو من أشهر الفقهاء الذين احتفو بقاعدة سد الذرائع (**الذريعة إلى الفساد يجب سدها؛ إذا لم يعارضها مصلحة راجحة**) **[الفتاوى ٤١٩/١٥]**

وأنت إذا تأملت فتاوى أهل العلم عندنا وجدتهم في غاية التوازن في قاعدة سد الذرائع، وصدق الحرص على تحقيق مصالح الناس الدينية والدنيوية، فإذا ترجح وقوع المفسدة ولم يعارضها مصلحة راجحة منعو، وإذا كان الإفضاء إلى المفسدة نادراً، أو كان كثيراً لكن عارضته مصلحة راجحة لم يسدو الذريعة بل فتحوها، فكيف يقال: أنهم يسدون كل ذريعة، أو أن لديهم مغالاة في سد الذريعة، أو أنهم لايعرفون قاعدة فتح الذرائع؟ أظن من يقول ذلك لديه تساهل في سد الذريعة ولذلك يتبرم بمنهج المتوازنين.

حسناً .. لنواصل أمثلة أخرى من فبركات الطوائف الفكرية:

-تحدثنا الطوائف الفكرية بكثرة عن أن أهل السنة والمتبعين لمنهج السلف أشغلوا الناس بمسائل جزئية وصارت حياة الناس كلها نقاش في فتاوى فقهية وتدقيقات عقدية، وهذا بالتالي أبعدنا عن النهضة والحضارة، لما سمعت الطوائف

الفكرية تكرر هذا الكلام قلت في نفسي: الله يهدي الدعاة محتمل أنهم أشغلوا الناس فعلاً؟ وصرت مهتماً برصد نمط الحديث في مجالس الناس، فما رأيت هذا الذي يقولونه، ولا رأيت مسائل عقدية ولا فقهية أشغلت مجالس الناس.

بل رأيت مجالس الناس مشغولة بأخبار القرارات الحكومية، وأسعار العقار، والتشكي من سوء الخدمات البلدية والصحية، وإشاعات الصندوق العقاري، والتحليلات الرياضية، ومزاين الابل، وشاعر المليون، والمسلسلات التركية، والأحداث المحلية مثل أمطار جدة والرياض، والأحداث السياسية كالحوثيين وقراصنة الصومال والانتخابات الأمريكية، وألعاب البلايستيشن وأخواتها، بالإضافة إلى غرائب وعجائب من القصص تبدأ بقولهم (يقولون..) الخ الخ

فلا أدري أين هذه المسائل العقدية والفقهية التي أشغلت الناس؟!

ولما رأيت حمية الطوائف الفكرية لوقت الأمة وحرقتهم على الزمن قلت في نفسي ربما أن هؤلاء المنتسبين للفكر والثقافة مشغولون بمعالي الأمور فعلاً، فلما ذهبت لمواقعهم التي يكتبون فيها على الشبكة رأيت أحاديثهم: توصيات متبادلة بأفلام سينمائية، ومشاهداتهم السياحية، ومقاطع يوتيوب طريفة، وتتبع تفصيلي لأحداث سياسية خارجية لاناقة لهم فيها ولاجمل..

افترض أن العلماء والدعاة أشغلوا الناس بالمسائل الشرعية فوالله إن ذلك خير من إشتغالكم بأخبار الأفلام السينمائية وتحليلاتكم السياسية التي لاثمرة لها! لست أدري أين تلك الغيرة الاستثنائية على الوقت التي تصيبكم حين الحديث عن العلماء والدعاة؟!

-وتحدثنا الطوائف الفكرية أيضاً أن الخطاب الشرعي لأهل السنة هو المسؤول عن تخلف العلوم المدنية، فلما ذهبت للخطاب الشرعي وجدت العلماء يقولون إن العلوم المدنية التي تحتاجها الأمة (فرض كفاية) إن قام بها من يكفي وإلا أثم الجميع، ووجدت في تراجم الفقهاء من جمع إلى تخصصه الفقهي دراسة الطب، أو دراسة الهيئة والفلك، ونحو ذلك، بل لما نظرت في دعاتنا المعاصرين وجدت الكثير منهم جمع لتخصصه الدعوي تخصصاً مدنياً فالشيخ الداعية محمد المنجد متخرج من جامعة البترول، والشيخ د.خالد الجبير طبيب (استشاري أمراض القلب)، والشيخ الداعية عبدالمحسن الأحمد طبيب (وحدة التنفس الحرجة) وغيرهم، بل إن أكثر المناشط الطلابية الإسلامية فعالية وحراكاً توجد في كليات العلوم الطبيعية في جامعة الملك سعود وجامعة البترول، الخ

بل إن المفكر الفرانكفوني المتطرف محمد أركون اضطر للاعتراف بإقبال الإسلاميين على كليات العلوم الطبيعية حيث يقول عن الإسلاميين: (**نلاحظ مثلاً أن دارسي العلوم الفيزيائية والرياضية والطبية وغيرها ينخرطون في صفوف هذه التيارات –أي الإسلامية– أكثر بكثير من المختصين بعلوم الإنسان والمجتمع، وقد عرفنا أثناء المعارك والاشتباكات التي جرت في جامعات تونس والجزائر والقاهرة الخ أن المتعصبين والمتزمتين ينتمون بشكل خاص إلى كليات العلوم، إنها ظاهرة تستحق التأمل والتفكير) [تاريخية الفكر العربي، أركون، ٢٦]**.

كم أشعر بالأسى إلى أولئك الذين جعلوا مشروعهم هدم الخطاب الشرعي لأهل السنة بزعم أنه يتعارض مع العلوم المدنية، برغم أن الإسلاميين أسبق من غيرهم في هذا المضمار، ولكنهم يضعون المدنية الدنيوية في منزلتها التي أنزلها

إياها القرآن، مجرد وسيلة لتحقيق المطالب الشرعية، ولايجعلونها هي معيار التقدم والحضارة، وإنما معيار التقدم والحضارة موافقة أولويات القرآن.

قبل أن نستطرد لحديث آخر .. دعونا نكمل نماذج أخرى من مغالطات الطوائف الفكرية:

-تحدثنا الطوائف الفكرية كذلك عن أن أهل السنة والمتبعين لمنهج السلف لايقبلون بالخلاف في مسائل الاجتهاد، ولايرعون حق المخالف في المسائل الاجتهادية، وأن من لم يوافقهم على كل صغيرة وكبيرة فإنه سيتعرض لسلسلة مضايقات وتسلط، وأن فقه أهل السنة المعاصر يقوم على التنميط الكامل في كل المسائل ولايرحب بالتفكير والاجتهاد، ويستعملون في توصيف هذا الواقع مصطلحات مثل أدلجة وقولبة وتنميط الخ، وبعد أن يصورون هذا الواقع الإسلامي بهذا الشكل يبدؤون في نقل نصوص بعض أئمة السلف في تفهم الخلاف في المسائل الاجتهادية.. الحقيقة أن القارئ لهذه الطوائف الفكرية لايكاد يفكر بفحص هذه الدعوى، بسبب كثرة طرقهم لها بشكل مكثف ومستمر وبصيغ متنوعة..

وقفت مرة مع نفسي وقلت لماذا لا أختبر صحة هذه الدعوى؟ لماذا نستسلم لهذا الطوائف الفكرية؟ لماذا تخلب ألبابنا جاذبية الأضواء السينمائية الفكرية التي يستعملونها في خطابهم فتغيب عقولنا عن تحليل صحة الدعاوى التي يطلقونها؟

وضعت هذه الصورة التي تنقلها الطوائف الفكرية جانباً، وعدت للخطاب الشرعي لأهل السنة أتأمل موقفه من الخلاف في المسائل الاجتهادية، فلما قلبت بحوث الفقهاء وطلبة العلم الشرعي وجدتهم لاتكاد توجد مسألة من مسائل الاجتهاد في الفقه الإسلامي المقارن إلا وقد اختلفوا فيها، وتناقشوا وتباحثوا ورجح كل واحد منهم مارآه بنفوس ملؤها الحب والأخوة، خذ مثلاً بعض أمثلة هذه المسائل:

التسمية عند الوضوء، بداية احتساب مدة المسح على الخفين، نجاسة الدم، الطهارة للطواف، الطهارة لمس المصحف، ومن طهرت قبل خروج أحد فرضي الجمع هل تصليهما جميعاً أم الأخير منهما؟، نهاية وقت العشاء بمنتصف الليل أم بدخول الفجر، المفاضلة بين الأذان والإمامة، وسجود السهو قبل السلام أو بعده، مسألة قصر المسافر إذا أقام إقامة مؤقتة، زكاة الحلي ..الخ هذه نماذج لمسائل تراثية، أما مسائل النوازل المعاصرة التي اختلف فيها فقهاء أهل السنة والمتبعون لمنهج السلف بكل رحابة صدر فهي -أيضاً- كثيرة ومنها:

بدل الخلو، هل الشيك قبض؟، بيع الاسم التجاري، الموت الدماغي، تعذر الحصول على تصريح للحج هل يستقر الوجوب في ذمته فيحج عنه من تركته؟، استعمال المنظفات المعطرة للمحرم، لبس الكمامات للمحرم، تعذر المبيت بمنى ليالي التشريق، حكم استثمار أموال الزكاة من قبل المؤسسات الخيرية، زكاة مكافأة نهاية الخدمة، زكاة الحقوق المعنوية، ومن مفطرات الصيام التي اختلف فيها الفقهاء المعصرون: التبرع بالدم، بخاخ الربو، أقراص الأدوية أسفل اللسان، منظار المعدة، قطرة الأنف وقطرة العين، تخدير المريض باستنشاق الغاز، الحقن المغذية والعلاجية، السفر بالطائرة بعد غروب الشمس بحيث تظهر له مرة أخرى فهل يمسك الصائم أم لا؟ الخ

ومامضى هي مجرد نماذج لآلاف المسائل الشرعية التي يختلف فيها طلبة العلم الشرعي عندنا أخذاً ورداً ونقاشاً واستدلالاً واعتراضاً، ومع ذلك لاينكر فيها على المخالف، بل بقيت بينهم أخلاق الأخوة والعلم، فكيف يفتري هؤلاء على أهل السنة ومتبعي منهج السلف أنهم لايقبلون الخلاف في المسائل الاجتهادية؟!

بل لقد حضرت في الرياض –عمرها الله بطاعته– عدة ندوات فقهية أقامها الناشطون الفقهيون حول البطاقات الإئتمانية و مسائل زكاة الصناديق الاستثمارية ونحوها من مسائل المعاملات المالية، وفي كل هذه الندوات –بلا استثناء– كان الفقهاء الشباب يختلفون ويتناقشون مع كل احترام وتفهم وتآخي، ولايخرجون من ندوة إلا لموعد ندوة أخرى.

بل وفي شهر محرم من هذا العام عقدت في الرياض ندوة حول مسائل الأسهم وألقى فيها فضيلة الشيخ الفقيه ابوسعد عبدالعزيز الدغيثر ورقة بعنوان (التعويض في سوق الأسهم) وفي مراسلة بيني وبينه قال لي بالحرف الواحد: (والعجيب أن الحضور وصلوا إلى آراء وقناعات تساوي عددهم، فلم يكد يتفق اثنان في مسألة).

وأرجوك أن تلاحظ أن هذه السعة في الاختلاف في الاجتهاديات بين طلبة العلم كلها إلى الآن في مسائل الفقه، أما لو انتقلنا لتصحيح الأحاديث وتضعيفها فسنشهد مظهراً آخر للتسامح في الاجتهاديات، فقد اختلف المشتغلون بالحديث من المعاصرين في تصحيح وتضعيف مئين من الأحاديث، ومع ذلك بقي هذا الاختلاف في دائرة التسامح والحب دام أنه لم يصل لتصحيح شديد الضعف، أو العدوان على أحاديث الصحيحين.

أغلقت بحوث طلبة العلم، وأوقفت ذاكرتي عن استحضار واقع الندوات الفقهية، وأدرت برامج الفتاوى التي يتصدر لها بعض طلبة العلم المعروفين بحسن الفتيا، فشهدت مظهراً آخر للاختلاف في المسائل الاجتهادية، بل لاتكاد تجد مسألة اجتهادية يفتي فيها شيخ معين إلا ووجدت شيخاً آخر يفتي بخلافه.

بل من الطريف أنني رأيت الناس كثيري التبرم باختلاف شيوخنا في الفتيا في المسائل الاجتهادية، ويسرُّ إليك كثير من الناس بأنه يقع في الحيرة بسبب اختلاف المشايخ في الفتيا في المسائل الاجتهادية، ومع كثرة اختلاف شيوخنا وطلبة العلم عندنا في الفتيا في المسائل الاجتهادية لم نرهم أقاموا حرباً على بعضهم، ولاشنعوا على بعضهم في مثل هذه المسائل.. ومع ذلك تأتي هذه الطوائف الفكرية وتقول أنتم مؤدلجون تريدون الناس يوافقونكم في كل صغيرة وكبيرة، ولاتسمحون بالخلاف في المسائل الاجتهادية! يالله العجب ما أكذب هذه الطوائف الفكرية!

أنا شخصياً لا أجد أي تفسير لما تقوله هذه الطوائف الفكرية عن الخطاب الشرعي لأهل السنة إلا أنه "كذب" محض وشهوة افتراء تعيث بنفوسهم ونقمة على الاسلاميين وطلبة العلم والمتبعين لمنهج السلف تدفعهم لتشويههم بهذا الشكل.

هل هذا يعني أنه ليس هناك أخطاء ولاهفوات في موضوع التسامح في المسائل الاجتهادية؟ لا، طبعاً، فهناك مواقف غير دقيقة ومن أشهرها حادثة كتاب الشيخ دبيان في القبضة، وهي التي يدندن حولها هؤلاء دوماً ويحولونها من حالة شاذة إلى قاعدة مطردة! وأي قارئ موضوعي سيعرف حتماً أن حادثة الشيخ دبيان هي الاستثناء الذي يؤكد القاعدة، فكيف يدع هؤلاء آلاف المسائل التي اتسعت صدور شيوخنا الكبار وشيوخنا الشباب لها، ويتعنتون دوماً في التعلق

بحادثة الشيخ دبيان؟! مثل هؤلاء كمثل رجل رأى مهندساً بنى ألف منزل ووقعت منه هفوة في منزل واحد، فقال إن هذا المهندس يهدم المنازل! هل هذا إلا من الجور والظلم الفادح؟! بل والله هذا عين الكذب الفج..

في ذهني الآن نماذج كثيرة لكذبات الطوائف الفكرية في تصوير الواقع الإسلامي بعامة، وواقع الخطاب الشرعي لأهل السنة بخاصة، لكنه لايمكنني مواصلة المزيد فقد أطلت، وإنما يهمني هاهنا هدف واحد فقط، وأعتقد أنني لو حققت هذا الهدف فلايسرني أن لي به حمر النعم، هذا الهدف بكل اختصار هو تنشيط جهاز الفحص لدى القارئ الذي وقع ضحية الطوائف الفكرية المناوئة لأهل السنة، وأن لايستسلم للمعطيات التي يقدمونها، فإذا سمعهم يتحدثون عن الواقع الإسلامي تحت لافتات (نقد الصحوة، نقد السلفية، الخ) فليتوقف عن الاسترسال، وليضع دعاواهم تحت الفحص، وصدقني أنه سيكتشف نماذج طريفة جداً من هوليوديات الطوائف الفكرية ..

والله أعلم

ابوعمر

جمادى الثانية ١٤٣١هـ

الآن تذكرتم الفساد المالي؟!

حين أفتى سماحة الإمام عبدالرحمن البراك بكفر مستحل الاختلاط المتضمن للمحرمات القطعية (التبرج، الخلوة، السفور، النظر المحرم) خرج علينا مجموعة ممن تذكروا للتو صوت العقل، وصاروا يقولون: لماذا لم يفتِ الشيخ ضد الفساد المالي؟ وأين الشيخ عن البطالة؟ وأين الشيخ عن مشكلات المستوصفات الأهلية والصرف الصحي والمطاعم المتسممة ؟ الخ الخ من مشكلات الوزارات والبلديات التي تذكروها الآن!

منذ فترة طويلة والليبراليين السعوديين يقودون حملة مكثفة لإشاعة أسباب الفواحش في مجتمعنا المحلي، مؤامرات تشويه إعلامي وإقالة من الوظيفة ضد من يفتي بتحريم الاختلاط، وتأليب اجتماعي ضد ضبط الهيئة لحالات الإركاب والخلوة، وتهييج مؤسسات أجنبية ضد القضاء الشرعي في أي قضية "أعراض" وإرسال التقارير إليها بطريقة تحريضية مريبة، وتزيين وتسهيل السينما العالمية بما تتضمنه من مشاهد الفجور والفحش، وأكداس من الروايات المليئة بتصوير تفصيلي للحظات الفواحش، وتجاوز الليبراليون السعوديون في رواياتهم التصوير الجمالي للعلاقات غير المشروعة بين الجنسين باعتبارها تمرد بطولي على السائد، إلى تصوير الشذوذ الجنسي بين النساء (رواية بنات الرياض) وتصوير اللواط بتفاصيله المقززة (رواية العطايف لعبدالله بخيت)، ومقالات دورية في التهكم بفتاوى خمار الوجه، بل ووصلت مقالاتهم إلى لمز حديث الصحيحين (ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء)، وتزيين استقبال الرجل للفتيات يوقع لهن كتبه في معارض الكتب، واستقبال المؤلِّفة للشباب توقع لهم كتبها، والتمليح في اللقاءات الفضائية مع المذيعات المتبرجات "ياسيدتي.. ياسيدتي.."، ومقالات مستمرة ضد كل الأحكام الشرعية التي تضمنت التحفظ في العلاقة بين الجنسين كسفر المرأة بلا محرم، وبالجملة فكل حكم شرعي يشرف المرأة بالحشمة والفضيلة والعفة تجدهم يكتبون ضده بشتى السبل، ويستوردون الفتاوى التي تخدم أغراضهم من كل مكان لضرب الفتوى الشرعية في قضايا الفضيلة.

وبعد كل هذه الحملة الفواحشية –التي تفغر فاك وأنت تلاحق أحداثها– يأتون اليوم يقولون للبراك لماذا لاتفتي ضد الفساد المالي؟! يعني هم سيتخصصون في أمركة الفتاة السعودية وأنتم اتركونا وتكلموا عن الفساد المالي؟!

بالله عليكم توقفوا أسبوعاً واحداً فقط عن إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا حتى نتمكن من التقاط أنفاسنا وحماية أعراض بناتنا ثم نتناقش معكم حول أساليب حماية المال العام إن كنتم صادقين فعلاً في حمايته ولم تكونوا جزءاً من هذا الفساد ذاته عبر مكافآت إعلامية دسمة تصلكم من هنا وهناك!

أرجوكم فكروا أن تأخذوا إجازة ترتاحون فيها قليلاً من هذا النشاط المحموم في خلع خمار الفتاة والزج بها مع الشباب ثم نستطيع أن نجد وقتاً نبحث فيه عن سبل إيقاف المنح العقارية الجائرة للمسؤولين الليبراليين والرواتب الخرافية لرؤساء التحرير الليبراليين؟!

بالله عليكم أين تجدون الوقت لكتابة كل هذه المقالات والروايات والحلقات والاستضافات التي تدور كلها حول الجزء السفلي للإنسان؟! والله أهنؤكم على أنه لم تصبكم السآمة والملل من دورانكم حول موضوعات لاتخرج عن الملابس الداخلية لبني آدم، حتى قال أحد الصحفيين وهو صديق لكم (المشروع الليبرالي يبدأ بالمرأة وينتهي بالمرأة مروراً بالمرأة) !

تدقون طبول الحرب على أعراض بنات المسلمين وتريدون أهل العلم أن يتخصصوا هم في موعظة المسؤولين عن بقايا الميزانية؟! طيب لماذا لاتوفرون جهدكم في سلخ أخلاق الفتيات والشباب، وتجعلون مقالاتكم عن المال العام، وستجدون الإسلاميين يوزعون مقالاتكم ويفرحون بها، كما يفرحون باستضافة د.القنيبط ومقالات الرطيان، برغم أنهم ليسوا من الإسلاميين، وإنما لأنهم يطرحون نقداً سياسياً صريحاً وواضحاً لمشكلات المجتمع المسلم المالية دون المساس بالأعراض والفضيلة.

الآن تتحدثون عن الأولويات، وفقه الأولويات، وتتفجعون على الشيخ البراك بأنه لايفقه الأولويات! انظر من يتحدث؟! أنتم الذين أهملتم قضايا المجتمع المسلم وكليات الإسلام وتخصصتم في تزيين وسائل الرذائل تأتون تتحدثون عن الأولويات؟! هل بقي في وجوهكم قطرة حياء؟!

حين يهجم على منزل الإنسان لصّان، أحدهما يريد أن يغتصب بنته، والآخر يريد أن يسطو على ماله، فمن الطبيعي أن يبدأ بمقاومة لص الأعراض ثم يتفرغ للص الأموال، هذا هو الترتيب البدهي لأولويات العقلاء.

فأوقفوا لصوص الأعراض حتى نتفرغ للصوص الأموال !

الليبرالية في الدنيا كلها تجعل غايتها لجم الاستبداد السياسي، والليبرالية في بلدي المسكين غايتها الوصول إلى لحظة الشاطئ المختلط..

اللهم احفظ أعراض المسلمين وأموالهم ياحي ياقيوم.

ابوعمر - ربيع الأول ١٤٣١هـ

وجه أبوخالد سؤالا لأبي عمر السكران قائلا:

الصديق ابوعمر.. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، اسمح لي أن أكون قاسياً معك، جهودك مهما بلغت فائدتها فهي موجهة إلى أشخاص متناقضين مع أنفسهم يعيشون متاهات الترف الفكري ليس إلا، يريدون أن يقولوا شيئاً، وأن يكون لهم حضور، ومهما كان عددهم فهم لا يتجاوزن عدد أصابع القدم الواحدة.

ليكن همك يا أباعمر بيان الوحي بالمفهوم الذي تراه صحيحاً، وليس همك كشف عوار هذه الشرذمة للناس.

يابوعمر مالك وللأطياف الفكرية التي تعيش تخبطات، إنها أطياف تدور حول نفسها، ويأكل بعضها بعضاً في ترف فكري لا يسمن ولا يغني من جوع، ربما تكون نظرتي متطرفة نوعاً ما، ولكني أريد أن أقابل تخصصك الحالي في الكتابة لعل ذلك يحدث لك شيء من التوازن.
اخي ابوعمر العالم أوسع وأكثر حاجة من هذه الزاوية التي تحشر نفسك فيها، وين أنت رايح ، لقد عميت عيناك عن ما يحتاجة السواد الأعظم من المسلمين، عفواً بل العالم كله من نور الوحي (أكثر من ٦ مليارات إنسان) وذهبت تتخبط في معركة ضد رجال يعدون على أصابع الرجل الواحدة، لو كنت أحدث غيرك لتفلسفت وقلت: لا بد من التخصص، وكل على ثغر، وامض بارك الله فيك وثبتك، ولكن لك أنت أقول: أربط فرامل، وين أنت رايح، دور اللي ينفع عامة الناس، وقبل هذا ينفعك أنت عند ربك...معليش يابوعمر سامحني ...!

فأجاب أبوعمر السكران قائلا:

أهلا أستاذي وصديق عمري ابوخالد ..
وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته،،

الحقيقة أنني أتفق معك كلياً فيما ذكرته حول هامشية التيارات الفكرية المنحرفة وعدم قيمتها، والوصفان اللذان ذكرتهما (*يعيشون متاهات الترف الفكري*) وقولك (*أطياف تدور حول نفسها ويأكل بعضها بعضاً في ترف فكري لا يسمن ولا يغني من جوع*)

هذا الكلام أعجبني بالمرة، وأعيد التأكيد أنني أتفق معك كلياً في أن هذه التيارات الفكرية كما وصفتها بوصفين في غاية الروعة (تعيش ترف فكري) و (يأكل بعضها بعضاً) والله لقد أجدت التقاط الصورة بكل زواياها .

كما أتفق معك أن الالتفات لاحتياجات المسلمين الإيمانية والعلمية والتي تمس جمهور المسلمين الأعظم يجب أن تحتل العناية القصوى .
وأعتقد أن مثل هذه النظرة هي من القواسم المشتركة بيننا .

أتدري أين المشكلة يا أباخالد؟

المشكلة ليست في تفاهة التيارات الفكرية، وكونهم أصلاً في غالبهم أهل أهواء، لو تليت عليهم من الأدلة إلى يوم الدين ما التفتوا إليك، وهم كما قيل لسفيان بن عيينة (ما بال أهل الأهواء شديدي التعلق بأهوائهم؟) فقال (أنسيت قوله تعالى" وأشربوا في قلوبهم العجل")

فهؤلاء أهل الأهواء الفكرية أشربوا أهواءهم، وصاروا كما في الصحيح "أكوازاً مجخية" لاتعرف إلا ما أشربت من هواها، والاشتغال بمثل هذا النمط من الناس مضيعة للوقت، وانصراف عن أبواب الخير الملحة الأخرى، وإنما المشكلة في مستوى آخر للأزمة هو الذي يستدعي الاهتمام والعناية والجهود المكثفة، وهو أن هذه" المفاهيم المنهجية المنحرفة" صارت تغزو كثيراً من الشباب المتدين، وخصوصاً المقبل على الثقافة والمطالعة، بل وأطم من ذلك صارت تربك بعض الدعاة وطلبة العلم، وهؤلاء بكل اختصار "رأس المال"، وهؤلاء هم بنك الدعوة، وهم ذخيرة الإصلاح، وهم الحصن الأخير .

مثل هذه المفاهيم المنهجية المنحرفة في قضية الموقف من المخالف، والموقف من الحضارة المادية، والموقف من الإصلاح السياسي، والموقف من التراث، صارت تقوض اليقين عند كثير من الشباب المتدين، فيصاب بحالة من الشلل الدعوي .

ليتك يا أباخالد ترى أكواماً من الرسائل التي أتلقاها عن شباب دعاة يروون قصصهم حيث كانوا مشاعل خير وهدى ثم صاروا يتعرضون لهذا الحقن بالشبه الفكرية فأصابتهم حيرة منهجية، أو كما سماها أحدهم "تبنج دعوي" .. ففقد دفء الايمان، وحيوية الدعوة ..

أقسم لك بالله العظيم يا اباخالد أن أحدهم يقول إني استرسلت مع هذه الشبهات الفكرية وأعجبتني لغتها حتى نسيت القرآن وكثيراً من الصحيحين التي كنت أحفظها، ويقول أنه الآن بدأ يراجع حفظه وعاد له إيمانه واشراق روحه .

قبل عشرة أشهر حين كنت في الرياض دعاني مجموعة من التربويين للقاءات مسامرة عابرة، فحدثوني عن الشبهات الفكرية الحديثة، وماسببته من الحيرة المنهجية لشبابهم، ويسألون بحرقة وألم ودموع تتحشرج عن كتب مناسبة يصلحون بها شبابهم الأخيار الذين دمرتهم هذه الشبهات .

اخي وصديق عمري أباخالد .. في هذه الحقبة من تاريخنا المحلي دلق الإعلام على الناس (شبهات فكرية) كثيرة، بعضها يتعلق بالوحي ذاته، وبعضها يتعلق بعلوم الوحي، وبعضها يتعلق بحملة علوم الوحي. فأما مايتعلق بـ(الوحي) فهي شبهات يعارضون بها الكتاب والسنة من جهة الحجية والمصدرية، وأما مايتعلق بـ(علوم الوحي) كالعقيدة وأصول الفقه ونحوها، فهي شبهات يعارضون بها أصول التلقي والاستدلال ومنهج فهم النصوص، أو آحاد الأحكام الشرعية، وأما مايتعلق بـ(حملة علوم الوحي) فهي شبهات يطعنون بها في العلماء الربانيين من أهل السنة السابقين أو المعاصرين، كاتهامهم بمالأة السلطة .

وهذه الشبهات الفكرية صار لها دور فعّال في الإضرار بتدين كثير من الشباب المسلم، فكثير من ضحايا هذا التيار لم يعد يجد في نفسه تعظيم النصوص وهيبتها، ولا الغيرة على الحرمات والأعراض، ولا تلك الحيوية الدعوية وحمل هم الإسلام، ولا ذاك التشوق الممض لتحيكم الشريعة، ولا توقير السلف واعتقاد أنهم أصح منا فهماً للنصوص الشرعية، وصار كثير منهم من أعظم المتثاقلين في الفرائض، أما النوافل والقرب التي يحبها الله والتي اعتادها فهذه تساقطت تدريجياً، وتمر عليه الأشهر تلو الأشهر وهو هاجر لكتاب الله

تعالى، وصار غالب وقته في المقاهي الفكرية، ومساهرة الأفلام، والولع بالسفر للخارج، وصار تقليب بصره في النساء من أسهل الأمور على نفسه وفقد كل تأنيب ضمير كان ينتابه، ومجالس هؤلاء كلها شحن ضد المتدينين وتصيد لعثراتهم وتضخيمها، ورحابة صدر مع العلمانيين ومروجي الأدب الهابط، ومع كل هذه الحالة المزرية من الانحدار الايماني والسلوكي تراه يوهم نفسه أنه إنما يبحث عن الحضارة والنهضة والمدنية، برغم أنه لم يقدم للمسلمين شيئاً لا في دينهم ولادنياهم، بل وكثير منهم يعتقد أنه أعلم من أئمة أهل السنة بفهم الإسلام واستيعاب معانيه ومقاصده، بل ولايكف عن توجيه النصائح لأئمة أهل السنة كيف يفهموا الاسلام؟ !

وأشد هذه الظواهر إيلاماً وإثارة للكمد أن يكون الإنسان من هؤلاء طالب علمٍ سابق كان قد ضم صدره شيئاً من نصوص الوحيين وتشرف بمجالسة أهل العلم ومزاملة اخوانه في مذاكرة العلم والإيمان، ثم انسلخ من هذا النور والهدى كما قال تعالى في مثل بليغ مؤثر: (*وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ *وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)
الأعراف:١٧٥-١٧٦

والمحافظة على طلاب العلم والدعاة والاخيار من أن تتخطفهم هذه الأهواء الفكرية يجب أن يحتل مزيد عناية في أولويات الإصلاح الشرعي، فطالب العلم ثروة بما يحمله من نور الوحي، فإذا هبت عليه رياح الهوى انطفأ السراج، وكلما انطفأت السرج كثر المتعثرون .

صحيح يا أباخالد وأوافقك كليا أن الاهتمام بعامة المسلمين واجب ومهم، ولكن أيضاً الاعتناء بحفظ المنهج الشرعي قوياً مهيباً مقنعاً يحفظ علينا دعاتنا وطلاب علمنا .. هدف في غاية الأهمية ..

يا أبا خالد القضية اليوم لم تعد مشكلة مثقفين ليبراليين وعلمانيين .. هذولا– بكل صراحة– بقلعتهم والله ماحملت لهم هماً، وإنما القضية المفاهيم المنهجية التي صارت تزعزع اليقين والحسم والاستعداد للتضحية الدعوية وحمل هم رسالة الاسلام ..

صار كثير من الأخيار يرى الانحرافات العلمانية ويتساءل صادقاً "لماذا نحن إقصائيين؟ .. "!
وصار كثير من الأخيار يرى المنكرات الشنيعة ويتساءل صادقاً "لماذا نتوتر في قضايا الخلاف؟ .. "
وصار كثير من الأخيار حين تدعوه لنشر السنن النبوية في الناس فيقول لك صادقاً" لماذا نجعل التدين في هذه القضايا الشكلية؟ .. "
وصار كثير من الأخيار يخفي في نفسه أن "المفكرين أقوى وأمكن من العلماء والدعاة" لكنه يواري ذلك ويداريه إما خجلاً وحياء، وإما لشعوره أن ذلك يتعارض مع تدينه، لكنه لايملك جوابا حقيقياً يريحه من عناء الصدام بين عقله وايمانه، وكل ذلك بسبب "استطالة أهل الأهواء الفكرية" بلغتهم الحديثة على علماء أهل السنة ..

اليقين التام بحجية المنهج مع اليقين التام ببطلان نقيضه .. فقده كثير من الشباب المتدين.. واليقين هو الذي يورث الاقدام الدعوي .. واذا تصدع اليقين والحسم فقد الشاب المتدين مبررات الحماس التغييري ..

تأمل اليوم في بعض المنتسبين للدعوة كيف أصابته لوثات منهجية –بسبب ضخامة الضخ الفكري المكثف والمتواصل من الاعلام– حتى حولته إلى ناشر للانحراف .. تأمل في تعطيل النص باسم الخلاف كما قال الشاطبي في الموافقات متهكماً (صار الخلاف الفقهي

معدوداً في حجج الاباحة!) وتطويع الأحكام الشرعية لتتناسب مع الذوق الغربي، والتزهيد بمرجعية السلف في فهم الإسلام، والتبرم بالحديث الايماني، والسرور بالحديث الفكري المجرد، والولع بالتزين بالاسماء الغربية الرنانة، وهجران كتاب الله، والتثاقل عن الفرائض، وانتقاص العلماء والدعاة وعامة المتدينين، والتفسير المادي للتشريعات، وجعل قضايا الحضارة والمدنية ليست وسيلة لاظهار العقيدة والشريعة، بل بديلاً عن المطالب العقدية والفقهية، الخ الخ من مظاهر الانحراف هذه الأزمات الخطير التي صارت تغزو كثيراً من الشباب المتدين ..

وأول خطوة في سلسلة هذه الانحرافات*" شحن الشاب ضد المتدينين*" بأنهم جهلة بالواقع الحديث، وأنهم ضد الاستفادة من الغرب، وأنهم لايعرفون مقاصد الشريعة، وأنهم مجرد ذيل للسياسي، الخ .. فإذا أسقطوا في عين الشاب المتدين تعظيمه وولاءه للعلماء والدعاة، انتقلوا معه إلى بيان تناقضات التراث الاسلامي حتى يسقطو مرجعيته، وهكذا وهكذا .. حتى يتحول إلى) مسخ فكري) بعد أن كان (مشكاةً من ايمان)

ابوخالد .. المرض وصل إلى جسدنا، ولم تعد المشكلة مشكلة نخب ثقافية منحرفة !

ولقد جلست مرةً أتأمل: ما سبب كون "الشحن ضد المتدينين" له هذا الأثر النافذ الهائل في "توهين التدين" في النفوس .. فوجدت أن هذه آلية قديمة لسائر خصوم الرسل وأتباعهم، كما قال تعالى :

(وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا) هود:٢٧
(قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ) الشعراء: ١١١
(قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ) البقرة: ١٣
(لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ) الاحقاف: ١١

ونحوها من الآيات التي توضح كيف استغل خصوم الرسل تشويه المتدينين لتهتيك دوافع التدين في الناس ..

ومن أخطر الأمور في هذا الباب عدم التفريق بين الاشكاليات "المنهجية "والاشكاليات" الفكرية البحتة" داخل الحقل الفكري، وهذه قضية تستحق النظر والفرز .

حين تتداول الكتب الفكرية الرائجة مسائل واشكاليات من نمط تفسيرات التاريخ ,وتحقيب التيارات، والدورات الحضارية، وثقافة الصورة، والبديل الآسيوي ,وتفاصيل متغيرات العولمة والمعلوماتية ونظم الاتصالات، ونحوها، فهذه القضايا شأن المفكرين، وهم المرجع فيها لأنها تخصصهم، وأنا شخصياً لاتعنيني هذه القضايا من قريب ولا من بعيد ..

أما حين يتداول الفكر العربي المعاصر مسائل واشكاليات من مثل: العلاقة بين مصادر المعرفة (كالوحي والعقل)، وبدائل أصول الفقه كمدارس التفسير الحديثة للنص) كالتفكيك والسيميولوجيا والهرمنيوطيقيا والبنيوية ونحوها)، وكثرة الدعوة لعلم" مقاصد الشريعة" (إما بمعنى الاستعاضة بها عن النصوص الجزئية، وإما بمعنى التأويل المقاصدي للنص الجزئي) وفكرة التفسير العصري للنص، وربط التشريع بالحكمة دون العلة، وتاريخية الوحي وظرفيته وتأصيل ذلك من خلال علم أسباب النزول وعلم أسباب الورود، وتحييد مصدرية السنة

من خلال "علم مقامات النبوة ,"واشكاليات تدوين السنة، والتفسير السياسي للتراث ورده الى صراعات القوى ,والقراءة الفيلولوجية للتراث بمعنى توظيف منجزات "فقه اللغة المقارن" لتكلف اثبات المصدر الأجنبي لمفاهيم ومصطلحات العلوم الشرعية ,كعلاقة العلوم الشرعية بالثقافات الهرمسية والغنوصية والفارسية واليونانية والرومانية، ونحو هذه الاشكاليات: فالأمر هاهنا مختلف جداً، فليست هذه الاشكاليات "اشكاليات فكرية ,"بل هذه "اشكاليات منهجية" تتصل بالنص والعلوم الشرعية والقرون المفضلة والتراث الاسلامي .

وهذه الإشكاليات في غاية الخطورة على "الشاب المثقف" و "طالب العلم" في المجتمع المسلم.. وهم رأسمال الدعوة والتغيير والاصلاح .. وفي انحرافهم انحراف لأمم من وارثهم من الناس ..

ألاحظ كثيراً أن تعميم مفهوم الفكر على كامل "الحقل الفكري "يسهم في تضليل الرؤية تجاه أمثال هذه الاشكاليات "المنهجية" الخطيرة التي تثيرها هذه الكتب وتتسرب الى عقول الشباب المسلم المتطلع للثقافة والمقبل بنهم على هذا الحقل .

فليست القضية إذن: هل يهتم طالب العلم بالكتب الفكرية أم لا؟

وإنما القضية: هل يجب على طالب العلم استيعاب وتحرير الاشكاليات" المنهجية "التي تثيرها الكتب الفكرية أم لا؟

هذا هو السؤال الصحيح، وهو المدخل الدقيق للتفكير في هذه الاشكالية .

إذا تناقش المفكرون في قضايا "فكرية بحتة" تتصل بالحضارة والثقافة والتاريخ والمجتمع فهذا شأنهم وهذا بحر علمهم، ولايعنيني شخصياً أمرها ..

أما إذا تناقشوا في قضايا "منهجية" تتصل بالوحي، والعلوم الشرعية، والتراث الاسلامي، وأهل السنة المعاصرون، فهاهنا لايجوز للمتخصصين الشرعيين التقاعس عن المساهمة في بيان الحق وابطال الباطل في أمور هي من "صلب علومهم" وهم المؤتمنون عليها .

إذا كانت قضايا النص، والمقاصد، والمصلحة، والعلة، والذرائع، والعقل، وأسباب النزول، وأسباب الورود، والتدوين، وقاعدة "تغير الأحكام بتغير الأزمان ,"وقاعدة" عموم اللفظ وخصوص السبب" ونحوها : ليست قضايا الشرعيين فماهي قضايا الشرعيين إذن؟

ومن سيقوم بالدور المتخصص في تحليل وبرهنة الرؤية الشرعية في هذه الاشكاليات؟ !
ويتأكد الأمر أكثر وأكثر حين يمس "العلوم المعيارية" التي تضبط "أصول التلقي والاستدلال"، فهذا مستوى في غاية الخطورة ..

وأعني بالعلوم المعيارية علوم ضبط "الثبوت" وهي مصطلح الحديث، وعلوم ضبط" الدلالة" وهي أصول الفقه، لأن الانحراف في مبدأ من مبادئ "التلقي والاستدلال "يترتب عليه من التطبيقات مالاينحصر، بخلاف الخلل في مسألة فروعية واحدة، فالخلل في مسألة "منهج تفسير النص" ليس كالخلل في مسألة "حكم المرتد "مثلاً .

وأما من يستند في تهميش معالجة هذه القضايا المنهجية إلى أنها مجرد "إشكاليات نخب ثقافية"، وأنها ليست مما يمس حياة الناس

العامة، فلاتكاد تجد رجلاً من عامة الناس يستشكل العلة والحكمة ومقاصد الشريعة مثلاً، وعليه فالاشتغال باشكاليات الناس العامة كفقه المعاملات المالية، والفقه الطبي، وفقه مواسم العام (كالصيام والزكاة والحج والفضائل الزمانية المرتبطة بأيام وأشهر مخصوصة) أولى وأحرى .

فهذا الكلام غير صحيح إطلاقاً وهو مصادم لفقه أئمة السلف، فأئمة السلف ناقشوا اشكاليات "نخبوية" من دقيق العلم لم تكن تعني عامة الناس في الكوفة والشام والحجاز ونحوها من أمصار المسلمين، وانما كانت تتداولها النخب العلمية والفلسفية، كاشكالية التحسين والتقبيح العقلي، وهل يجب على الله فعل الأصلح ,ونظرية السببية، ووجود الكليات النظرية ذهنياً أو عينياً، واشكالية المجاز ,ونظرية التولد، وتكلموا عن كثير من العناصر الدقيقة للتفكير العقلي الصحيح كاللزوم، والاطراد والانعكاس، والاستقراء، والدور، واجتماع النقيضين وارتفاعهما، والتفريق بين العقليات الضرورية والمكتسبة، ومراتب المدركات، ونحو ذلك .

فهذه الاشكاليات ونظائرها ليست مما يعني عامة المسلمين في تلك العصور، فإن عامة المسلمين في تلك الأزمان تشغلهم قضايا محدودة في عباداتهم وبيوعهم وأنكحتهم ,ويشتغلون بقية يومهم بأرزاقهم وحياتهم الخاصة، وهل يعقل أن الفلاح في بغداد والتاجر في دمشق في قرون الاسلام الاولى مشغولون بإشكاليات الفلسفة اليونانية؟ !

وإنما هذه الاشكاليات ونظائرها كان سجالها يلتهب داخل دوائر النخب العلمية والفلسفية المتفاعلة مع الحداثة الاغريقية بشكل خاص، ومع ذلك استولت على اهتمام أئمة السلف وفصلوا فيها وقاموا الانحرافات فيها لأنها تحريف لحقيقة الاسلام ..

بل انظر إلى مكتبة الامام ابن تيمية وستجد أن الدراسات التي أنجزها لدواعي" نخبوية" أكثر بكثير من الدراسات التي كتبها لاشكاليات عامة الناس، فكتاب كالصفدية —خصوصاً- أو الرد على المنطقيين، أو درء التعارض، أو التدمرية، ونحوها ليست في الحقيقة تعالج اشكاليات عامة الناس ,وإنما هي اشكاليات النخب العلمية والفلسفية .

وتعامل الإمام ابن تيمية مع الثقافات الفكرية والفلسفية التي عاصرها يجسد بالضبط نموذجاً دقيقاً يعبر عن الموقف المطلوب في سؤال "موقف الفقيه من الفكر "
ابوخالد .. أرجوك أرجوك أعد تأمل عبارة الامام ابن تيمية هذه عدة مرات، فأنا شخصياً لا أمل من تكرارها، وقد قالها في كتابه الحافل دراء تعارض العقل والنقل :

(*فكل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم؛ لم يكن أعطى الإسلام
حقه، ولا وفى بموجب العلم والإيمان، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور وطمأنينة
النفوس، ولا أفاد كلامه العلم واليقين*)

يا ألله .. يا ألله .. اللهم إنا نسألك أن نكون ممن أعطى الاسلام حقه وقطع دابر أهل الأهواء، وكسر استطالتهم على أهل السنة، ومنهج أصحاب النبي في فهم الاسلام والعمل به ..

على أية حال .. والله أخي الغالي وصاحب عمري يابوخالد .. ما أنا إلا" طالب حق "فإن كنتُ مصيبا في تصوري لخطر الانحرافات

المنهجية على الشاب المتدين وكونها تصيبه بالشلل الدعوي .. فالحمدلله .. وإن كنت مخطئاً في هذا التصور .. وأن هذه الشبهات المنهجية التي يسكبها الاعلام على الناس لاأثر لها .. فأتمنى أن توضح لي وتصوبني فأنا لا أريد أن يذهب وقتي هدراً طبقاً لتصورات خاطئة ..

شكر الله لك حرصك على أخيك وحب الخير لي، والله يحفظك ويتولاك وينصر بك دينه كتابه وسنة نبيه .

اخوك المحب ابوعمر.

الإصلاح على طريقة لمز المطوعين

الحمدلله وبعد،،

في كل بلد في العالم فإن الإصلاح المدني يعني تقديم خطط وبرامج ومشروعات وحلول مدنية عملية للأزمات المدنية التي يعاني منها الناس.. يعتبر الشخص مصلحاً مدنياً إذا قدم إصلاحات مدنية على الأرض.. هذا هو تعريف الإصلاح المدني في العالم ببساطة .. إلا في بلدي السعودية التي تفردت بتعريفات كثيرة ولله الحمد .. فإن الإصلاح المدني له تعريف آخر .. تعريف آخر مختلف كلياً.. وهذا لعله جزء من فرادتنا!

الإصلاح في السعودية ليس أن تقدم برامج ومشروعات مدنية في الجوانب الناقصة.. لا.. لا تحتاج ذلك أبداً، فقط استمتع بالتهكم بالفقهاء والدعاة الإسلاميين والمحتسبين لماذا لم يقدموا هم؟! وستجد نفسك في دقائق إصلاحياً كبيراً !

إصلاح أزمات الإسكان والصحة والخدمات التي يئن منها الناس في السعودية ليس بأن تقدم خطط ودراسات مدنية بشأنها.. لا.. لا.. هداك الله.. لا تحتاج إلى ذلك كله.. فقط انتقد المشايخ لماذا لا يقدمون هم خطط ومشروعات، ولا تنس أن تدخل في حديثك عبارات من نوع: فهم العصر وإدراك المتغيرات الخ! وستكون حينها أردوغان السعودية!

الشجاعة في المسائل السياسية الحساسة في السعودية ليس أن تقدم برامج وخطط إصلاحية لحل مظالم الإقطاع العقاري والحبس بلا مقاضاة ونحوها .. لا.. لا.. لا يحتاج الأمر أن ترهق نفسك.. اجلس في المساء على صفحتك الشخصية الإلكترونية مع كوب من اللاتيه واستمتع بتعيير الفقهاء بعجزهم السياسي والأمني! وستكتشف نفسك حينها سيفاً إصلاحياً لا يغمد!

الإصلاح في السعودية ليس إصلاح الخلل، وإنما شتم الآخرين لم لا يصلحون الخلل؟! هكذا بكل بساطة!

قرأت لأحدهم مرةً يتهكم بخطيب الجمعة في مسجدهم لماذا لا يصلح قضايا التنمية (أخذت أتساءل: ربما الأخ يظن أن خطباء الجمعة هم الوزراء في الدولة؟!)

دعونا نتذكر صغار الصحابة ونقيم شيئاً من المقارنات .. صغار الصحابة كابن عباس وابن عمر .. أو بشكل عام من تأخر موته من الصحابة رضوان الله عليهم، ففي البصرة توفي أنس بن مالك أحد المكثرين وخادم رسول الله عام (٩٣هـ) ، وفي مكة توفي ابوالطفيل عامر بن واثلة (١١٠هـ) ، وفي حمص توفي عبدالله بن بسر المازني (٩٦هـ) ، وفي الكوفة توفي عبد الله بن أبي أوفى الأسلمي (٨٧هـ) ، ونحو هؤلاء الصحابة الذين تأخر موتهم وأدركوا من حكم المتغلبين ومن الخلل السياسي عقوداً متتابعة.

أي أن الصحابة أدركوا من ولاية المتغلبين —في أشد الأقوال– مايقارب (٧٠ سنة) وهي الحقبة التاريخية الواقعة بين (٤١ — ١١٠) .. وفي هذه الفترة قامت عدة نظم سياسية متغلبة وفيها خلل سياسي كبير مثل: يزيد بن معاوية، ومعاوية بن يزيد، وعبدالملك بن مروان، والوليد بن عبدالملك، وسليمان بن عبدالملك.

كل هؤلاء حكموا والصحابة لا زالوا متوافرين..

السؤال الآن: ترى لو عاشت هذه الطوائف الفكرية في عصور أولئك الصحابة فماذا سيقولون عنهم؟ هل سيلومون ابن عباس وابن عمر وأنس ونحوهم من أجلة الصحابة ويقولون لهم: أنتم مشغولون برواية الحديث وتعليم الناس السنن وهذا إشغال للناس عن مقاومة الخلل السياسي؟

هل سيقولون لابن عباس: أشغلت الناس بتفسير القرآن وكلام العرب عن الأزمات التي تمس حقوق الناس؟! حاشاه رضي الله عنه.

هل سيقولون للصحابة: أنتم تشددون النكير على القدرية وهم قوم لهم تأويل وإنما أرادوا البحث عن الحق ولهم حرية الرأي، بينما تحرمون الخروج على هذه النظم السياسية المتغلبة!

وفتاوى الصحابة في مسائل الفقه ملأت أسفار كتب الآثار وفقه الحديث من باب المياه إلى باب الإقرار.. فهل هذه الفتاوى الصحابية كلها كانت تغييباً لعقول الناس عن النظم السياسية المتغلبة؟!

عمل فقهاء ومفتي الصحابة مع أمثال يزيد بن معاوية، ومعاوية بن يزيد، وعبدالملك بن مروان، والوليد بن عبدالملك، وسليمان بن عبدالملك .. أصل في معرفة الحق لمن أراده.

فقد استمر الصحابة في عصور التغلب في تفسير القرآن ورواية الحديث وبيان السنن وتعليم الناس والفتيا في دقيق الأمور وجليلها، ولم يعتبروا أن بيان مسائل الدين هو اشتغال بمسائل هامشية كما يدعي هؤلاء..

ولذلك تجد علماء أهل السنة ساروا طوال القرون الماضية على طريقة الصحابة، استمروا في بيان مسائل الدين دقيقها وجليلها، ولم يعتبروا أنها إشغال للناس بالتوافه ..

هل تريدني أن أصدق أن فقهاء الصحابة ومفسريهم ومفتيهم ومن بعدهم من العلماء لم يفهموا حقيقة الإسلام وفهمه بعض المنتسبين للفكر المعاصر! يارحم الله العقول إذن!

على أية حال .. الجوانب المعاشية في المجتمع مسؤولية الجميع .. وليست مسؤولية الفقهاء والمحتسبين وحدهم .. وعلماء الإسلام بلا استثناء يعدون كل بابٍ منها شعبةٌ من الاحتساب.. وشعب الإيمان بضع وسبعون شعبة .. بل إن الخبراء –كلٌ في مجاله– عليهم مسؤولية خاصة في أنتاج الحلول المدنية للمشكلات المعيشية للمجتمع..

فالاقتصادي والمهندس والإدراي هم الذين يملكون الخبرات المدنية للمشكلات المدنية.. هل ننتظر من الفقهاء والخطباء والدعاة أن ينتجوا خططاً لمشروعات الطرق وبرامج العلاج والتمويل العقاري؟! هذا خلط في الوظائف .. هذا كمن يقول على المهندس أن يحقق أسانيد مسند أحمد! والجميع يدرك أنه ليس عليه ذلك..

وهذا هو الفرق بين مفهوم (العلمانية) المرفوض شرعاً .. ومفهوم (التخصص) المطلوب شرعاً .. فالعلمانية توزع المهام المدنية مع جعلها غير محكومة بالشريعة .. أما التخصص فتوزيع المهام مع جعلها جميعاً محكومة بالشريعة..

ومن أهم كوارث هذه الطوائف الفكرية أنها دوماً تقع في (تنقيض الفروض الكفائية) أي وضع المطالب الشرعية أضداداً ونقائض لبعضها، فهم لا يقولون مثلاً: شكر الله لمن اعتنى بنشر السنن وإماتة البدع، ونحن فريق آخر سنعتني بقضايا الحقوق المالية، بل يجعلون هذه نقيضاً لهذه!

بل ويصرحون أحياناً بأن أي اشتغال بقضايا العقيدة أو الفضيلة أو مقاومة الربا ونحوها أنه تضييع للجهود وتشتيت للتركيز وصرف للانتباه عن القضية الحقيقية التي هي القضايا السياسية والمالية! فانظر كيف أفسدوا جهودهم بمثل هذه المتضادات التي يفتعلونها، مع أن علماء أهل السنة كانوا ينتظرون منهم أن يكونوا عوناً لهم على استكمال جهود الإصلاح الشامل فتحولوا إلى معاول هدم بجعلهم بعض الشريعة نقيضاً لبعضها.

ولذلك كان بعضهم يستاءل: لماذا وقف الإسلاميون والخطاب الشرعي ضد شخصيات إصلاحية معروفة مادام أن الإصلاح السياسي والمالي جزء من الشريعة؟!

وهذا تزييف للواقع، فكل الشخصيات الإصلاحية التي انتقدها الخطاب الشرعي لم ينتقدها لأنها طالبت بالإصلاح المالي، وإنما انتقدها لأنها توسلت بالقضية الإصلاحية لتمرير تحريفاتها للشريعة كالإزراء بعلوم السلف، أو التهوين من مرجعية الصحيحين، أو جحد حد الردة، أو السخرية بكتب العقيدة كالطحاوية ونحوها..

بل إنني أعمم –وأنا مسؤول عن هذا التعميم– وأقول أنه طوال تاريخنا المحلي فإن كل الشخصيات التي اعتنت بشكل عام بـ(النقد السياسي) وأظهرت في نفس الوقت احتراماً للشريعة وعلومها ومنهج أهل السنة؛ فإنها لاقت تقديراً واحتراماً وإعجاباً في الوسط الإسلامي، وتداولاً لمقالاتها.

وهذا الموقف من أشد نقاط التميز في الاتجاه الإسلامي –ولله الحمد– وهو أنه يحترم الشجاعة السياسية بشرط أن لاتتحول إلى جسر لنفي شئ من أحكام الشريعة ومنهج أهل السنة.

ونظير ذلك: أننا نحترم الطبيب المبدع بشرط أن لايستغل إبداعه العلمي لترويج الاختلاط بين الجنسين، ونحترم الروائي المبدع بشرط أن لايستغل أدبه لتمرير المجون، ونحترم الإعلامي المتميز بشرط أن لايستغل مهنيته للتأليب ضد الأنشطة الإسلامية، وهكذا.

بل تأمل معي في نموذجٍ أكثر دلالةً من ذلك، وهو أن الشخصيات التي تكلمت عن (الجهاد الشرعي) لقيت احتراماً بين الإسلاميين، لكن لما صار بعضهم يستغل عنايته بالجهاد للتهكم بدروس العقيدة، أو تكفير علماء أهل السنة، أو تهديد أمن البلدان الإسلامية واغتيال العاملين في المؤسسات الأمنية وإتلاف الثروات العامة للمسلمين، فإن الإسلاميين بعامة أطبقوا على منافرته وذم طريقته، لا لأنه اعتنى بالجهاد، ولكن لأنه استغل عنايته بالجهاد لتمرير أفكار منحرفة.

وهكذا كل الشخصيات التي تاجرت بالإصلاح السياسي لبث أفكارها المنحرفة فإنه يجب مقاومة تحريفاتها، لا لأنها اشتغلت بالاصلاح السياسي، وإنما لأنها استغلت الإصلاح السياسي لشرعنة تأويلاتها للنصوص.

ياحسرةً على مجموعات رفعت شعار (معارضة الدولة) بينما برنامجها العملي (معارضة العقيدة)..

أريد هاهنا أن أشير لتحفظ ضروري: وهو أنه ليس كل من رفع شعار الإصلاح السياسي وقع في هذه المشكلات، معاذ الله، بل هناك شخصيات سعودية قدمت جهوداً في الإصلاح السياسي مع احترامها لمنهج أهل السنة في العقيدة والفقه، ولا بأس أن نضرب أمثلة من شخصيات بعينها لتأكيد ذلك، فممن لاحظت محافظتهم على الأصول الشرعية ممن لهم جهود إصلاحية: الشيخ سفر الحوالي وسليمان الرشودي وعبدالعزيز الوهيبي ود.محمد الحضيف، ونحوهم ممن لعله غاب عني إسمه الآن، فهؤلاء كلهم كان لهم جهود في الإصلاح السياسي، وحصلت لهم مضايقات إن شاء الله أنها في ميزان حسناتهم، ومع ذلك لم نقرأ لهم حرفاً واحداً في تحريف ونبز عقيدة وفقه أهل السنة والجماعة، بل كلهم يفخرون بالأصول الشرعية ولله الحمد، ولم نقرأ لهم حرفاً واحداً في تأليب الناس ضد العمل الدعوي والإسلامي، فأمثال هؤلاء قامات ينتصب المرء لها إجلالاً.

هناك فقهاء ودعاة كثيرون يقولون لك: يا أخي ثمة أموراً سياسية كثيرة نعجز عنها والله ولا نطيقها، وسنقوم بما نطيقه من القضايا الشرعية، وهذا هو غاية جهدنا، فيأتي من يسمون أنفسهم تنويريين وإصلاحيين ويوسعونهم همزاً ولمزاً ، فإذا رأيت هذا المشهد لم أستطع أن أمنع لساني من أن يتمتم بقوله تعالى:

(الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ) [التوبة، ٧٩]

والله أعلم،،

ابوعمر - شعبان ١٤٣١هـ

من يقف خلف الأسماء المستعارة؟

الحمدلله وبعد،،

حين تتأمل الظاهرة الإسلامية المعاصرة من علماء وطلبة علم ودعاة ومفكرين وأدباء الخ فإنه لا يشدك مثل ظاهرة لطف الشخصية المتدينة وحب الناس لها .. الكثير من أقاربي سمعتهم يتحدثون عن حسن ابتسامة المتدينين للناس .. بل الكثير من الناس يتحدث عن ظرافة الفقهاء والدعاة في دروسهم وحسن فكاهتهم التي يتناقلون شيئاً من أخبارها..

ولذلك حين يتساءل كثير من الليبراليين ما السر في كون التربويين الإسلاميين استطاعوا التأثير في الشباب والأسر بهذا الاتساع الاجتماعي المذهل؟ السبب الجوهري يعود إلى سحر الأخلاق والتضحية التي يبذلها أولئك التربويون الفضلاء..

دعونا من هذا المشهد الذي هو الأصل وهو القاعدة العامة في الظاهرة الإسلامية –ولله الحمد– ولنحاول أن نسلط مجهر التحليل على عينة استثنائية وهامشية وليست ظاهرة عامة بكل حالٍ من الأحوال.. لكن لا مانع برغم هامشيتها أن نقوم بقراءتها..

هناك أسماء مستعارة على الشبكة أخذت على عاتقها نصرة منهج أهل السنة في العقيدة والفقه ومنهج الإصلاح، وكتب الله على أيدي هؤلاء الشباب المباركين خيراً كثيراً، بل نفع الله ببعضهم أكثر من نفع بعض طلاب العلم، لا إشكال في هؤلاء.

ولكن ثمة –أيضاً– أسماء مستعارة أخرى تقحم نفسها في بعض المنتديات والمواقع الاحتسابية، وخصوصاً في التعليق على المقالات في المجلات الإلكترونية، وتستخدم ألفاظ سوقية وأساليب في غاية التفحش والتهتك والقذارة في الرد على المخالف، حتى لوكان خلافه في داخل الصف الإسلامي.

بصراحة وقفت محتاراً أمام هذه الأسماء المستعارة؟ وتناقشت مع بعض الإخوان: من يقف ياترى خلف هذه الأسماء المحدودة؟ هل هم إسلاميون فعلاً أم يتظاهرون بأنهم إسلاميين لتشويه صورة المتدينين؟

حتى لا يكون الكلام تجريدياً فإنني سأضطر اضطراراً لضرب أمثلة لتوضيح المراد:

خرج الأخ القارئ عادل الكلباني بمقالته الملخصة عن حكم المعازف والتي ضمنها اتهام من يحرم المعازف بالغلو، وأن علماءنا مصابون بجرثومة التحريم، وقد بين جمع من أهل العلم والدعوة خطأه في كلا المسألتين، ولكن ثمة أسماء مستعارة على الشبكة وصفت الأخ عادل بنعوت لا يوصف بها مسلم، واستعمل بعضهم عبارات فاحشة يتقزز القارئ وهو يقرؤها، بل وقد وقفت على شخص لمز الأخ عادل بلونه، يا سبحان الله أي جاهلية تلك؟! والله لو كمل التوحيد في قلب ذاك المعلق لما لمز مسلماً بلونه .. ولكنها شُعب الجاهلية التي تسري في بعض النفوس المريضة..

في واقعة أخرى.. أطلعني أحد الإخوان قبل فترة على مقطع يوتيوبي مسجل يعرض فيه من صممه كلمات للدكتور سلمان العودة، حول الإم بي سي حين كان يذمها، ويعرض فيه من صممه صوراً لحيوانات في محاولة للإساءة للدكتور سلمان، مهما بلغ الاختلاف مع الدكتور سلمان في مسائل منهجية معينة، هل يقبل مسلم أن يضع أخاه المسلم في مثل هذا القالب الحيواني؟! اللهم إني أبرأ إليك مما صنع هذا البذئ.

وأخبرني أحد الإخوة عن حوار حادّ دار في أحد الساحات الإلكترونية، بين الأخ الفاضل بدر العامر(د.استفهام) وبعض الأسماء المستعارة الأخرى، ونقل لي عبارات دارت فيه، وكان الأخ الذي أخبرني مفجوع منها، زرت الموقع وكادت تمور بي الأرض لما رأيت ذلك الاسم المستعار يطعن في "عِرض" الأخ الفاضل بدر العامر، كدت أن أتيبس في

مكاني، والله إنها كلمة تنهد لها الجبال الرواسي، هل يقولها رجل يقرأ قوله تعالى (**يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**) **[المطففين، ٦]**.

مهما بلغ الاختلاف مع الأخ الفاضل بدر العامر في مسائل منهجية معينة، هل يصل الأمر إلى أن يطعن هذا الطاعن في عرضه؟! لاحول ولا قوة إلا بالله.

وقبل فترة نشر الدكتور عبدالعزيز قاسم صورة له زار فيها قبر النجاشي، وأكد خلال تلك الحادثة نفي كل معنى غير شرعي قد يتوهمه متوهم، ومع ذلك فإن أحد تلك الأسماء المستعارة اتهم الدكتور قاسم بأنه "قبوري" .. اتهام بالشرك لرجل يعلن بكل صوته براءته منه! تلك اليد التي كتبت هذه التهمة ألا تتذكر قوله تعالى (**الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**) **[يس، ٦٥]**

مهما بلغ الاختلاف مع الدكتور قاسم حول سياساته البرامجية، هل يصل الأمر إلى اتهامه بالقبورية! كبرت كلمة تخرج من فيّ ذاك الطاعن.

وثمة نماذج مماثلة مرت بي، وأظن القارئ قد وقف على بعضها أيضاً.

أول وأضخم حقيقة بدهية قطعية أمتلئ بها إيماناً أن هذه الكتيبة المستعارة لا تمثل الإسلاميين من قريب ولا من بعيد، ووالله لا يزعم أنها تمثل الإسلاميين رجل يخاف الله ورسوله، يا أخي لقد جالسنا طلبة العلم والدعاة، والمفكرين الاسلاميين، والأدباء الإسلاميين، والإعلاميين الإسلاميين، وجنود الظل التربويين الإسلاميين، وما رأينا والله إلا كل لطف وتعامل ودود وتحبب إلى الناس ولله الحمد.

هناك احتمالان مطروحان: هل هذه الأسماء المستعارة المتفحشة هم مجرد فتيان صغار فيهم طيش المراهقة و لا موجِّه لهم واستمتعوا باللعبة؟ أم هم أناس من خارج الصف الإسلامي يريدون تشويه الإسلاميين؟ الله أعلم.

كنت مرة أتابع سجالاً على الشبكة، فنطق أحدهم بعبارة "فاحشة"، فأنكر عليه آخر هذه العبارة، فذهب هذا المتفحش يذكر أدلة على موقفه، الحقيقة أنني اندهشت حين رأيت هذا المتفحش لديه "شرعنة" مسبقة لما يقوم به!

دعونا نفحص أدلته، فربما يكون هناك أشخاص آخرون ينطلقون من هذه الشرعنة.

يقول هذا المتفحش أن النبي –صلى الله عليه وسلم– وابا بكر حفظ عنهم عبارات قالوها كأعضوه بهن أبيه ونحوها، والجواب: أن من تأمل أحوال النبي –صلى الله عليه وسلم– علم أن هذا استثناء وفي حالات خاصة وليس أصلاً عاماً، ولذلك نهى عائشة حين شتمت اليهود، ولو كان يجوز لما نهاها، وهم اليهود!

والمشكلة أن هذا المتفحش جعل الاستثناء أصلاً، والأصل استثناءً، فصارت الأخلاق هي الاستثناء، والفحش هو الأصل. من يحتج بالنصوص الخاصة التي ورد فيها شئ من هذه العبارات ويدع النصوص العامة التي كان عليها عامة سيرة النبي –صلى الله عليه وسلم– فهو كمن يأخذ ببعض حالات الاختلاط العارض ويجعله هو الأصل، هذه طريقة (تقعيد الاستثناءات) أي تحويل الاستثناءات إلى قواعد عامة التي يتبعها أهل الأهواء.

الترفع عن البذاءة في الردود هي طريقة أهل السنة والجماعة، فمن تأمل كتب السلف ومن اتبعهم كردود الامام احمد والدرامي، وردود ابن تيمية، وردود الإمامين ابن باز وابن عثيمين، وردود الوالد عبدالرحمن البراك، رأى فيها كلها التحفظ والترفع عن الإسفاف والبذاءة والسوقية، واختيار أجزل العبارات وأبعدها عن التفحش، وكل مافيها مما هو خلاف ذلك إنما هو استثناء وفي حالات خاصة وليس أصل، فبعض أهل العلم يجيز مثل هذه الأمور على سبيل المقابلة والمجازاة لا على سبيل المبادأة، مع كون الترفع عنها أولى.

ومن الأمور التي احتج بها هذا المتفحش: أن من ينتقدهم يستعملون هم –أيضاً– عبارات مسيئة، كاتهام العلماء والمحتسبين بأنهم عبيد الحكومة وقطيع ويتهمونهم بالسذاجة والسطحية وقصر النظر أو جرثومة التحريم أو الغلو أو بذور الإرهاب أو التسكع ونحو هذه العبارات، والجواب: أن خطأ المخالف في الأخلاق يجب أن لا يقود الداعية –أيضاً– إلى الخطأ، وليحتفظ الداعية برباطة جأشه، يجب أن نكون أرقى أسلوباً من مخالفينا، إنهم ليسوا قدوة لنا.

هل هذا يعني أن (الحزم في الرد في موضعه) ممنوع شرعاً؟ لا، قطعاً، ليس هذا المراد، فإن النبي –صلى الله عليه وسلم– استعمل الحزم في موضعه، ومن ذلك ما في صحيح مسلم عن عدى بن حاتم:

(أن رجلا خطب عند النبى –صلى الله عليه وسلم– فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى، فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– "بئس الخطيب أنت، قل ومن يعص الله ورسوله") [صحيح مسلم، ٢٠٤٧]

وكذلك فإن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال عن عيينة بن حصن لما استأذن **(بئس أخو العشيرة) [صحيح البخاري، ٦٠٣٢]**

وكذلك استعمل الحزم في موضعه أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– فإن عبدالله بن عمر لما روى حديث إتاحة المساجد للنساء اعترض عليه ابنه بلال، فرد عليه ابن عمر رداً حازماً يليق بالموقف لتعظيم النص، حيث جاء في الصحيح:

(أن عبد الله بن عمر قال سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول "لا تمنعوا نساءكم المساجد إذا استأذنكم إليها" ،. قال فقال بلال بن عبد الله "والله لنمنعهن" ، قال: فأقبل عليه عبد الله فسبه سباً سيئاً ما سمعته سبه مثله قط، وقال: "أخبرك عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وتقول والله لنمنعهن") [صحيح مسلم، ١٠١٧].

والمراد أن استعمال الحزم في الرد في موضعه أصل شرعي، لكن التفحش والبذاءة واعتياد الألفاظ السوقية الشوارعية في الردود هذا كله مخالف لطريقة أهل السنة والربانيين الذين ادركناهم من أهل العلم.

ولذلك فإنني ألتمس من إخواني الذين يكتبون بهذه الطريقة بأسماء مستعارة أن يتحاشوا هذه الطريقة لأمرين: لأنها خلاف المنهج الشرعي أولاً، ولأنها مضرة بمصلحة وصورة الدعوة ثانياً، ولا يعتمدوا على كلامي أنا شخصياً، بل ليذهبوا

لأحد أهل العلم الكبار الموثوق في علمهم وديانتهم وربانيتهم، وليسألوه عن حكم هذه الأساليب البذيئة، وستجدون كيف ينفر أهل العلم عندنا من هذه الأساليب.

على أية حال .. لا زال السؤال يحيرني: من يقف ياترى خلف تلك الأسماء المستعارة المتفحشة؟

والله أعلم،،

ابوعمر

شعبان ١٤٣١هـ

لحظة فداء

قبل فترة قريبة مرّ بي مشهد مؤثر شعرت معه كأنني توقفت عن التنفس .. وفي لحظات يسيرة طافت بذهني ذكريات قصص كثيرة سمعتها .. هذا المشهد الذي رأيته كأنما قدح شرارة في مخزن الذكريات .. ومازالت تتقافز أمام عيني كل ما أتذكره من قصص ذات صلة بهذا المشهد ..

دعوني أحدثكم أولاً عن هذه الذكريات والقصص التي هجمت علي متزاحمة في لحظات يسيرة.. ثم أروي لكم المشهد المؤثر الذي استثارها..

من هذه القصص التي تذكرتها قصة أحد الإخوان الذين لي بهم علاقة خاصة، حكى لي مرة أنه كان نازلاً من الدور الثاني في منزله، ويحمل بين يديه بنيّته التي شارفت إكمال الربيعين من العمر، يقول صاحبي: وأنا في وسط درجات السلّم نازلاً عثرت قدمي، فسقطت وبنيتي بين يدي، فوجدتني بشكل تلقائي سريع أنحرف إلى الأرض بالطرف الآخر من جسمي لأداري عن بنيّتي سقوطها على الأرض، وبسبب رفعي لها بكلتا يدي فإني لم أستطع أن أحمي نفسي، فتسبب لي ذلك بكدمات شديدة، وذهبت بنيّتي تكمل لعبها وهي لاتعلم مالذي جرى لي!

فكنت أتعجب كثيراً من مشاعر الأبوة هذه التي جعلته بشكل عفوي سريع يؤلم نفسه لتسلم بنيته!

قصة أخرى مماثلة تذكرتها أمام ذلك المشهد، وهي قصة صاحب آخر حكى لي مرة أنه لازال يتذكر وهو صغير أنه كان في ليلة من الليالي مريضاً يئن طوال الليل، وأن والدته كانت بجانبه تنظر إليه وتختنق أنفاسها مع كل زفرة من أنينه، وتتوجع له حتى تكاد تخرج روحها من التألم له، ليس هذا كله هو الملفت، وإنما يقول صاحبي أنه كان يسمع والدته – رحمها الله– كانت تتمتم بدعاء وتقول "ياليته فيني ولافيك .. ياليته فيني ولافيك وأنا أمك".

فكنت أتعجب كثيراً كيف تتمنى تلك الوالدة الحنونة أن يكون المرض فيها وليس في ولدها، يالمشاعر الأمومة هذه التي لايمكن تخيل مدى فدائها لفلذة كبدها..

قصة أخرى شبيهة بما سبق تذكرتها أيضاً أمام ذلك المشهد، يقول لي صاحبي: أنه كان مرة من المرات في غاية الإرهاق ويتضور جوعاً، ولما وصل المنزل طلب من زوجته وجبة هي من أطيب وأشهى الوجبات إلى نفسه، وأخذ يتشاغل بكل شئ ريثما ينتهي إعداد الوجبة، فلما انتهى الأمر ووضع الطبق بين يديه بعد أن كاد يعصره الانتظار، جلس بجانبه طفله الصغير وأخذ يشير إلى الطبق، ثم يشير إلى فمه، وينظر إلى والده، لم يكن الطفل جائعاً بقدر ماهو تطفل الصغار، ومع ذلك فإن هذه التوسلات أنسَت الوالد نفسه وأخذ يلقّم طفله الصغير ونسي نفسه ..

ياللدهشة .. كيف يغيب الإنسان عن نفسه أمام توسلات طفله الصغير .. تلك أحاسيس الأبوة..

وخير من هذه القصص السابقة، وأشرف وأجل منها، قصة أخرى قفزت لذهني حين كنت أمام ذلك المشهد المؤثر، وهي قصة وقعت أمام النبي وأصحابه في السنة الثامنة للهجرة، وذلك أنه حين جاء سبي هوازن رأى النبي فيه أماً حنونة ملهوفة تبحث في السبي عن صبيها، ويروي عمر بن الخطاب القصة فيقول:

(قُدِم على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بسبى، فإذا امرأة من السبى تبتغى إذا وجدت صبيا فى السبى أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا رسول الله «أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار». قلنا لا والله وهى تقدر على أن لا تطرحه. فقال رسول الله « لله أرحم بعباده من هذه بولدها ») [البخاري:٥٩٩٩، مسلم: ٧١٥٤]

فتعجب النبي –صلى الله عليه وسلم– من شدة لهفة هذه الأم بصبيها حتى كانت تلتقط صبياً إثر صبي من السبي فتلقمه ثديها !

فياسبحان الله ما أعظم مشاعر الأمومة والأبوة تجاه أطفالهم، وهذا ليس شأناً مختصاً بالبشر، بل حتى الحيوانات العجماوات تحمل من مشاعر الأمومة الحنونة شيئاً مثيراً للأحاسيس وكوامن النفوس، ففي سنن أبي داود عن ابن مسعود أنه قال (**كنا مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فى سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حمّرة معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمّرة فجعلت تفرش، فجاء النبى فقال « من فجع هذه بولدها ردوا ولدها إليها») [سنن أبي داود: ٢٦٧٧]**

فانظر كيف كان هذا الطير يفرش جناحيه ويدنوا إلى الأرض مفجوعاً بفراخه، فكيف تكون مشاعر الآدميين تجاه أطفالهم؟!

بل وفي صحيح البخاري أيضاً أن النبي –صلى الله عليه وسلم– حين ذكر الرحمة التي أنزلها الله في الأرض يتراحم بها الخلق قال عن الحيوانات (**حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه) [البخاري: ٦٠٠٠]**

المهم .. أن هذه القصص العجيبة الأخاذة المدهشة أخذت تتلاحق أمام عيني بصورة حزينة حين كنت أمام مشهد مؤثر مرّ بي قبل أيام .. أتذكر هذه القصص ثم أعيد التأمل في هذا المشهد الذي استحوذ على أحاسيسي..

أتدري ماهو هذا المشهد المؤثر الذي استثار كل هذه القصص في نفسي يا أخي الكريم؟

إنه بكل اختصار "آية" من كتاب الله كادت تذهب بعقلي وأنا أقرؤها .. فكل ما أعرف من رحمة الأبوة والأمومة بأطفالهم فإنه سيذهب بها هول لحظة مشاهدة النار يوم القيامة فيتمنى الأب العطوف والأم الحنون أن يتخلصوا من هذه النار حتى لو أرسلوا فلذات أكبادهم إليها، يقول الحق تبارك وتعالى في مشهد مرعب:

(يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ) [المعارج: ١١]

يا ألله .. يا فرجنا إذا أغلقت الأبواب .. اللهم السلامة السلامة من هذه النار التي أذهبت عقل الوالدين من شدة أهوالها حتى نسوا أغلى الناس إليهم، بل تمنوا أن يكون أولادهم مكانهم ويتخلصوا منها !

أطفالهم الذين كانوا يفدّونهم ويقدّمونهم على أنفسهم، ستأتي لحظة الفداء الكبرى التي تصعق فيها النفوس من شدة الهلع حين تسمع فوارن نار يوم القيامة وشهيق لهبها وهي تأكل الناس والحجارة .. وأمام ذلك المشهد فإن الوالد يود لو يفتدي من عذاب يومئذٍ ببنيه!

يا ألله .. إلى هذه الدرجة يصل الهول والرهبة .. يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذٍ ببنيه..

أمام هذا الذعر المهول تذهب كل تلك الأحاسيس العطوفة .. أي رعب أكثر من هذا الرعب الذي ينسي الوالدين مشاعر الأبوة والأمومة؟! أي مشهد مخيف ذلك الذي ينسي الوالدين فلذات أكبادهم؟!

(يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ) ..

ياربنا السلامة .. السلامة ..

ابوعمر

ربيع الأول ١٤٣٠هـ

وظيفة الإنسان (مقتطع من مآلات الخطاب المدني)

ما هي وظيفة الإنسان؟ هذا هو السؤال/المدخل الذي تعود إليه الاختلافات الجوهرية للاتجاهات الفكرية كما سبق أن أشرنا، وهناك اتجاهان رئيسيان في الجواب على هذا السؤال:

أولهما هو "الاتجاه المدني" ويرى أن وظيفة خلق الإنسان هي "العمارة" وكل ماسوى ذلك وسيلة لها، فالوحي والشرائع والعبادات إنما هي وسائل لتحقيق العمارة والحضارة والمدنية، فالعمارة هي الغاية الجوهرية والأولوية الرئيسية للإنسان، وانبنى على ذلك أن اشتغل هذا الخطاب بقضية التمدن وتوجيه كافة المعطيات الأخرى إليها والتسامح في كل ماسواها، ومن ثم تقييم المجتمعات والثقافات والشخصيات بحسب منزلتها في هذه "المدنية" الدنيوية.

و"المدنية" بحسب هذا الاتجاه مفهوم شامل يدخل فيها كل ما يدفع باتجاه تحقيق الرفاه البشري وسعادة الجنس الإنساني في كافة ميادين الحياة الدنيوية، والتقدم في العلوم الفلسفية والإنسانية والطبيعية والفنون، ونحوها.

أما الاتجاه الثاني وهو "الاتجاه الشرعي" فيرى أن وظيفة الإنسان هي "العبودية" بمعنى أن الله خلق الإنسان وأرسل الرسل وأنزل الكتب لتدل الناس على الله وعبادته، وبيان دقائق ما ينبغي له سبحانه وما لا ينبغي في معاملته جل وعلا، وبيان قواعد تنظيم حقوق العباد، وأن كل ما في هذه الدنيا إنما هو متاع ولعب ولهو، فيجب أن يستعان بما يحتاج منها على عبودية الله، وكل ما لم يعن على عبودية الله ولم يؤد إلى هذا الغرض فهو دائر بين مرتبتين لا ثالث لهما: إما محرم يجب الكف عنه، وإما فضول يشرع الزهد فيه.

فالعمارة والحضارة والمدنية مجرد وسيلة لإظهار الدين وإقامة الشعائر والشرائع، فلا يحمد من هذه المدنية إلا ما حقق هذه الغاية، وتتلخص منزلة المدنية بكل اختصار في المبدأ الأصولي الشهير المعروف بـ"بمقدمة الواجب" والذي ينص على أن: (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب)، وعليه فإنه إذا تم بدونه فلا يجب.

وحين تكلم الإمام ابن تيمية عن "وظيفة الدولة" حسب التصور الإسلامي في كتابه "السياسة الشرعية" قدم تلخيصاً هاماً يكشف وسيلية المدنية وكونها مرتبطة بالغاية الدينية، كما يقول الإمام ابن تيمية:

(فالمقصود الواجب بالولايات:
١- إصلاح دين الخلق الذي متى فاتهم خسروا خسراناً مبيناً، ولم ينفعهم ما نعموا به في الدنيا.
٢-إصلاح ما لا يقوم الدين إلا به من أمر دنياهم).
و"العبودية" بحسب هذا الاتجاه نظام من الشُّعَب التدريجية الشاملة أعلاها قول لاإله الا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، فتبتدئ بإفراد الله وتجريد القلب له ويليها الفرائض العينية ثم الفروض الكفائية التي يتحقق بها نفع الناس في مصالحهم العامة.

واذا تزاحمت شعبتان من شعب العبودية فلايقدم مايتعلق بالشأن المدني مطلقاً، بل ثمة قواعد شرعية دقيقة في المفاضلة والموازنة بين مراتب الاهتمامات والأعمال والشؤون العامة، ككون رعاية الفضيلة مقدمة على الحرية الفنية، وتقديم الفرض العيني على الكفائي، وتقديم النفع المتعدي على النفع الخاص، وتقديم الواجب على المندوب، ونحو ذلك.

ولذلك فإن جمهور الأعمال العبادية المحضة تندرج في "الأحكام التكليفية" باعتبارها الصورة النهائية للمراد الإلهي، وجمهور الأعمال المدنية الدنيوية تندرج في "الأحكام الوضعية" كالسبب والعلة والشرط والمانع باعتبارها وسيلة للحكم التكليفي.

ومن ثم ينبني على هذه الرؤية تقييم المجتمعات والثقافات والشخصيات بحسب منزلتها في هذه "العبودية".

وتفريعاً على اختلاف هذين الاتجاهين في تحديد الوسيلة والغاية انبنت أكثر الفروق الهائلة والتفاصيل اللانهائية من الآثار، واستتبع ذلك تفاوتاً كبيراً في المواقف، فكل قضية فكرية يختلف فيها الناس تجد فريقاً لحظ أثر هذا الموقف على العبودية والفضيلة فاتخذ موقفا معينا، بينما الفريق الآخر لحظ علاقة هذه القضية بالحضارة والمدنية فاتخذ موقفاً مغايراً، فكل فريق معني بغايته ومقصده النهائي.

والحقيقة أن كتاب الله سبحانه وتعالى لم يجعل هذه القضية عائمة أو محتملة أو نسبية، بل حسمها بشكل يقيني واضح صريح وكشف الغاية من خلق الإنسان بلغة حاصرة فقال سبحانه وتعالى:

{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إلا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات:٥٦]

وبين سبحانه أنه إنما بدأ خلق الإنسان في هذه الدنيا ثم بعثه بعد موته ليحاسبه على هذه الغاية وهي القيام بالعبودية كما قال سبحانه:

{إِنَّهُ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ} [يونس:٤]

وفي كثير من المواضع ينبه سبحانه وتعالى بين ثنايا الآيات على أن وظيفة الخلق وغايته إنما هي ابتلاء الناس في هذه العبودية كما قال سبحانه:

{الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} [الملك:٢].

وحسن العمل هذه الآية ونظائرها هو الإيمان والعمل الصالح على حسب درجاته الشرعية، ولو كانت عمارة الأرض بالحضارة والتمدن والعلوم الدنيوية هي المقصود الأولوي بحسن العمل لما أرسل الله الرسل في التاريخ البشري أصلاً، لأن الله سبحانه قد أثبت تميز تلك الأمم أصلاً في عمارة الأرض وعمق علمها بالدنيا، كما قال تعالى عن الأمم السابقة:
{كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا} [الروم:٩]
وقال عن علمهم المدني:
{يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [الروم:٧]
وبين سبحانه وتعالى وظيفة النبوات والكتب السماوية والشرائع وأنها كلها تهدف لتأكيد عبادة الله والاستعداد للحياة المستقبلية بعد الموت، وليست المنافسة العالمية في المدنية والحضارة الدنيوية، كما قال تعالى عن وظيفة الرسل:
{ولَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ..الآية} [النحل:٣٦]

وذكر سبحانه السؤال الإلهي عن تحقيق هذه الغاية فقال سبحانه:

{يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا} [الأنعام:١٣٠]

وقال سبحانه مبيناً وظيفة الشرائع:

{ومَا أُمِرُوا إلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ} [البينة:٥]

وغير ذلك كثير من محكمات الوحي التي كشفت بشكل حاسم غاية خلق الإنسان، والذي يعنينا هاهنا ذكر بعض الشواهد لا استقراؤها.

الوسطيتان

قال لي أحد أقاربي ذات مساء ونحن نتمشى سوياً: (ياخي فتاوى الشيخ الفضائي فلان أطلق من فتاوى ابن عثيمين). قلت له: لم؟ .. أطرق هنيهة .. ثم قال: (ياخي أحس أنه "**شيخ وسطي**") .

انتهى المشهد هاهنا .. وساحت بي الذكريات بعيداً بعيداً ..

تذكرت المحضن الذي انطلقت منه شرارة السجالات الفكرية في السعودية .. إنه "**موقع الوسطية**" الذي كان مهندسه الدكتور الفاضل محسن العواجي ..

ثم هذا الاستنزاف المكثف لمصطلح "الوسطية" في الصحافة المحلية .. حتى وصل الاحتدام إلى معركة كلية اليمامة ومسرحيتها الشهيرة (**وسطي بلاوسطية**) .. وخلال الأعوام الأخيرة بتنا نرى الأمير خالد الفيصل (أو الشيخ خالد الفيصل!) يشرح لنا –جزاه الله خيراً– في عدة ندوات ومقالات معنى "**الوسطية في الإسلام**" !

وفي مطلع هذا العام أعلن كرسي بحث الأمير سلطان بجامعة الملك سعود عن إطلاق مشروع ضخم باسم (**موسوعة أبحاث الوسطية**) ! الخ الخ

حسناً .. أين المشكلة؟!

المشكلة أن الوسطية في القرآن ليست وسطية واحدة، بل هي وسطيتان، وسطية مطلوبة، ووسطية مرفوضة.

فمن "الوسطية المطلوبة" في القرآن ذلك الدعاء القرآني المبهر الذي ندعوا به يومياً عشرات المرات:

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ** صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ) الفاتحة (٦–٧)

فانظر بالله عليك كيف ترسم هذه الآية خط "الصراط المستقيم" وسطاً بين مسار (المغضوب عليهم) ومسار (الضالين).

ولذلك استحقت هذه الأمة الوصف القرآني المشرف:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا) البقرة (١٤٣)

هذا من حيث الإسلام كله، أما من حيث شرائع الإسلام التفصيلية فإن الله لماذكر الصلاة قال:

(وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلا) سورة الإسراء (١١٠)

فجعل ابتغاء السبيل بين "الجهر" و "المخافتة" وسطية مطلوبة.

وحين ذكر الله النفقة قال:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا) الفرقان (٦٧)

فجعل النقطة الوسط بين الإسراف والتقتير "قواماً" أي وسطية مطلوبة.

وهناك الكثير من شواهد الوسطية المطلوبة في القرآن.

لكن هل هذا كل شئ؟ هل هذه هي الوسطية في القرآن؟

لا .. ثمة لون آخر من الوسطية شرحه القرآن أيضاً .. وإن كان يتغافل عنه مروجوا "وسطية الميديا" ..

فإن الله تعالى لما ذكر أصحاب محمد وخصومهم، ذكر طائفة أخرى من الناس أرادت أن تنتهج منهج "الوسطية" بين الفريقين، فقال تعالى عن هذه الوسطية المرفوضة:

(مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لا إِلَى هَٰؤُلاءِ وَلا إِلَى هَٰؤُلاءِ) سورة النساء (١٤٣)

وهؤلاء أصحاب الوسطية المرفوضة تجدهم دوماً يحاولون أن يحسنوا العلاقات مع أهل الحق وخصومهم، أو كما يقولون بلغتهم المفضلة (نبني جسور العلاقات مع جميع الأطراف!)، كما قال تعالى عن هذا المظهر من مظاهر وسطيتهم:

(سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا) سورة النساء (٩١)

الطريف في الأمر أن هؤلاء الوسطيين تلعب بهم "النفعية والبراجماتية" إلى مداها الأقصى، فإن كان النفوذ لأصحاب الدعوة كانوا معهم، وإن كان النفوذ لخصوم الدعوة كانوا معهم، كما قال تعالى:

(الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ، وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) سورة النساء (١٤١)

ووجد في عصر النبي –صلى الله عليه وسلم– من كفر بالكتب السماوية كلها، ووجد فيها من آمن بها كلها، ووجد الفريق الثالث وهو من توسط بين الفريقين، فآمن ببعض كلام الله وترك البعض الآخر، فهل كانت هذه وسطية محمودة؟ لقد ندد القرآن بهذه الوسطية بكل وضوح فقال:

(أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ) البقرة (٨٥)

ربما كان اللافت فعلاً أن القرآن استعمل هذه الصيغة (ابتغ بين ذلك سبيلا) في كلا نوعي الوسطية، فجعل مرة ابتغاء السبيل بين الأمرين وسطية مطلوبة، وجعل مرة أخرى ابتغاء السبيل بين الأمرين وسطية مرفوضة.

ففي المرة التي استخدم فيها "ابتغاء السبيل بين الأمرين" في الوسطية المطلوبة يقول تعالى:

(وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلا) سورة الإسراء (١١٠)

وفي المرة التي استخدم فيها "ابتغاء السبيل بين الأمرين" في الوسطية المرفوضة يقول تعالى:

(وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلا) النساء (١٥٠)

حسناً .. ماهو الفرق إذن بين هاتين الوسطيتين في القرآن؟

الحقيقة أن الوسطية المطلوبة في القرآن تجدها دوماً (حق بين باطلين) .. أما الوسطية المرفوضة في القرآن فتجدها دوماً (وسط بين الحق والباطل)

فهؤلاء الذين ينادون دوماً بالوسطية الدينية، والوسطية في فهم الإسلام، إن كانوا يعنون بالوسطية وسطية "أصحاب محمد" في تفسير النص، والموقف من العلوم المدنية، والموقف من الكافر، ودور المرأة ، وضوابط الحريات الشخصية، الخ.

فهذه وسطية مشكورة محمودة، ونحن جنود لكل راية تحمل هذه الوسطية.

أما إن كان المراد التوسط بين منهج أصحاب محمد والفكر الغربي، فهذه وسطية مردودة ونحن —بعون الله– خصوم لهذه الوسطية التي سبق أن شرح القرآن نظيرها فقال:

(مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَى هَؤُلاءِ وَلا إِلَى هَؤُلاءِ) سورة النساء (١٤٣)

ابوعمر – رمضان ١٤٣٠هـ

الإصلاح في السعودية.. ليس مسألة فقهية!

أطالع بين الحين والآخر مقالات يكتبها بعض الشباب السعودي المثقف.. سواء في الصحف أو في المنتديات السعودية.. يتحدثون فيها عن ضرورة 'الاصلاح الديني' ..
وأن التنمية تمر أولاً من بوابة (التغيير الديني) ..
وأن جوهر المشكلة في مجتمعنا تتركز في (التصور الديني) ؛ ولذلك فلابد من البداية بتطوير هذا التصور الديني ذاته ..
ويتم في هذا السياق استجلاب حقب تاريخية (كعصر الأنوار مثلاً) للتدليل على أولية هذا المدخل ..
وبعضهم يردد العبارة الطرابيشية (لن يوجد فولتير عربي قبل لوثر مسلم) وهو تكثيف بلاغي يركز هذا الايمان المطلق بهذا المسار التاريخي في التراث الغربي..

وأننا لايمكن أن ننهض إلا وفق (منظور ديني) جديد ..
وسيل من المشاركات الشبابية الإلكترونية واحدة تلو أخرى حول دور المشائخ التقليديين في عرقلة التنمية، ودور المتدينين في توريط المجتمع في حالة المعاناة والبؤس الاجتماعي الخ..
والحقيقة أنني تشبعت تماماً بمثل هذا الكلام .. وأصبحت أحفظ بعض مقطوعاته عن ظهر قلب ولله الحمد.. وتأثرت به كثيراً لدرجة أن فكرت مرة أن لا أترحم على البخاري ومسلم وابن قدامة وابن تيمية حين يرد ذكرهم.. بسبب ماتسببوا فيه من هذه المعاناة الاجتماعية..
فمن غير المعقول أن يتواطأ كل هؤلاء الكتاب على تأكيد هذه الحقيقة .. وتصبح في النهاية مجرد وهم ..
وفعلاً .. بدأت أبحث عن دور ابن كثير وجماعته في مشاكلنا الاجتماعية والاقتصادية..
وأخذت أتأمل 'ملفات التنمية':
هل كان المشائخ هم اللاعب الرئيسي فيها فعلاً؟
هل البعد الديني هو المؤثر الجوهري في الموضوع؟
من المؤكد أن هؤلاء الكتاب رأو شيئاً لم أره .. فيجب البحث عنه..

والحقيقة أنني وجدت قضايا الاصلاح والتنمية المطروحة على مستويين:
إذا كانت قضايا الاصلاح والتنمية هي (قيادة المرأة، وبطاقة المرأة، وتوسيع الاختلاط، والحفلات الموسيقية، والسينما، وحرية التجديف السردي، الخ)
فأعترف بكل وضوح أن المشكلة هاهنا 'مشكلة دينية' فعلاً ..
وأعترف تبعاً لذلك أن الصحيحين والمغني وفتاوى ابن تيمية هي المسؤول الأول عن حالة الممانعة الاجتماعية ضد هذه الملفات .. حيث قدمت هذه المصادر مفاهيم وتصورات دينية تتحسس تجاه هذه القضايا ..
لكن إن كانت قضايا الاصلاح والتنمية هي قضايا (الاسكان، والتعليم، والصحة، والمواصلات، والتضخم، والدين العام، والفساد الاداري، الخ)
فلست أدري أين الاشكالية الفقهية هاهنا ياترى؟
ولنكن واقعيين أكثر .. ودعونا نطالع (الأسرة السعودية) ومعاناتها الحقيقية:
يشارف الفرد السعودي اليوم على التقاعد وهو لم يتمتع بمسكن خاص..
وحين يصل الابن لمرحلة الثالث ثانوي تعلن حالة الطوارئ بحثاً عن قبول جامعي..
وحين يتخرج شقيقي تبدأ العائلة كلها في استجداء كل العلاقات حتى الجد العاشر بحثاً عن واسطة توفر له أية وظيفة .. أية وظيفة ..
وحين تمرض والدتي لا ألجأ إلى الواسطة فقط .. بل ألجأ إلى (الواسطة بالأسانيد) يعني واحد يعرف واحد، وهالواحد يعرف آخر، لين نصل إلى شخص مقرب من مدير المستشفى ليوفر لها سريراً ..
وتنخفض القوة الشرائية لراتبي مقابل ازدياد قيمة السلع .. وراتبي هو هو لم يتغير ..
وتزداد الطرق كل صباح اختناقاً مرورياً ..
ويتناقص الأمن بصورة مرعبة تبدأ بالأحياء الفقيرة والمكتظة حتى تصل إلى أحياء الطبقات الوسطى .. ليصبح كسر السيارة والتهام كل محتوياتها بما فيها حاسوبك الشخصي الذي يحوي كل ملفاتك وأعمالك = أمراً عادياً لايستدعي من الضابط الذي يتلقى البلاغ إلا أن يشعرك ببروده أن قضيتك عادية جداً، وتصير كل يوم كم مرة، ولاتكبر الموضوع

يعني..
وأكثر ساعات قراءتي هذه الأيام تكون في اليوم الذي أراجع فيه وزارة من الوزارات.. لأن ساعات الانتظار الطويلة تتسع لجرد أغلب الكتاب ومشاهدة المارة بالقدر الكافي جداً..
وحين أصل المطار قبل نصف ساعة .. يشيح الموظف بوجهه عني ويقول 'الرحلة قفلت'.. وفي الرحلة التي بعدها يؤخروننا ساعة كاملة لأن أحد أبناء الذوات اتصل بهم من جواله الشخصي وقال إنه في الطريق ..
الخ .. الخ .. الخ ..
بالله ياسادة .. إشرحوا كيف استطاع الصحيحان وابن قدامة وابن تيمية خلق كل هذه الأزمات ؟
أين الاشكالية الفقهية التي تسببت في تراكم هذه المشاكل المعقدة ؟
حسناً .. لنمارس شيئاً من الخيال .. افترض أننا استطعنا فعلاً منع 'الصحيحين والمغني وفتاوى ابن تيمية' من إعادة طباعتهما ومنعنا تداولهما قطعياً.. ووزعنا بدلاً منهما 'فتاوى شحرور وجمال البنا' .. وتجاوز الناس كل محرمات الاسلام.. ولم يعد هناك أي حواجز شرعية ضد أية ممارسة:
فهل سيتوقف نفوذ علية القوم في القضاء تلقائياً؟
وهل سيتوقف الاقطاع العقاري لأبناء الذوات؟
وهل ستتوقف حالات اجتياح شركات رجال الأعمال الناجحين وفرض المشاركة عليهم جبراً؟
وهل سيتوقف صراع اقتسام الكعكة بين الأجنحة المتنافسة على السلطة؟
وهل ستتوقف حمى ارتفاع الأسعار؟
لنكن عقلانيين .. ثمة دول ومجتمعات 'لادينية' بكل ماتحمله الكلمة من معنى.. أي لاتعير الدين أصلاً أي اهتمام.. كبعض مجتمعات شرق أوروبا وأفريقيا.. ومع كل هذه النزعة المحايدة تجاه الدين= نجدها تعاني من فساد ضخم ينخر أجهزة الدولة.. وخدمات في غاية السوء.. وحالة أمنية مزرية..
افتراض أن (التساهل الفقهي) هو الذي يجلب (التنمية) اختراع سعودي مضحك ..
وافتراض أن إعادة تفسير النصوص لتتناسب مع المفاهيم الغربية هو الذي سيصلح لنا من أزمات الاسكان والصحة والفساد .. هذا كله مجرد إضاعة وقت، واستفزاز لمشاعر المتدينين فقط..
بل هو تضليل للوعي الاجتماعي عن مصدر الكارثة الحقيقية .. وهذا التضليل يصب في مصلحة المتنفذين طبعاً .. ولذلك يدعمون هذا النوع من الكتاب ..
ثمة مجتمعات 'كافرة' أصلاً لاتدين بأية شريعة سماوية .. ومع ذلك تعيش الأكثرية فيها بأحط مستويات دخل الفرد .. فهل صنع لها هذا الانفلات الديني 'تنمية' ؟!
أكبر خديعة معاصرة ابتلعها الشاب السعودي المثقف هي إيهامه أن 'مصادر التراث هي التي صنعت أزمة التنمية' ! وهذه الخديعة بالذات هي أكبر خدمة تلقاها المتنفذون على مر تاريخنا المحلي ..
حين يستطيع المتنفذون تصريف طاقة النضال في الشاب من الشجاعة في الصدع بالحق في وجوه الظلمة إلى الشجاعة في التجرأ على عقيدة المجتمع ذاته.. فهذا مكسب سياسي لامحدود..
فأفضل وسيلة للاحتفاظ بالنفوذ (تغذية النزاعات الخفيفة المحدودة والمحكومة استراتيجياً) كما كان يقول العم كيسنجر (Low intensity conflicts) .
لكن من أين جاء هذا الوهم ياترى؟

أقصد كيف تصور هؤلاء الشباب المخدوعون أن المشكلة التنموية هي مشكلة دينية في الأساس؟
ربما من مصادر هذا الوهم النقل الحرفي لتجربة عصر الأنوار في التراث الغربي باعتبارها مسار حتمي ..
ومع ذلك ففي تقديري أن أهم عوامل هذا الوهم الشائع هو (التصور المبالغ فيه لنفوذ المشائخ) في مجتمعنا ..
البعض يتصور أن المشائخ عندنا قادرين على تحريك خيوط اللعبة كلها .. وأنهم لو ضغطوا باتجاه ما .. لسارت الدولة في هذا الاتجاه .. وتفريعاً على تغولهم السياسي هذا فالمسؤولية مسؤوليتهم ..
وأن المشائخ لو أججوا الشارع للمصالح الشعبية لتحققت ثورة نهضوية، ونحو هذه التصورات البسيطة جداً ..
والحقيقة أن هذا —مع كل احترامي– تصور طفولي مبالغ فيه جداً ..
لايمكن لأي دارس للحالة السعودية إلا أن يوقن أن 'الدولة' هي اللاعب الرئيسي والحقيقي في بيئتنا المحلية .. وأن كل القوى الأخرى قوى ثانوية جداً ..
بل وفي خاطري أن أقول هي اللاعب الوحيد أصلاً، لكني خجلت من تهمة المبالغة فقط ..
لنحاول أن نقرأ هذا النفوذ الموهوم للمشائخ .. تعالوا لنقرأ أهم القضايا التي تحمس لها المشائخ وماذا استطاعوا أن يحققوا منها :
أكثر قضية حساسة في وعي كل مسلم هي 'الربا' .. ومع كل التعبئة الاجتماعية ضده فرضه النظام حيث كان يعنيه الأمر .. ووفر له أقوى الأجهزة الإشرافية ..
بذل المشائخ من أيام حظوتهم كل الفتاوى الغليظة ضد 'التنباك' و 'الشيشة .. 'ومع ذلك تصادفك لياتها المتدلية في كل زاوية على الشارع.. وتعرض عليك بكل نكهاتها .. وتوفر البكتات لطلاب المرحلة المتوسطة والثانوية !
وتحرك المشائخ بكل مافي وسعهم لمقاومة 'الحفلات الغنائية' .. ومع ذلك بقيت جزءاً من الفعاليات الصيفية كل سنة ..
وظل المشائخ يقاومون عقود التأمين التجاري.. وصار اليوم 'إجبارياً .. '
وصنع المشائخ كل مافي وسعهم لمقاومة 'توسعة المسعى' .. ومع ذلك فرضه النظام حين أراده ..
واجتمع العلماء والدعاة كلهم، ووقعوا على مايشبه الميثاق الاصلاحي حينها 'مذكرة النصيحة' ، والتي شملت جميع مرافق الوطن ..
ومع ذلك تعرض كل مهندسي المذكرة إلى تطورات سلبية في حياتهم الشخصية.. وانفض السامر !
بالله .. هل لازال هناك من يصدق حكاية نفوذ المشائخ !
وبالتالي فإن أول قواعد الاصلاح السياسي هي أن (المسؤولية على قدر السلطة) وطالما أن الفقهاء في مجتمعنا لايملكون النفوذ الموهوم .. فهذا يعني أن التفكير من خلال هذا المدخل إمعان في الوهم ..
وهذا يعني أن أولئك الشباب المساكين الذين أضاعوا أوقاتهم، وأوقاتنا معهم، في قضايا إعادة قراءة النص، وإعادة تأويل الاسلام، والارتياب في معطيات المصادر الشرعية، أنهم كلهم يخدمون مصالح المتنفذين بصورة غير مباشرة ..
لماذا؟ الجواب وببساطة .. لأن تحريف 'النصوص الشرعية' لن يجعل الأمة مكتوفة الأيدي تقرأ بتبسم وبرود .. بل سيتحرك الغيورون ليدافعوا عن دينهم أولاً .. قبل أن يدافعوا عن مصالحهم المدنية ..
أرأيتم كيف أن ترهات التأويل الديني تضر الاصلاح أكثر مما تنفعه ..
ولذلك لطالما كنت مؤمنا أن المسؤول عن تراجع الاصلاح السياسي ليس هو النظم العربية الفاسدة فهي أضعف من كبت اندفاع الشباب .
والاصلاحيون السياسيون أيضا ليسوا ممنوعين عن الاعلام فهم يستضافون في الحوارات الفضائية، وتنتشر مقالاتهم في شبكة الانترنت .

فلماذا انسحب كثير من الشباب المسلم عن دعاة الاصلاح السياسي؟

ولماذا تراجع وهجه هذه الأيام؟

المسؤول عن تراجع الاصلاح السياسي ليس هو النظم العربية الفاسدة، وليس هو الشخصيات الحكومية، وإنما المسؤول الرئيسي عن ذلك هم الاصلاحيون السياسيون أنفسهم !

نعم .. هذه حقيقة يجب أن نعترف بها لكي نتمكن من معالجتها بشكل صحيح.. إذا كان فينا شعرة حمية وغيرة على الاصلاح السياسي فيجب أن نعترف بهذه الحقيقة لكي نعالجها .

فكثير من المنتسبين للاصلاح السياسي جعلوا الاصلاح السياسي نقيض الاصلاح العقدي .

وكثير من المنتسبين للاصلاح السياسي –تحت وطأة رغبتهم في حشد الاهتمام للاصلاح السياسي– تورطوا في تسفيه بقية الاهتمامات الشرعية الأخرى من عقدية وفقهية .. مما سبب ارتياب كثير من الشباب المتدين في هذا الاتجاه ..

والبعض يقول إن مسؤولية الفقهاء تكمن في 'كونهم أشغلوا الأمة بفتاوى العبادات والمعاملات عن قضايا الاصلاح السياسي .. '

وهذا طرح في غاية التبسيط .. لأنه هذا كمن يقول للمربين: أشغلتم الناس بقضايا الأسرة والطفل عن قضايا الإصلاح!

أو من يقول للاعلاميين: أشغلتم الناس بأخبار العالم عن قضايا الاصلاح !

أو من يقول للأدباء: أشغلتم الناس بالشعر والقصة عن قضايا الاصلاح !

أو من يقول للرياضيين: أشغلتم الناس بالرياضة عن قضايا الإصلاح !

وهكذا .. دواليك ..

فهل يقول هذا عاقل !

الفقيه له دور واضح يجب أن يقوم به وهو 'بيان الموقف الشرعي في عبادات ومعاملات الناس ..'

وبقية الخبراء والمتخصصين والقياديين والسياسيين في الأمة لهم أدوارهم الخاصة ..

هل هذا يعني أن الناس إذا سألوا عن كيفية طهارتهم، وصلاتهم، وطوافهم، ونسكهم، وذبحهم، وبيعهم، ورهنهم، الخ فيجب أن يقول لهم الفقيه :

أولاً عيب عليكم تسألون عن الصلاة والربا والغرر بينما المجتمع يعاني من مشكلات الإسكان !

اذهبوا أولاً وقبل كل شئ واضغطوا شعبياً لأجل مصالحكم ثم تعالوا اسألوا عن الصلاة والربا والغرر !

هذا إزراء بأهمية أحكام القرآن ذاتها !

المهم ..كل الذي أردت أن أصل إليه في هذه الخاطرة أن :

)الاصلاح في السعودية .. ليس مسألة فقهية بل إرادة سياسية .. وكل طرح بخلاف ذلك تضليل للوعي .(

أبوعمر

رمضان ١٤٢٩هـ

تطويل الطريق

حين أسمع بعض المفكرين الإسلاميين يتكلمون عن ضرورة مقاومة وتفنيد الأفكار الضالة الجديدة عبر دراسات فكرية موسعة؛ فلا أخفي أنني أحترم تماماً حرصهم على سلامة التصورات الإسلامية من الاجتياح العلماني المعاصر .. لكنني

أرتاب كثيراً في نجاعة هذا الأسلوب الذي يريدون .. عندي وجهة نظر لكني لا أبوح بها كثيراً .. لأني أرى بعض المفكرين الإسلاميين يتصور أنها نوع من التثبيط والتخذيل، فلذلك ألوذ بالصمت .. وجهة نظري هذه بكل اختصار هي أن أمر الانحرافات الفكرية المعاصرة أسهل بكثير بكثير مما نتصور .. فلو نجحنا في تعبئة الشباب المسلم للاقبال على القرآن، وتدبر القرآن، ومدارسة معاني القرآن، لتهاوت أمام الشاب المسلم –الباحث عن الحق– كل التحريفات الفكرية المعاصرة ريثما يختم أول "ختمة تدبر"..

بالله عليكم لو قرأ الشاب المسلم –الباحث عن الحق– آيات القرآن في حقارة الكافر .. وآيات القرآن في وسيلية الدنيا ومركزية الآخرة .. وآيات القرآن في التحفظ والاحتياط في العلاقة بين الجنسين .. وآيات القرآن في إقصاء أي فكرة مخالفة للوحي .. وآيات القرآن في وجوب الوصاية على المجتمع عبر شريعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. وآيات القرآن في تقييد الحريات الشخصية بالإنكار والاحتساب .. وآيات القرآن في أزلية الصراع بين الحق والباطل .. وآيات القرآن في وجوب هيمنة الشريعة على كل المجتمعات .. وآيات القرآن في نفي النسبية وإثبات اليقين .. وآيات القرآن في مسخ أقوام قردة خاسئين لما تسلطوا على ألفاظ النصوص بالتأويل لتوافق رغباتهم وأهوائهم .. وآيات القرآن في ارتباط الكوارث الكونية بالمعاصي والذنوب .. وآيات القرآن في ترتيب جدول أولويات النهضة بين التوحيد والإيمان والفرائض والفضيلة وإعداد القوة المدنية .. الخ الخ
فبالله عليكم قولي لي ماذا سيتبقى –بعد ذلك– من أطلال الانحرافات الفكرية المعاصرة ؟!

حين يقرأ الشاب المسلم –الباحث عن الحق– مثل هذه الآيات فإنه ليس أمام "خطاب فكري" يستطيع التخلص منه عبر مخرج "الاختلاف في وجهة النظر" .. بل هو أمام "خطاب الله" مباشرة .. فإما الانصياع وإما النفاق الفكري .. ولا تسويات أو حلول وسط أمام أوامر ملك الملوك سبحانه وتعالى ..

لنجتهد فقط في تحريض وتأليب العقل المسلم المعاصر على الإقبال على القرآن، وتدبر القرآن، في تجرد معرفي صادق للبحث عن الحقيقة .. وصدقوني سنتفاجأ كثيراً بالنتائج ..

قراءة واحدة صادقة لكتاب الله .. تصنع في العقل المسلم ما لا تصنعه كل المطولات الفكرية بلغتها الباذخة وخيلائها الاصطلاحي ..

قراءة واحدة صادقة لكتاب الله .. كفيلة بقلب كل حيل الخطاب الفكري المعاصر رأساً على عقب ..

هذا القرآن حين يقرر المسلم أن يقرأه بـ"تجرد" .. فإنه لا يمكن أن يخرج منه بمثل ما دخل عليه .. هذا القرآن يقلب شخصيتك ومعاييرك وموازينك وحميتك وغيرتك وصيغة علاقتك بالعالم والعلوم والمعارف والتاريخ ..

وخصوصاً .. إذا وضع القارئ بين عينيه أن هذا القرآن ليس مجرد "معلومات" يتعامل معها ببرود فكري .. بل هو "رسالة" تحمل قضية ودويا ..

وإن من أكثر الأمور لفتاً للانتباه في هذا القرآن العظيم .. هي ماحكاه الله عن انفعال الأنبياء بالقرآن انفعالا وجدانيا وعاطفيا عميقاً .. خذ مثلاً .. لما ذكر الله مسيرة الأنبياء عقب بذكر حالهم إذا سمعوا آيات الوحي حيث يقول تعالى:

{أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا} [مريم: ٥٨]

يا ألله .. هذه الآية تصور "جنس الأنبياء" لا بعضهم .. فانظر بالله عليك كيف يبلغ اتصالهم بـ"كلام الله" مبلغ الخرور إلى الأرض ودموعهم تذرف بكاءً وتأثراً .. أي انفعال وجداني أعظم من ذلك؟ !

ويصف تعالى مشهداً آخر يأسر خيال القارئ، حين يصور أهل الإيمان وهم يستقبلون آيات الوحي فيقول تعالى :

{وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ} [المائدة:٨٣]

ويصف تعالى مرة أخرى أثر القرآن الجسدي وليس الوجداني فقط فيقول تعالى :

{اللَّهُ نزلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ }

على أية حال .. لو أفلحنا في إقناع الشاب المسلم بالإقبال على القرآن بالتدبر الصادق المتجرد للبحث عن الحق .. فاعتبروا أن "الدور المعرفي" تقريباً انتهى .. وبقيت مرحلة الإيمان .. فمن كان معه إيمان وخوف من الله فسيحمله على الانقياد والانصياع لله سبحانه .. ومن أرخى لهواه العنان .. فسيتخبط في شُعب النفاق الفكري .. حيث سيبدأ في أن يعلن على الملأ –كما يعلن غيره– أنه "يحترم ضوابط الشريعة" .. لكنه في دخيلة نفسه يدرك أن كل ما يقوله مخالف للقرآن ..!

بقي الاستثناء الوحيد هاهنا .. وهو أنني أقول أن من كانت نفسيته المعرفية سوية .. أعني أنها تنظر في "جوهر البرهان" وليس في "شكليات الخطاب" فلن يحتاج إلا لقراءة القرآن بتجرد .. أما من كان يعاني من عاهات في شخصيته الفكرية .. بحيث أنه يقدم وهج الديكور اللغوي على جوهر البرهان .. فهذا النوع المريض من الناس قد يحتاج فعلاً بعض الكتابات الفكرية التي تخدعه ببعض الطلاء التسويقي .. كما قال الامام ابن تيمية في حادثة مشابهة في كتابه "الرد على المنطقيين":

(وبعض الناس: يكون الطريق كلما كان أدق وأخفى وأكثر مقدمات وأطول كان أنفع له، لأن نفسه اعتادت النظر الطويل في الأمور الدقيقة، فإذا كان الدليل قليل المقدمات، أو كانت جلية، لم تفرح نفسه به..، فإن من الناس من إذا عرف ما يعرفه جمهور الناس وعمومهم، أو ما يمكن غير الأذكياء معرفته، لم يكن عند نفسه قد امتاز عنهم بعلم، فيحب معرفة الأمور الخفية الدقيقة الكثيرة المقدمات)

ختاماً .. أعطوني ختمة واحدة بتجرد .. أعطيكم مسلماً سنياً سلفياً حنيفاً .. ودعو عنكم خرافة الكتب الفكرية الموسعة ..

ابوعمر - رمضان ١٤٣٠هـ

أين "مؤسسة رعاية الشباب" عن "الاختناق المروري" ؟!

في كل صباح أخرج فيه إلى عملي يتكدر خاطري حين أترسب في مكاني بسبب الاختناق المروري، وإغلاق بعض الطرق لأعمال الصيانة التي لاتنتهي.. ثم مع زعيق منبهات السيارات من حولي يكاد رأسي يثور في سقف السيارة..

في هذه اللحظة المكتظة بالتوتر والنقمة أجد نفسي أكرر بلا ملل: حسبنا الله على "المؤسسة العامة لرعاية الشباب" .. أين دورها في تنظيم المرور وإصلاح الطرق وتهيئة النقل العام؟! أين المؤسسة العامة لرعاية الشباب عن بناء الجسور التي تمتص كثافة المركبات المتزايدة؟! أين المؤسسة العامة لرعاية الشباب عن ابتكار الحلول المناسبة لتوزيع مسارات الحركة المرورية؟! العالم كله من حولنا يبدع وينتج البدائل لمشكلة المرور والنقل العام بينما الرئاسة العامة لرعاية الشباب إلى الآن لم تطرح مشروعاً واحداً ؟! في أوروبا وأمريكا واليابان والدول المتقدمة تجد القطارات والأندرجراوند والحافلات المنظمة بينما المؤسسة لرعاية الشباب لدينا لم تقدم لنا ولا نصف قطار لحل مشكلة الاختناق المروري؟!

إلى متى نقص الوعي، وضيق الأفق، أيتها المؤسسة العامة لرعاية الشباب؟!

عزيزي القارئ .. أظنك الآن بدأت ترتاب في عقل الكاتب وستقول: ماعلاقة المؤسسة العامة لرعاية الشباب بالمشاكل المرورية؟! حسناً .. إذا استنتجت من الكلام السابق أن ثمة خللاً في عقل الكاتب؛ فأظنك ستشك في عقول كثيرة تكتب اليوم وبكثافة بمثل هذا المنطق تماماً!

ثمة اليوم شريحة تتوهم أن لديها "وعياً مدنياً" يفوق البسطاء من حولها، أتدري ماذا يكتبون ويقولون؟!

يقولون: أين هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عن الفساد الإداري في العقود الحكومية؟ أين هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عن نهب العقارات الحكومية لصالح ملكيات شخصية؟! أين هيئة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر عن ضحايا الأرواح في كارثة سيول جدة؟!

بالله عليك مافرق هذا التساؤلات عن شخص يتوهم أن مصلحة الجمارك هي المسؤولة مشكلة الاتصالات؟!

نحن الآن في دولة فيها عدة مؤسسات، كل مؤسسة لها "اختصاص" يصدر به نظام رسمي، لدينا مؤسسات مخولة بمراقبة الفساد السلوكي العام، ومؤسسات مخولة بمراقبة الفساد المالي، فبدلاً من أن يعاتبوا مؤسسات الرقابة المالية ينوحون ويعاتبوا مؤسسات الرقابة السلوكية؟!

إنها طرفة متوهمي المدنية في نسيان المسؤول الحقيقي، والتشنج في محاسبة غير المسؤول!

لنكن أكثر تفصيلاً، لدينا في السعودية مؤسستان مسؤولتان بشكل جوهري عن "الفساد الاداري والمالي"، وهما: ديوان المراقبة العامة، وهيئة الرقابة والتحقيق.

فأما نظام "ديوان المراقبة العامة" الصادر بقرار مجلس الوزراء رقم (١٠١٩) وتاريخ ١٣٩٠هـ فقد نص في المادة السابعة منه على تكليف الديوان بمراقبة الفساد الاداري والمالي كما تنص المادة:

(يختص الديوان بالرقابة اللاحقة على جميع إيرادات الدولة، ومصروفاتها، وكذلك مراقبة كافة أموال الدولة، المنقولة والثابتة، ومراقبة حسن إستعمال هذه الأموال وإستغلالها والمحافظة عليها)[نظام ديوان المراقبة العامة، م٧]

وهي مادة نظامية شديدة الاتساع والشمول، ولم يكتفِ مجلس الوزراء بذلك، بل خول ديوان المراقبة العامة بصلاحيات واسعة لتحقيق هذه المهمة، حيث ألزم النظام كافة الوزارات والمؤسسات الحكومية بأن تزود الديوان بكافة البيانات الحسابية والمستندات والوثائق التي تمكن الديوان من المراقبة المالية (المادة ١٠).

والشمول الذي منحته المادة السابعة واضح أنه مقصود فعلاً، حيث أكدته مواد لاحقة في ذات النظام، تنص تفصيلاً على ضبط "المال العام"، ومن ذلك مانصت عليه المادة الثامنة من أنه يختص الديوان بـ (**التحقق من أن كافة أموال الدولة، المنقولة والثابتة؛ تستعمل في الأغراض التي خصصت من أجلها من قبل الجهة المختصة، وأن لدى هذه الجهات من الإجراءات ما يكفل سلامة هذه الأموال، وحسن إستعمالها و إستغلالها، ويضمن عدم إساءة إستعمالها، أو إستخدامها في غير الأغراض التي خصصت من أجلها) [نظام ديوان المراقبة العامة، م ٨-٢]**

هذا بالنسبة للمؤسسة الأولى وهي مؤسسة "ديوان المراقبة العامة"، وأما بالنسبة للمؤسسة الثانية وهي "هيئة الرقابة والتحقيق" فقد خولها النظام باختصاصات دقيقة في مراقبة الفساد الإداري، حيث ينص النظام على:

(تختص الهيئة بإجراء الرقابة اللازمة للكشف عن المخالفات المالية والإدارية) [نظام تأديب الموظفين، م٥]

ومنح النظام هيئة الرقابة والتحقيق صلاحيات واسعة للقيام بهذه المهمة والتحقيق مع الجهات الحكومية كما تقول المادة الثامنة مثلاً:

(على الجهات الحكومية تمكين المحقق من الأطلاع على ما يرى لزوم الأطلاع عليه من الأوراق والمستندات وغيرها، وتفتيش أماكن العمل إذا تطلب التحقيق ذلك، بحضور الرئيس المباشر)[نظام تأديب الموظفين، م٨].

حسناً .. رأينا الآن كيف تملك هاتان المؤسستان، ديوان المراقبة العامة وهيئة الرقابة والتحقيق، سلطة الرقابة المالية على كل ظواهر الفساد الإداري والمالي، وكيف منحهما المنظم سلطة التحقيق والتفتيش.

وأما "هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" فمن المعلوم لكل أحد أن المنظم حصر هذه المؤسسة في حدود المخالفات السلوكية العامة وتشير لذلك بعض المواد مثل ماجاء في النظام:

(للهيئة حق المشاركة في مراقبة الممنوعات؛ مما له تأثير على العقائد، أو السلوك، أو الآداب العامة) [نظام هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، م١٢].

هل تصدق يا أخي الكريم أنني في "كارثة سيول جدة" رأيت بعض الكتّاب يقولون: أين هيئة الأمر بالمعروف عن هذه الكارثة أم هم مشغولون بالاختلاط والخلوة؟! توقعت في البداية أن هؤلاء يمزحون، أو يقولونها من باب المناكدة فقط، لكن لاحظت أن الموضوع استمر!

لازلت إلى الآن أقرأ لبعض السذج (الذين يتوهمون أنفسهم يملكون وعياً مدنياً) يقولون أين هيئة الأمر بالمعروف عن الفساد المالي والإداري..!

بدلاً من أن يطالبوا المؤسسة المعنية، ذهبوا يلومون غير المعني!

بدلاً من أن يشكرو أشاوس الهيئات على قيامهم بما يفوق المطلوب منهم وتحملهم الأخطار والمضايقات ورمي الإعلام لهم عن قوس واحدة، ذهبو يلومونهم لأنه اجتهدو في القيام بما يخصهم، وأخذوا يعاتبونهم على عدم القيام بما لايملكون "صلاحية نظامية" له؟!

ثم يحدثونك عن "الوعي المدني" ..!

كتبَة لايعرفون مؤسسات الدولة، ولايفهمون كيف توزع فيها الصلاحيات النظامية، ثم لايجدون غضاضة في أن يتفلسفوا عليك عن "الوعي المدني" !

عزيزي القارئ.. إذا استيقظت غداً صباحاً .. ورأيت أكوام النفايات في بعض الطرق بشكل غير لائق، فإياك أن تفكر في مسؤولية البلدية، بل حاول أن تكتب مقالة عن "**مسؤولية القضاء الشرعي عن سلال المهملات**" .. وستجد نفسك في يوم وليلة أحد المفكرين الطليعيين الذي سبق عصره!

ابوعمر – صفر ١٤٣١هـ

أسلوب الوصاية

(هذا ليس مقالا.. إنما هو جواب على سؤال)

الوصاية ضد الشبهات مطلب شرعي، وواجب أن يقوم به الداعية لحفظ دين الناس، ومن تنصل من الوصاية ضد الشبهات فقد خان الأمانة، وعرض الناس للبلاء، والله تعالي يقول (**وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**).
فهذا أمر صريح بالابتعاد عن مواطن الشبهات، ولم يقل جالسو الذين يخوضون وناقشوهم والعبرة بالافكار ويجب على صاحب المبدأ أن يكون واثقاً، ولماذا نخاف على ديننا من نسمة هواء، ولم يقل لهم لايعرض إلا الخائف غير الواثق، بل أمرهم صريحاً بالاعراض، وجعلهم إن لم يعرضوا خاضعين للشيطان، وأنه يجب عليهم إذا تذكروا أن يعرضوا.

وهؤلاء الذين يقولون استمع إلى كل قول وناقشه مخالفون صراحة لكتاب الله ولذلك قال الامام ابن تيمية في الاستقامة (فقد أمر سبحانه بالإعراض عن كلام الخائضين في آياته، ونهى عن القعود معهم، فكيف يكون استماع كل قول محمودا).

وهكذا –أيضاً– ما في سنن النسائي حين رأى النبي مع عمر ورقة من التوراة أخذها عمر للاطلاع التاريخي فقط، فغضب النبي وقال (أمتهوكون فيها يابن الخطاب) أفليست هذه وصاية محمودة يمارسها النبي على الناس ويشرعها لمن بعده للائتساء والاقتداء؟ وهل الرسول غير واثق بعقيدة عمر؟ وهل عقيدة عمر بهذا الضعف الذي يخشى عليه فيها من ورقة من التوراة؟!

وهكذا –أيضاً– لماكان صبيغ بن عسل يثير اشكالات على عامة الناس في متشابه القرآن، هل قال عمر بن الخطاب "من حق صبيغ أن يطرح مايشاء من الاشكالات" ولماذا الوصاية والاقصاء، أم علاه بدرته وعاقبه وأقره على ذلك أصحاب رسول الله؟ بل كان ابن عباس إذا رأى أحداً يتتبع المتشابه يقول له"ما أحوجك لدرة عمر"، بل صار أهل السنة بعده يذكرون هذا الفعل من مناقب عمر؟ أفليست هذه وصاية محمودة مطلوبة شرعاً؟

وهكذا –أيضاً– لما طرح بعض الباحثين في العقائد في عصر الشافعي إشكالات الجمع بين الفلسفة اليونانية والقرآن قال الشافعي "حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال" أفليست هذه وصاية محمودة مطلوبة شرعاً؟

أليس أهل السنة مطبقون كافة على النهي عن النظر في أي كتاب أو الاستماع إلى أي رجل يؤدي كلامه إلى رقة التدين؟

ولذلك نقل ابونعيم عبارة حكيمة للامام ابراهيم بن أدهم حين قال (كثرة النظر إلى الباطل تذهب بمعرفة الحق من القلب)

طبق كلمة ابن أدهم هذه على كثير من الشباب الذين ضللتهم فكرة "اطلع على كل شئ" وتقلص نظرهم في القرآن والسنة وكلام الربانيين؛ كيف آل بهم الأمر إلى رقة التدين وهذا ظاهر لكل أحد.

فكثرة الواردات الفاسدة وأثرها على القلب أمر لايستهان به.

وهذه من المسائل التي يكثر فيها الخطأ يظنون أن الوصاية مذمومة، وهي مطلب شرعي ضد الشبهات، ويظنون أن الاقصاء مذموم وهو مطلب شرعي ضد المضلين والمفسدين، فانظر كيف صارت المطالب الشرعية مذام ولاحول ولاقوة إلا بالله من غربة الدين؟!

وما أكثر ما يخطر لبعض المتعاطين للخطاب الثقافي تساؤل يقفز أثناء الدعوة للحصانة المنهجية فالكثير منهم يكرر هذه التساؤلات:

لماذا نخشى من نشر كتب الزنديق فلان ؟! لماذا نخشى من إتاحة البرامج التلفزيونية للمجدِّف فلان ؟! هل بلغ إسلام المسلمين هذا المستوى من الهشاشة لدرجة أن صرنا نخشى من كل نسمة؟! دع الزنادقة يتحدثون حتى يفتضحوا أمام الناس ..

الحقيقة أن مثل هذه التساؤلات تهدر اعتبارات جذرية من صميم "التكوين البشري" ..

فطبيعة عامة الناس والشباب خلال التاريخ أنهم لايملكون "علماً تفصيلياً" بأدلة مبادئ الاسلام والجواب عن الاعتراضات الواردة عليها ..

وهذا شئ طبيعي .. بل ومطلوب أصلاً .. لأنه لو تفرغ عموم المجتمع للعلم الشرعي التفصيلي وجواب الاعتراضات لتعطلت الفروض الكفائية الأخرى كالعلوم المدنية والصناعات والتخصصات الاجتماعية التي يقوم عليها المعاش ودنيا المسلمين ..

فعامة الناس والشباب معهم "إيمان مجمل" قد تزعزعه رياح الشبهات إذا لم يتيسر له متخصص أو مطلعٌ يزيل أشباحها عنه ..

ولذلك يفترض أن يكون السؤال معكوساً ..

فالسؤال .. ليس لماذا نخاف على غير المتخصصين من الشبهات ؟

بل السؤال: لماذا نخاطر بإيمان غير المتخصصين والمطلعين من أجل شعارات إعلامية تتصل بمفهوم الانفتاح؟!

وقد وجدت نصاً في غاية الروعة للامام ابن تيمية حلل فيه هذه القضية:

(فعامة الناس اذا أسلموا بعد كفر، أو ولدوا على الاسلام والتزموا شرائعه وكانوا من اهل الطاعة لله ورسوله؛ فهم مسلمون، ومعهم ايمان مجمل، ولكن دخول حقيقة الايمان إلى قلوبهم انما يحصل شيئاً فشيئاً، إن أعطاهم الله ذلك، والا فكثير من الناس لا يصلون لا إلى اليقين ولا إلى الجهاد، ولو شككوا لشكوا، ولو أمروا بالجهاد لما جاهدوا، وليسوا كفارا ولامنافقين؛ بل ليس عندهم من علم القلب ومعرفته ويقينه ما يدرأ الريب، ولا عندهم من قوة الحب لله ولرسوله ما يقدمونه على الأهل والمال، وهؤلاء ان عوفوا من المحنة وماتوا دخلوا الجنة، وان ابتلوا بمن يورد عليهم شبهات توجب ريبهم فان لم ينعم الله عليهم بما يزيل الريب والا صاروا مرتابين وانتقلوا إلى نوع من النفاق.

وكذلك اذا تعين عليهم الجهاد ولم يجاهدوا كانوا من أهل الوعيد، ولهذا لما قدم النبي المدينة أسلم عامة أهلها، فلما جاءت المحنة والابتلاء نافق من نافق، فلو مات هؤلاء قبل الإمتحان لماتوا على الاسلام ودخلوا الجنة ولم يكونوا من المؤمنين حقا الذين ابتلوا فظهر صدقهم) الفتاوى ٢٧١/٧

والمراد أن الوصاية ضد الشبهات التي تسبب رقة التدين مطلب شرعي، سواء كان الذي يشيع هذه الشبهات زنديق علماني، أو من متفقهة التغريب الذين يغرسون في الناس النظرة المادية للحياة، ويهونون من تعظيمهم للنص باسم الخلاف، ويشحنون الناس ضد المحتسبين والدعاة دوماً بالسذاجة والتهور وضيق الأفق وقلة الوعي وأنهم يغرقون في كأس ماء ونحوها من العبارات التي يتشربها المستمع فتؤثر في نظرته لأهل العلم والدعاة بعامة، ويجمدون مشاعر الغيرة والحمية باسم الرزانة والحكمة والهدوء، ونحو ذلك.

والله أعلم

تعظيم السلف

ينبوع الإحداث في دين الله كله ناشئ بسبب "ضعف تعظيم السلف" في عمق علمهم وكمال ديانتهم، وصحة تدين المرء واهتداؤه في دين الله فرع عن تعظيم السلف واعتقاد كونهم أكمل منا ديناً وعلماً.

تأمل في جمهور الطوائف الكلامية التراثية الضالة كالأشاعرة والماتريدية ونحوهم، تجدهم كلهم يرون أن (كلام السلف أسلم وكلام الخلف أعلم وأحكم)

وتأمل في كلام الطوائف الفكرية المعاصرة كلهم تجد أحسنهم قولاً يقول (تجربة السلف غنية وناجحة لكن لاتلزمنا)

أما فجّار هذه الطوائف فيعتقدون أن السلف "دراويش" !

فبالله عليكم كيف تشهد عشرات النصوص القرآنية ومئات الأحاديث النبوية بكمال اهتداء الصحابة، وبخيرية القرون المفضلة، ومع ذلك يكون من بعدهم أبصر بدين الله منهم؟! كيف يكونون أكمل اهتداء لكنهم أجهل من غيرهم؟! كيف يكون هذا في العقل؟!

أليس كمال الهداية فرع عن كمال العلم؟! وهل يكون كمال الهداية مع الجهل؟!

حسناً إذا كان أصحاب رسول الله معلمهم وشيخهم وأستاذهم هو الرسول نفسه الموحى إليه صلى الله عليه وسلم، فكيف يكون

معلموكم أصح من تعليم رسول الله؟! هذا طعن في كمال قيام النبي بأمانة تعليم الكتاب والحكمة.
والتابعون معلموهم أصحاب رسول الله، فكيف يكون معلموكم أصح من معلمين تخرجوا على يدي رسول الله؟!
وهكذا فيمن بعدهم.
تأمل في ملاحظة ابن تيمية هذه:
(وإنما يوجد تعظيم السلف عند كل طائفة؛ بقدر استنانها وقلة ابتداعها) الفتاوى ١٥٦/٤
وهذه ملاحظة صحيحة بلا ريب من رجل خبر الطوائف بدقة، فكل طائفة تقترب من الاهتداء في دين الله بقدر قربها من السلف، وتبتعد بقدر بعدها عنهم.
وتأمل كيف يلاحظ ابن تيمية أن مؤدى اعتقادهم الحقيقي هو اعتقاد أن السلف كانوا كالدراويش، أو الصالحين من العوام، لكن لم يكونوا في غاية الدقة العلمية، كما يقول في الفتوى الحموية الكبرى:
(اعتمدوا على أمور عقلية ظنوها بينات وهي شبهات، والسمع حرفوا فيه الكلام عن مواضعه، فلما انبنى أمرهم على هاتين المقدمتين الكفريتين كانت النتيجة: استجهال السابقين الأولين، واستبلاههم، واعتقاد أنهم كانوا قومًا أميين، بمنزلة الصالحين من العامة، لم يتبحروا في حقائق العلم بالله، ولم يتفطنوا لدقائق العلم الإلهي)
بالله عليك فتش في كلام الطوائف البدعية التراثية، وفي كلام الطوائف الفكرية الضالة اليوم، تجدهم مطبقين على اعتقاد أن السلف كانوا بمنزلة "صالحي العامة" وليسوا أدق من المعاصرين في تفسير النصوص، بل بعضهم يقول تطورت العلوم الانسانية وصرنا أدق من السلف في فهم النصوص! فصار مؤدى كلامهم أن هؤلاء الذين درسو اللسانيات ونحوها أفقه في معنى القرآن والحديث من أبي بكر وعمر وابن عباس وابن مسعود، فأي زندقة في دين الله أكثر من ذلك؟!
ومن أعجب استدلالات ابن تيمية أنه لما ناقش مقولة ابن سينا التي لمز فيها الصحابة بضعف عقولهم وعظم فيها الفلاسفة حين قال ابن سينا (فإن المبرزين المنفقين أيامهم لسرعة الوقوف على المعاني الغامضة يحتاجون في تفهم هذه المعاني إلى فضل وشرح وعبارة فكيف غتم العبرانيين وأهل الوبر من العرب ؟)
فرد ابن تيمية على هذه العبارة رداً مطولاً وفيه شدة، ثم عقب بعد ان انتهى من الرد بأن هذه الشدة إنما كانت في مقابلة هذا التطاول من ابن سينا، ومن أجمل ما في رد ابن تيمية على عبارة ابن سينا هذا الاستدلال حيث يقول:
(وكل أحد يعلم أن عقول الصحابة والتابعين وتابعيهم أكمل عقول الناس، واعتبر ذلك بأتباعهم، فإن كنت تشك في ذكاء مثل مالك، و الأوزاعي، والليث بن سعد، و أبي حنيفة، وأبي يوسف، ومحمد بن الحسن، وزفر بن الهذيل، والشافعي، و أحمد بن حنبل، و إسحاق بن إبراهيم، وأبي عبيد، وإبراهيم الحربي، وعبد الملك بن حبيب الأندلسي، و البخاري، و مسلم، وأبي داود، وعثمان بن سعد الدارمي، بل: ومثل أبي العباس بن سريج، وأبي جعفر الطحاوي، وأبي القاسم الخرقي، وإسماعيل بن إسحاق القاضي، وغيرهم من امثالهم، فإن شككت في ذلك: فأنت مفرط في الجهل أو مكابر؛ فانظر خضوع هؤلاء للصحابة، وتعظيمهم لعقلهم وعلمهم، حتى انه لا يجترئ الواحد منهم أن يخالف الواحد من الصحابة، إلا أن يكون قد خالفه صاحب آخر، وقد قال الشافعي في الرسالة "أنهم فوقنا في كل عقل وعلم وفضل ورأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا) [درء التعارض:٥/٧٢-٧٣]
ابوعمر

كنت أظنه ظاهرة جديدة

سمعته يلوم المقاومة ويتهكم بها بأنهم لو كانوا عقلاء وسمعوا نصيحتنا والتزموا الصمت لما وقع عليهم القتل والذبح .. فظننت أن مثل هذه المواقف إنما هي من الانتكاسات المعاصرة التي لاسابق لها .. حتى قرأت قوله تعالى :

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا)

ورأيت عدداً من المتثيقفين يردد شعارات الوطنية ويقول أن غزة شأن فلسطيني لسنا مسؤولين عنه، بل يجب أن نركز ثروتنا وطاقتنا في الشأن السعودي فقط، نحن سعوديون أولاً، فتوهمت أن هذا التذرع بالوطنية للتنصل من المسؤولية الدينية في دعم المقاومة إنما هي انحراف معاصر.. حتى قرأت قوله تعالى :

(وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا)

ورأيت كاتباً آخر يلوّح بأن اختيار المقاومة فصل الشتاء القارس للتصعيد السياسي جريمة تجعل المسؤولية مسؤوليتها في ضخامة الأضرار .. فظننت أن هذا التعلل بالفصول الأربعة في التهرب عن نصرة المقاومة إنما هو تقليعة جديدة .. حتى قرأت قوله تعالى :

(وَقَالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ)

ورأيت كاتباً آخر ينهر المحتاجين في غزة، ويعلن في عنوان مقاله بكل فجاجة فيقول (وإذا تبرعنا فهل ستشكرون؟!(فتوهمت أن هذه المنة والأذية وتطلّب الامتنان والتقدير إنما هي مستوى قياسي جديد في التبذل الأخلاقي .. حتى قرأت قوله تعالى :

(قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ)

وسمعت أحد نظرائه يعتذر ويبرر ويقول: نحن ليس لدينا مشكلة في التبرع للإسلام، ولكن ليس لهؤلاء الفلسطينيين والإخوانيين والحمساويين القذرين، ففرق كبير بين الاسلام وأتباعه، فالاسلام مقدس أما أتباعه فهم للأسف بشرٌ منحطون، فظننت أن هذا تفصيلاً جديداً في التبرع.. حتى قرأت قوله تعالى :

(هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا)

ولطالما سمعت الليبراليين في وطني يتعللون في رفض الأحكام الشرعية والإصرار على تبديلها بحجة المخاطر الأمنية، فيقولون لك هذه الأحكام الشرعية ستسبب لنا إحراجات أمنية كبيرة مع العالم فيجب تبديلها ومحوها وتغييرها، ويشنعون على كل من همس بمثل هذه الأحكام بشماعة المخاطر الأمنية، فكنت أتوهم أن التذرع بالمخاطر الأمنية لرفض الشريعة إنما هي موضة سبتمبرية .. حتى قرأت قوله تعالى :

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

ورأيت كثيراً من الكتّاب الخائضين في تبديل الأحكام الشرعية إذا أنكر عليه العاملون للإسلام، ونهوه عن تبديل الأحكام الشرعية، وساقوا له نصوص الوحي في وجوب التمسك بها، يترك مناقشة الأدلة الشرعية ويلوذ باتهام المنكرين عليه بأنهم طلاب سلطة وطموحات سياسية، وأن دفاعهم ضد تبديل الشريعة ليس دفاعاً عقائدياً بل مجرد غطاء للمضمر المصلحي.. فظننت أن اتهام

الرافضين للتبديل بأنهم مصلحيون إنما هي تهمة جديدة .. حتى قرأت قوله تعالى :
(يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا)

ولطالما لاحظت في النصوص الشرعية بعض المواضع الملتبسة على القارئ، إما لإشكالية ثبوت أو إشكالية دلالة، فكنت أدعها وأتمسك بالنصوص الواضحة الظاهرة، حتى رأيت ثلة جديدة من الكتّاب تتطلب هذه المواضع الملتبسة وتنقب عنها وتجمعها، وتستغلها في توهين التمسك بالأحكام الواضحة الظاهرة، فكنت أتعجب من جهودهم في تتبع المتشابه واستغلاله لتصديع المحكم والتمتع بفتنة الناس في دينهم، وكنت أظن أن هذه ظاهرة جديدة .. حتى قرأت قوله تعالى :
(فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ)

وكنت أرى مجموعة من الكتاب يتطلبون الاختلاف والمفارقة عن عامة المتدينين، بل تشعر أحياناً أن معيارهم في إصابة الحق هو "مخالفة المطاوعة"، فيصعب عليهم اتباع الحكم الشرعي الذي يجمعهم بعامة المتدينين، لما امتلأ في قلوبهم من الغرور والزهو الزائف، بل بعضهم إذا أراد الاحتجاج على رد مفهوم معين قال لك: ومافرق كلامك عن كلام دراويش الصحوة؟! فصار المعيار (المفارقة(وليس (البرهان(، فكنت أتعجب كيف يتورط الانسان بترك الشريعة لأجل مخالفة من يزدريهم فقط؟! وكنت أتوهم ذلك أمراً جديداً .. حتى قرأت قوله تعالى :
(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ)

بل لقد رأيت عدداً من كبار المثقفين الذين يكتبون في "إعادة قراءة التراث "ينادي بكل صراحة في عدد من كتاباته ومحاضراته بضرورة الاستفادة من التراث الاسلامي، فإن وافق المفاهيم الحديثة استعملناه في تأصيلها، وإن خالف المفاهيم الحديثة تجاوزناه. بمعنى أن العلاقة مع النص صارت علاقة مشروطة، السمع والطاعة إن جاءت بما نريده فقط، فكنت أتصور أن هذه انتهازية معاصرة .. حتى قرأت قوله تعالى :
(يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا)

ورأيت شريحة أخرى لايرفضون الشريعة كلها، ويعلنون الالتزام بها، لكنهم يريدون أن يتوسطوا بين المتدينين الذين يأخذون الاسلام كله وبين العلمانيين الذي يرفضون الشريعة جملة، ويرى أن هذا من سبيل الوسطية والاعتدال بين الفريقين، فكنت أتعجب من هذا الفهم للوسطية! كيف تكون الوسطية هي التوسط بين الإسلاميين والعلمانيين؟! .. وكنت أتوهم هذا فهماً جديداً لمعنى الوسطية .. حتى قرأت قوله تعالى :
(وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلا)

ولطالما التقيت بعدد من المتثيقفين تمتد أمسياتهم الفكرية إلى آخر ساعات الليل.. فإذا أقحم أحد الحضور نصوصاً شرعية تضايقوا وتبرموا وانقبضت وجوههم، ولمزوا المتحدث بأن مقصوده المزايدة ورغبة الهيمنة.. فإذا ذكرت أسماء الأعلام الغربية الرنانة ابتهجوا وانبلجت أسارير وجوههم واستزادوا المتحدث .. فكنت أتوهم ذلك سلوكاً جديداً .. حتى قرأت قوله تعالى :
(وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)

ورأيت شريحة أخرى تعلن الالتزام بالشريعة والإيمان بها، وأنها المقدس، وأنها عظيمة، لكن هؤلاء في كل دعوتهم وعملهم وخطابهم

وكتاباتهم إنما يتحاكمون للثقافة الغربية والقوانين الغربية والدول الغربية .. فكنت أتعجب كيف يدعي الإيمان بالشريعة ويتظاهر بتعظيمها وهو لايتحاكم إليها؟! لم لايصرح ويكشف مرجعيته الحقيقية؟! وكنت أتصور أن هذا تناقض معاصر .. حتى قرأت قوله تعالى :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ)

ورأيت طائفة من مثقفي إعادة قراءة التراث يبثون الارتيابات والتوجسات حول السنة النبوية، حيث يرون أن أحاديث الرسول كلها ليست تشريع، وإنما هي أمور تلقفها النبي من عصره ورددها، فكنت أظن هذا التنقص لمقام الرسول فكرة جديدة .. حتى قرأت قوله تعالى :

(ومِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ)

وشهدت عدداً من الكتّاب الشباب لازالت خصومتهم مع المتدينين تتجارى بهم، حتى بلغت بهم أن تورطوا في مقالات مليئة بمحادة النصوص ومشاقة الوحي. كل ذلك بدافع النكاية والمناكفة ومغاضبة المتدينين وإغاظتهم فقط، فكنت أتساءل بدهشة: كيف ينسى المرء ربه لأجل أن يسخر بخصمه فقط؟! وكنت أفترض أن هذه آثار صراعية جديدة .. حتى قرأت قوله تعالى :

(إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ)

ورأيت طائفة من المثقفين يبالغون ويغالون في تعظيم القرآن، وقداسة القرآن، وشمولية القرآن، بصورة انبهارية لايقولها مفسروا أهل السنة أنفسهم! فكنت أتساءل مالمغزى ياترى لهذه التوقير المفاجئ للقرآن؟ فماعهدت القوم نصوصيين !وإذا بهم يتخذون هذه المغالاة في التوقير مجرد مقدمة لينفذوا من خلالها لنفي السنة واغتيالها .. فيجعلون قداسة الله ذريعة لإنكار نصوص رسول الله .. فظننت هذا المدخل المخاتل شيئاً جديداً .. حتى قرأت قوله تعالى :

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ)

ورأيت عدداً من الكتّاب يذكرون ماكان عليه أهل منطقتهم من رقص الرجال والنساء سوياً بكل نقاء وطهارة وصفاء نية، حتى جاءت الصحوة التي لوثت ذلك الصفاء ومنعت تلك المظاهر، فإذا قلت له: ولكن رقص الرجال والنساء سوياً لون من الفواحش التي نهى الله ورسوله عنها. فيستمر يحتج عليك بالماضي الذي دمرته الصحوة! .. فكنت أتوهم هذا التفكير الساذج لون جديد من التفكير .. حتى قرأت قوله تعالى :

(وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا)

وقرأت لعددٍ من المثقفين الذين يعلنون احترامهم لمرجعية الوحي ومفاهيم القرآن والسنة، لكنه كلما عرض له مفهوم شرعي رده وشنع عليه، فإذا ساءله الناس عن ذلك؟ قال لهم: أنا ليس لدي مشكلة مع "النص"، وإنما مشكلتي مع" تسييس النص"، وهذه الخطابات الدينية كلها خطابات باحثة عن السيطرة.. فصار يتعلل في رد كل حقيقة شرعية بتهمة التسييس وقذف العاملين للاسلام بالبحث عن الهيمنة والنفوذ!. فكنت أعتقد أن اتهام العاملين للاسلام بذلك بهدف التخلص من كلفة الانقياد إنما هي فكرة جديدة .. حتى قرأت قوله تعالى :

(قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ)

وسمعت مرة من بعض الليبراليين حنقه الشديد على ابن باز وابن عثيمين، وكان يقول فيهما كلاماً لايقوله المرء في أخس المجرمين، فسألته: ولماذا لاتصرح بذلك؟ ولماذا تستتر بمثل هذا الموقف المتشنج ضدهما؟ فقال لي بكل صراحة :لولا نفوذهم الاجتماعي لأشعلتها عليهم.. فظننت أن ذلك حالة جديدة .. حتى قرأت قوله تعالى :

(وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ)

ورأيت كثيراً من المتثيقفين يفاضل بين الناس على أساس معيار مادي بحت، فالكافر العالم خير من المؤمن الجاهل، والكافر الثري خير من المؤمن الفقير، وكنت أتوهم أن هذا المعيار المادي فكرة جديدة لم تنبه إليها النصوص، حتى قرأت قوله تعالى :

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

وتلاحظ أنه حين تثور في المجتمع مسألة شرعية جهادية أو قضائية أو حسبوية أو دعوية أو غيرها فإن كثيراً من الكتّاب يتصدر للفتيا فيها وهو لم يبحثها أصلاً، ويذيع فتواه وينشرها، وينسب رأيه للشريعة بلا تردد، والاجتهاد في الشريعة ليس محصوراً على عرق أو نسب، وإنما هو مقيد بشروط علمية كغيره من التخصصات، فكنت أتعجب من تسابق هؤلاء الكتّاب على الفتيا دون علم.. فلاهم درسوا النصوص، ولا سألوا من يحسن الاستنباط منها، وكنت أظن ذلك شيئاً جديداً حتى قرأت قوله تعالى :

(وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ)

وكنت أسمع هؤلاء المتثيقفين إذا أرادوا أن يحقروا أحداً سموه بـ"الواعظ "تقليلاً لشأنه، وهذا التحقير بهذا الوصف فرع عن كونهم يرون المواعظ أحط مراتب الخطاب وأنقصها قيمة، فتسرب إلى ذهني هذا التحقير للمواعظ بشكل غير مباشر، وصرت مثلهم أعتقد أن المواعظ لاتليق بالخطاب الراقي، حتى رأيت الله تعالى وصف كتبه السماوية بأنها "موعظة" فعلمت أنه من المحال أن يختار الله لأعظم كتبه أحط الأوصاف !

فسمى القرآن موعظة فقال (هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ)

وسمى التوراة موعظة فقال (وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلا)

وسمى الإنجيل موعظة فقال (وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ)

ولطالما كنت أتوهم أن الاحتجاج على "صحة المبدأ بقوة أتباعه" إنما هي طريقة جديدة ساذجة في التفكير، وأن الناس كانت تدرك أن الحق لاصلة له بالقوة، حتى قرأت قوله تعالى :

(فأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً؟)

ولطالما كنت أتوهم –أيضاً– أن الاحتجاج على "بطلان المبدأ بضعف أتباعه "إنما هي طريقة جديدة ساذجة في التفكير .. حتى قرأت قوله تعالى :

(قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ)

وكنت ألاحظ بعض المتثيقفين يستكبر عن الإنصات للخطاب الشرعي، وإذا عرض له شئ من ذلك، تظاهر باستكبار أنه لايفهم ماذا يقول هذا؟ وربما أخفى كبرياءه في سؤال استعلائي يقول فيه: ماذا يقول هذا الشيخ؟! وكنت أظن أن مثل هذه الأساليب

الاستعلائية أساليب جديدة .. حتى قرأت قوله تعالى
(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا؟)

تلاحظ أن كثيراً من المتثيقفين حين تنقل لهم في أصل شرعي كبير تواطؤ أقوال أئمة الإسلام الكبار كفقهاء أصحاب رسول الله، ومفتي التابعين، وأئمة الأمصار المتبوعين، يقول لك: هؤلاء كلهم بشر، حتى لو تتابعوا على أصل معين فإنه لايلزمني، قلت له: هذا يلزم عليه أنهم كلهم ضلوا في أصل كبير من أصول الاسلام، فيقول لك: هذه لوازم لست معنياً بالتفكير فيها، ويبقى أنهم "بشر .. " ويتطور الأمر سوءاً عند بعضهم فلايقبل مروياتهم ولافقههم بحجة أنهم" بشر" .. فكنت ألاحظ كثرة ترددهم لبشرية السلف لبرهنة عدم حجية ماتتابعوا عليه نقلاً أو فقهاً .. وكنت أتوهم أن التذرع بالبشرية لرفض الانقياد للشريعة شأن جديد .. حتى قرأت قوله تعالى :(فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا(

في منتديات وصوالين المتثيقفين تتفاجأ بكثير من العلمانيين الجذريين الذين لايعولون على حاكمية الشريعة في دقيق ولا جليل، وإذا كتبوا في منتديات الانترنت بالاسم المستعار رأيتهم علمانيين جلدين، لكنهم إذا كتبوا للناس بأسمائهم الصريحة في الصحافة أكثروا من ذكر "مع مراعاة ضوابط الشريعة "، والاستفادة من الفكر الغربي بـ"ما لايعارض الشريعة"، ونحو هذه العبارات .
ولطالما وقفت متأملاً هذا (النفاق الفكري) .. فكنت أتعجب منهم كثيراً كيف يبيتون مالا يرضاه الله من العلمنة ورفض حاكمية الشريعة، فإذا كتبوا للناس أظهروا احترام الشريعة ومراعاتها؟! .. وكنت أظن هذه الحالة شأناً جديداً حتى قرأت قوله تعالى :
(يسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ)

وكنت حين أرى متثيقفاً من أصحاب (النفاق الفكري) الذين يسرون في صوالينهم ومنتدياتهم الانترنتية بالعلمانية ويتظاهرون في الصحافة بمراعاة ضوابط الشريعة أقول في نفسي: هل من المعقول أن يكون يخشى من حمية الناس لدينهم أكثر من خشيته وخوفه من الله رب الناس؟ فرأيت الله تعالى يقول :
(لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ)

وكثير من المفكرين العرب اليوم يقرر بكل صراحة بأن القضية الفكرية في أكثرها (لعبة لسانية) أو بمعنى آخر (مهارة لغوية) .. بمعنى أن القضية هي تبديل ألفاظ فقط.. ولذلك ترى الليبراليين عندنا يحرفون النصوص تحت شعار (إعادة القراءة(، ويبدلون أحكام الشريعة تحت شعار (تجديد الخطاب الديني) ، ويدخلون المحرمات تحت شعار (الانفتاح) ، ويلغون الحواجز الشرعية بين الجنسين تحت شعار (المساواة(، ويهيجون أهل البدع لنشر بدعهم تحت شعار (الحقوق الوطنية) ، وهكذا .. ثم يجمعون هذا الإفساد كله تحت شعار (حقبة الاصلاح) و (عهد الإصلاح الميمون) و (ملك الإصلاح) الخ !
فكنت أتوهم أن هذا التلاعب اللغوي شأن جديد .. حتى قرأت قوله تعالى :
(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ)
ورأيت طائفة من الناس ليسوا بعلمانيين ولا شهوانيين، ولكن غالب وقتهم هو التهكم وانتقاص العاملين للإسلام، فيحصون النقير والقطمير على العاملين للإسلام ويشنعون عليهم بأقل أخطائهم، ولايبصرون الأفاعي في عيون العلمانيين والشهوانيين، بل تجدهم في مجالسهم في غاية اللطف واللين معهم، فكنت أتعجب ممن يمضي عمره في الرقابة على المصلحين وهو لم يقدم شيئاً، ويتلطف للعلمانيين ومروجي الشهوات، وكنت أظن انتقاص جهود العاملين للاسلام سلوك معاصر حتى قرأت قوله تعالى :
(الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ)

بل إن بعض الأخيار في أنفسهم يجادل عن العلمانيين، ويبرر لهم، ويبحث عن التسويغات لأقوالهم، بحجة طلب هدايتهم، في الوقت الذي يتشنج فيه ضد أخطاء المحتسبين .. فكنت أظن افتراق المؤمنين في الموقف من المفسدين إنما هو شأن جديد .. حتى قرأت قوله تعالى :

(فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ)

ورأيت آخرين يشاركون في العمل الإسلامي والأنشطة الدعوية، ولكنه شديد التذمر والشكاية، وإذا تأملت محل تذمره ومحل رضاه؛ اكتشفت أنه ليس مبنياً على أساس عقدي رسالي، بل هو مبني على "حظ النفس"، فإذا كان التصرف الدعوي يراعي حظوظه الشخصية رأيته متبنياً مدافعاً، وإذا كان التصرف الدعوي ليس له فيه حظ ولاتشريف رأيت نياحته لاتنتهي .. فكنت أظن هذا الانتماء الدعوي المشروط على أساس حظ النفس إنما هو شئ جديد .. حتى قرأت قوله تعالى :

(مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ)

وتجد بعض الناس لم يستطع أن يحسم خياراته وسط معركة العقيدة والشريعة والفضيلة هذه .. بل هو يحب أن يكسب العلمانيين ويحب أن يكسب العاملين للإسلام .. ولايحب أن يكون في أحد الكفتين.. وهو صادق في محبته لكلا الطرفين .. فكنت أتعجب من هذه الشريحة التي لم تحسم خياراتها بعد .. وأتساءل عن موقف العاملين للإسلام منها .. حتى قرأت قوله تعالى :

(سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا)

وكنت ألاحظ أن بعض الأخيار يرخي أذنه إلى هؤلاء المحرفين ويستمع لهم، لكن استماعه مع الوقت يتحول من استماع فضول إلى استماع تأثر .. فتتشوش الأمور عنده وتهتز قناعاته.. فيطوح به ذلك الاستماع إلى غيوم الفتنة .. كما قال تعالى :

(يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ)

وكثير من الأخيار يبقى يتلظى بنيران الحيرة، فلا هو استطاع أن يحسم خياراته .. ولا هو استطاع أن يوقف سيل التساؤلات .. ويصبح انتماؤه كغصن عذبته تقلبات الرياح .. فلاهو استلقى على أحد جانبيه .. ولا هو انكسر فاستراح .. ومن جرب عذابات الحيرة والشكوك والارتيابات عرف أنها أكثر ألماً من الضلال ذاته.. ولذلك قال تعالى :

(مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا)

حين رأيت هذه الأمثلة السابقة كلها ..

وغيرها كثير كثير .. لايمكن الإطالة بذكره ..

علمت بالضبط ماذا يعني أن القرآن تبيان لكل شئ ..

حينها وحينها فقط .. أدركت شيئاً من أسرار قوله تعالى :

(وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ) ..

أمثال مضروبة في القرآن فيها الإجابة عن كل شئ في حياتك .. من شعائرك ومعاملاتك إلى دقائق الصراعات الفكرية والسياسية ..

دع عنك المظاهر والرسوم .. ورفرف بين أمثلة القرآن .. وتأمل المعنى المشترك بين (المثل القرآني(و (الصورة المعاصرة(وستنكشف لك سجف الحقائق ..

صدق القائل سبحانه :

(وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

من كل مثل .. من كل مثل..

ابوعمر

معايير تحديد أولويات المواجهة

هناك فريق من الناس يشنع كثيراً على دعاة أهل السنة بالقول بأنهم لا يرتبون الانحرافات بشكل صحيح، فتراهم يردون على من يخالفهم في بعض الملفات الشرعية، ويدعون العلمانيين الأقحاح، أو يقولون أحياناً: سلِم منكم اليهود والنصارى ولم يسلم منكم مفكرون لازال يشملهم الإسلام. أو يقولون أحياناً: أهل السنة يحتاجون إلى الوعي بأي الحروب أولى بالمواجهة. أو يقولون في أحيان أخرى: هرم الانحرافات يقف بالمقلوب في الوعي السني!

وقد لاحظت أن أغلب من يردد هذه الحجج هم التيارات المنتسبة للاستنارة الإسلامية، والإصلاح السياسي، ويرددها –أيضاً– تيار جديد بدأ يظهر على الساحة الآن وهو تيار (الوطنية الإسلامية) وهو تيار يعلن –بمناسبة وبلامناسبة– ولاءه السياسي الكامل والمطلق، ويتعامل مع المخالفين على أساس أنهم "شركاء في الوطن"، ويؤسس شرعية مطالباته وقائمة أجندته الفكرية على أساس "ثوابت الوطن"، ويتحاشى بطريقة فوبيّة غريبة أية لغة يفهم منها البناء على أسس "عقائدية".

على أية حال.. لسنا معنيين كثيراً بمن يردد هذه الحجج، ولكن يعنينا هاهنا أن نحلل مدى شرعية هذه الحجج؟ وهل تتفق مع المنهج الدعوي عند أهل السنة، أم هي بدعة وإحداث في دين الله؟

حين نعيد تأمل هذه اللافتات التي يرفعونها حول "أولويات بيان الانحرافات والرد على المخالفين" نلاحظ أنها تنطوي على "معيار" ضمني، هذا المعيار هو بكل وضوح أن أولوية الرد على المخالف تتحدد على أساس "حجم الانحراف" فالملحد أولى بالرد من العلماني، والعلماني أولى بالرد من المخالف المنهجي لأهل السنة، والمخالف المنهجي لأهل السنة أولى بالرد على الخطأ الفقهي الجزئي، وهكذا.

ولذلك إذا رأو عالماً أو داعية يرد على "مخالف منهجي" لأهل السنة، قالوا له: سلم منك الملاحدة والعلمانيون وجئت ترد على من يشاركك أكثر الأصول والهموم؟!

هذا الموقف منعكس عن مقياس يجعل الأولوية مرتبطة بمراتب الانحراف ذاته.

فما مدى صحة هذا الموقف؟

الحقيقة أنه وبأدنى تأمل في طريقة السلف الصالح وأئمة الهدى فإن الباحث يعرف أن هذا معيار باطل مخالف للمنهج الدعوي عند أهل السنة، ومن تأمل ردود أهل السنة من الصحابة والتابعين وأئمة الأمصار من بعدهم فإنه سيلاحظ أن هناك معياراً مختلفاً كلياً.

فالمعيار عند أهل السنة لا يربط أولويات المواجهة بـ(حجم الانحراف)، وإنما يربط أولويات المواجهة بـ(حجم الحاجة إلى البيان).

تأمل معي بعض هذه النماذج، في الصحيحين أن عبد الله بن عمرو قال رجعنا مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– من مكة إلى المدينة، حتى إذا كنا بماء بالطريق تعجل قوم عند العصر فتوضئوا وهم عجال، فانتهينا إليهم وأعقابهم تلوح لم يمسها الماء، فأخذ رسول الله ينادي بأعلى صوته ويل للأعقاب من النار.

لو طبقنا معيار الطوائف الفكرية بأن البيان والرد يكون على (حجم الانحراف) لقلنا: لماذا يهتم النبي وينادي بأعلى صوته بقضية جزئية لا تتعدى أن بعض الناس بسبب السرعة نسوا جزءاً يسيراً من أقدامهم لم يمسه الماء؟! هل يسوغ أن نقول: الأمم من حول النبي فيهم اليهود والنصارى وعبدة النار والمشركون، والداخل الإسلامي يعاني من الفقر، ومع ذلك يعتني النبي بقضية جزئية تتصل بأحد جزئيات الطهارة؟

هذه التساؤلات لا يستطيع أن ينفك عنها العقل الذي تشبع بالمعيار الفكري بأن الرد والبيان يكون على حجم الانحراف، أما العقل الرصين الذي تشبع بالمعيار الشرعي بأن الرد والبيان يكون بحسب الحاجة إلى البيان فإنه يفهم هذا الفعل النبوي فهماً صحيحاً.

وهذا المثال طبّقه على سائر مواقف النبي –صلى الله عليه وسلم– التي غضب فيها وأظهر فيها اهتماماً واضحاً في مسائل جزئية فقهية يحتمل الخلاف فيها، وقارنها بحال المجتمع النبوي الذي يحيط به أصناف الكفار، وفي داخله أعتى المنافقين، ويعج بالفقراء والمعوزين، ومع ذلك كله يهتم النبي بجزئيات المسائل ويرد على أناس من الداخل الإسلامي ذاته.

وإذا شاء القارئ الفاضل المزيد من هذه النماذج فيمكنه مراجعة بابٍ لذيذٍ إلى الغاية عقده عبقري السنة الإمام البخاري في صحيحه باسم (باب الغضب في الموعظة والتعليم) وهو موجود في الصحيح في (كتاب العلم) فقد ساق فيه شواهد نبوية على اهتمام النبي وغضبه في مسائل جزئية، وعلى أية حال فكتاب العلم في صحيح البخاري إذا تأمله طالب العلم وجد أنه يحسم كثيراً من مسائل النزاع في المنهج الدعوي لأهل السنة.

خذ مثالاً آخر، حين مات النبي –صلى الله عليه وسلم– كان جيش أسامة لغزو الروم قد عقدت رايته، وفي الداخل الإسلامي ظهرت طائفة تنكر وجوب دفع الزكاة لأحد بعد رسول الله، فجهز أبوبكر الجيوش لقتالهم، برغم أنهم يعلنون أنهم مسلمون ويقولون "لا إله إلا الله"، لكن لديهم تأويل لآيات الزكاة بأن المخاطب والمختص بأخذها هو النبي لا غيره فكانوا يقولون: كيف يحق لأبي بكر أن ينزل نفسه منزلة النبي في هذه الفريضة؟!

وقد شرح الإمام ابن تيمية تأويلهم فقال (وأما مانعوا الزكاة فقد ذكروا أنهم قالوا: إن الله قال لنبيه "خذ من أموالهم صدقة" وهذا خطاب لنبيه فقط، فليس علينا أن ندفعها لغيره، فلم يكونوا يدفعونها لأبي بكر ولا يخرجونها له) [الفتاوى، ٢٨/٥٤٢]

فهؤلاء منتسبون للإسلام، ومتأولون لا في أصل الزكاة، بل في حق أبي بكر باستلامها، حتى أن بعض كبار الصحابة أشكلت عليه المسألة بادئ الأمر كما قال عمر (كيف تقاتلهم وهم يقولون لا إله إلا الله)، ومع ذلك فقد جرد ابوبكر سيفه وجهز الصحابة لقتالهم، بكل ما يتضمنه القتال من سفك الدماء وغنيمة الأموال.

فلم يقل ابوبكر: جيش أسامة على تخوم البلقاء يقاوم الروم النصارى، ونحن نقاتل متأولين في مسألة فيها احتمال! بل علم بفقهه الدقيق أن مواجهة هذه الظاهرة الخطيرة في تحريف الإسلام من الداخل في مثل هذا الظرف لا تقل عن أهمية مواجهة النصارى.

فلو طبقنا المعيار الفكري بأن (المواجهة على قدر الانحراف) لقلنا أخطأ أبوبكر، لأن مواجهة نصارى الروم وهم كفار أصليون محاربون أولى من مواجهة متأولين في الداخل المسلم يقولون لا إله إلا الله، فضلاً عن مقاتلتهم!

لكن لو طبقنا المعيار الشرعي بأن (المواجهة على قدر الحاجة إلى البيان) لاستوعبنا حنكة أبي بكر ودقة فقهه وعمق علمه بدين الله، ولذلك تكلم علماء الإسلام كثيراً عن البركات التي حصلت بعزمة أبي بكر على قتال المتأولين في الزكاة.

ويمكن أن نشاهد هذا المعيار السني في تطبيقات الصحابة بشكل عام، كمثل تشديد ابن مسعود على المتأولين في الذكر الجماعي، وتشديد ابن عمر على المتأولين في كون المعاصي مقدرة (وهم الذين سموا القدرية لاحقاً) برغم أنهم لم ينكروا أصل القدر، بل تأولوا بعض معناه فقط، وبرغم أنهم ينتسبون للعلوم الشرعية كما يصفهم الراوي في صحيح مسلم حين جاء يسأل ابن عمر (فقلت أبا عبد الرحمن: إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرءون القرآن ويتقفرون العلم – وذكر من شأنهم – وأنهم يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف) ، ومع ذلك كله قال فيهم ابن عمر مقالته الشديدة المعروفة.

فهل يصح القول: كيف يشدد الصحابة على هذه الاجتهادات في التأويل ويدعون الملاحدة واليهود والنصارى والمجوس والولاة الظلمة والمظالم المالية؟!

بحسب معيار الطوائف الفكرية المعاصرة، نعم، فإن معيارهم سيقودهم إلى التورط بإدانة الصحابة ذاتهم، لكن بحسب المنهج الدعوي عند أهل السنة فهذه المواقف الصحابية معدودة في مناقبهم ومن شواهد عمق فقههم وعلمهم.

وهكذا –أيضاً– انظر في أقوال الأئمة الأربعة في بدعة تأويل الصفات الإلهية، وكيف كانت مواقفهم الشديدة التي وصلت للحكم بكفر المعين أو لعن المعين على أمثال الجهم بن صفوان وعمرو بن عبيد وحفص الفرد ونحوهم (وأقوال السلف في هذا الباب مجموعة في العلو للذهبي واجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم).

فهل يمكن أن نقول للأئمة الأربعة – أبوحنيفة ومالك والشافعي واحمد– أنتم تصرفون جزءاً من وقتكم في التشديد البليغ على من يتأول بعض نصوص الصفات وهي مسائل تحتملها لغة العرب، وتتركون الملاحدة واليهود والنصارى والفساد السياسي في عصوركم؟!

هذه الطوائف الفكرية تنتج معايير ولا تراعي أن معاييرها تقودها إلى إدانة السلف ذاتهم! وهم يتفاوتون في الموقف من ذلك، فبعضهم يطرد قاعدته وأصله ولا يبالي إن كانت قاعدته تقتضي انتقاص السلف واستجهالهم واستبلاههم، وبعضهم فيه بقية دين فيتحاشى أن يطبق قاعدته على عمل السلف، ويفضل أن يعيش بهذا التناقض على أن يواجه لوازم قاعدته.

ومن تطبيقات هذه الإشكالية: ظاهرة "الإباحية الفقهية" المعاصرة، وهي أن بعض أصحاب تدجين الخطاب الدعوي المتصدرين في الفضائيات اليوم صاروا يسلكون منهج "تتبع رخص العلماء وزلاتهم والفتيا بها" بشكل واضح، بل وباندفاع في هذا المجال وتصفيق إعلامي ملفت، وصار عند هؤلاء "لجان علمية" وظيفتها البحث في كل مسألة عن من أباحها من أهل العلم للفتيا بموجب ذلك، لجان يسمونها علمية كل وظيفتها "البحث عن مبيح"!، وتتاح لهم برامج أوقات الذروة ليحقنوا المسلمين المستهدفين بزلات العلماء، كان الله في عوننا نحن المشاهدين المساكين، فبدلاً من أن نجد علماً يحي قلوبنا، صرنا نجد شبهات تربت على أهوائنا لنستكين على وضعنا، شخصيات تصدرت للناس بدلاً من

أن تكون وظيفتها إحياء الإيمان في النفوس، صارت وظيفتها توهين التدين في نفوس الناس، وتوفير مبررات الفتور التعبدي والبرود الدعوي.

المهم.. أنه إذا قام أحد علماء ودعاة أهل السنة ببيان الانحراف في عين فتوى بذاتها، أو تجاه مسلك هذا الرجل بعمومه، قاموا عليه وأخذوا يتساءلون باستغراب: تترك العلمانيين وتأتي لهذا المنتسب للدعوة؟! هذا خلاف فروعي لا يستدعي منك أن تكتب في بيانه؟! تترك المخالف في الأصول ترد على المخالف في الفروع؟! ونحو هذه العبارات.

وإجابة على هذه الدعوى يقول أبو العباس ابن تيمية رحمه الله مبيناً أن الحاجة للبيان في مثل هذه المسائل قد تفوق الحاجة للبيان في بعض مسائل العقيدة الظاهرة لكل أحد، كما يقول رحمه الله:

(فإن فتوى من مفتٍ في الحلال والحرام، برأيٍ يخالف السنة أضر عليهم من أهل الأهواء، وقد ذكر هذا المعنى الإمام أحمد وغيره، فإن مذاهب أهل الأهواء قد اشتهرت الأحاديث التي تردها واستفاضت، وأهل الأهواء مقموعون في الأمر الغالب عند الخاصة والعامة، بخلاف الفتيا فإن أدلتها من السنة قد لا يعرفها إلا الأفراد، ولا يميز ضعيفها في الغالب إلا الخاصة، وقد ينتصب للفتيا والقضاء ممن يخالفها كثير) [الكبرى، ٦/١٤٤]

فبالله عليك تأمل في عمق هذا الفقه، حيث جعل الرد على بعض الفتاوى الفروعية التي شذت عن طريق أهل العلم، قد تكون أولى بالبيان من بعض البدع الكبرى، لأن الأولى خفية والثانية ظاهرة، فجعل المعيار رحمه الله ليس حجم الانحراف، بل مدى حاجة الناس للبيان.

وثمة مقولتان للعلامة المتفنن بكر أبوزيد كلما قرأتهما رقصت جوانحي طرباً لهما، وما رأيت كلام هذه الطوائف الفكرية في هذا الباب إلا تذكرت عبارته يرحمه الله، وهاتان العبارتان كلاهما مذكورتان في كتابه "الردود"، فأما العبارة الأولى فهي قوله رحمه الله وغفر له:

(إذا رأيت من رد على مخالف في شذوذ فقهي، أو قول بدعي، فاشكر له دفاعه بقدر ما وسعك،ولا تخذله بتلك المقولة المهينة "لماذا لا يرد على العلمانيين")[الردود، بكر أبوزيد، ٤٩]

وأما العبارة الثانية فهي قوله رحمه الله:

(فقل لي بربك: إذا أظهر المبطلون أهواءهم، والمرصدون في الأمة: واحد يخذّل، وواحد ساكت، فمتى يتبين الحق؟) [الردود، بكر أبوزيد، ١٧] وعلى أية حال .. أولئك الذين يلومون علماء ودعاة أهل السنة على مقاومتهم للانحرافات المنهجية —حتى المنتسبة منها للفكر الإسلامي– بحجة أن مقاومة اليهود والنصارى والملاحدة والعلمانيين أولى إنما يتمسكون بحجة مؤداها الإزراء بجهود النبي وأصحابة وأئمة الهدى من بعدهم في العناية بسائر تشريعات الإسلام كليها وجزئيها، وأن جهود البيان والرد عندهم ليست مرتبطة بحجم الانحراف، بل مرتبطة بمدى حاجة الناس للبيان.

والله أعلم.

أبوعمر

ربيع الأول ١٤٣١هـ

استمداد المذاهب من خارج أهلها

الحمدلله وبعد،،

يتصور البعض أن المذاهب الفقهية أسوار مغلقة أقرب إلى القنوات المتجاورة التي تسير بجنب بعضها لكنها لاتتمازج، أي أنها كانت تجتهد وتفكر وتنتج داخل فضائها الفقهي الخاص فقط، وهذا غير دقيق، فهناك فقهاء يمكن تسميتهم (الفقهاء العابرين للحدود) وهم فقهاء أثروا على مذاهب أخرى تأثيراً جوهرياً أوجزئياً.

وحين كنت أطالع كتب المذاهب الفقهية الثلاث (الحنفية والمالكية والشافعية) وللأسف ليس لي خبرة دقيقة ومنظمة بها، بل كثيراً ماتمر بي اصطلاحات في كتب المذاهب الأخرى ولاتتبين لي، وخصوصاً المالكية فما أكثر اختصاراتهم، لكنني كنت أراجع بعض المسائل فقط، فكان يدهشني حجم الحضور لأعلام مميزين خارج مذاهبهم.

أكثر شخص شدني حضوره خارج مذهبه ولم أجد ذلك لعالم آخر في كل التراث الإسلامي، وأستبعد أن يوجد له مثيل، فهو حضور مكثف وغزير وكأنه واحد من أهل المذهب نفسه، إنما هو (ابوحامد الغزالي)، فالغزالي حاضر في المذاهب الأخرى صراحة أو ضمناً بشكل مثير للاستغراب جداً، وهو بحاجة لدراسة لسبب استثثاره بهذا التأثير الأممي في عالم الفقه؟!

وخصوصاً تأثير الغزالي على الفقه المالكي، حتى أنني مرة حين رأيت كثرة ورود الغزالي في كتب المالكية استربت في الأمر، وقلت لعل هذا رجل من المالكية اسمه الغزالي! وراجعت المسألة ووجدته ابوحامد فعلاً! ومن أكثر من أدخل الغزالي على المالكية ابن شاس رحمه الله

حتى قال ابن عرفة في أحد مسائل الشهادات (لا أعرف هذه المسألة لأحد من أهل المذهب، إنما ذكرها الغزالي فأضافها ابن شاس للمذهب)، وينص ابن عرفة كثيراً فيقول "نص عليها الغزالي".

ولاحظت متأخري الحنفية ينقلون كثيراً من إحياء علوم الدين للغزالي، والمالكية ينقلون كثيراً من الوجيز للغزالي، وربما أن السبب هو اختلاف نمط الاحتياجات، فالحنفية يحتاجون للجانب الأخلاقي الذي عرضه ابوحامد، والمالكية يحتاجون للفروع التي فرعها ابوحامد، إذ لم يكن متقدمو المالكية مولعون بالتفريع كما كان الحنفية فلديهم اكتفاء من هذا الجانب.

وحتى في أصول الفقه، فالكتاب المشهور للحنابلة هو (روضة الناظر) وهو مختصر من المستصفى، وابن رشد المالكي صاحب بداية المجتهد لخص المستصفى أيضاً!

ويبدو لي لو بحث أحد الباحثين مصادر الأحاديث الضعيفة التي دخلت على كتب المذاهب الفقهية، فلن أستبعد أن يكتشف أنه بسبب الإحياء، فالإحياء للغزالي هو بوابة الأحاديث الضعيفة على أمة محمد، غفر الله له، وكلما تذكرت كتاب العراقي (المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج مافي الإحياء من الأخبار) أخذت أتعجب من شدة جلد العلماء السابقين، نحن اليوم مع كل الإمكانيات البحثية نتعب في تخريج الحديث وجمع طرقه وتحقيق صحته، بل الواحد

منا إذا حقق مائة أومائتي حديث شعر بالزهو، وهذا العراقي يلاحق أحاديث الإحياء الغزيرة والتي أكثرها ليس في دواوين الإسلام المعروفة، فلله در العراقي!

وأكثر متأخري الحنفية ماتريدية، وكتابهم الرئيسي هو (المسايرة) وقد تأثر فيها بالغزالي حتى قال ابن عابدين (المسايرة هي رسالة في علم الكلام ساير بها عقيدة الغزالي).

فالغزالي أعظم شخصية إسلامية مؤثرة في العصر الوسيط !

والشاطبي متأثر بالقرافي، والقرافي متأثر بالعز بن عبدالسلام الشافعي تأثيراً جوهرياً شديداً، وقد كنت أقرأ في الفروق للقرافي مواضع تعجبني جداً، ثم أكتشف أنها بنصها في قواعد الأحكام للعز ابن عبدالسلام، وقد أشار لذلك الشاطبي مرةً في الاعتصام فقال (ومما يورد في هذا الموضع أن العلماء قسموا البدع بأقسام أحكام الشريعة الخمسة، ولم يعدوها قسما واحدا مذموما، فجعلوا منها ما هو واجب ومندوب ومباح ومكروه ومحرم، وبسط ذلك القرافي بسطاً شافياً، وأصل ما أتى به من ذلك شيخه عز الدين بن عبد السلام).

وأما المغني لابن قدامة فمادته الجوهرية من ابن المنذر وابن عبدالبر، وخصوصاً مذاهب الصحابة والتابعين، ومذاهب أئمة الأمصار، بل كثيراً ماينقل ابن قدامة أقوال ابي حنيفة ليس من كتب الحنفية بل من كتب فقهاء أهل الحديث كابن المنذر وابن عبدالبر، وهذا هو سبب عدم دقة المغني في نقل مذهب الحنفية على وجه الخصوص، فتجد دوماً للحنفية تفصيلات دقيقة في مسائلهم لاتجدها واضحة حين يناقشهم ابن قدامة في المغني، بل تجده كثيراً ما يسوق قول ابي حنيفة بنفس صياغة ابن المنذر وابن عبدالبر له.

والحقيقة أن ابن عبدالبر لم يكن مورداً أساسياً لابن قدامة فقط، بل إن ابن رشد صاحب بداية المجتهد، إنما كتابه مجرد "تنظيم عقلي" لمادة الاستذكار لابن عبدالبر، ولولا ابن عبدالبر لما راح ابن رشد ولاجاء، وقد صرح بذلك ابن رشد في نفس الكتاب، فحين أنهى كتاب الطهارة ختمه بهذه الجملة (وأكثر ما عولت فيما نقلته من نسبة هذه المذاهب إلى أربابها هو كتاب الاستذكار، وأنا قد أبحت لمن وقع من ذلك على وهم لي أن يصلحه).

وفي بقية الكتاب لايصرح ابن رشد باسم ابن عبدالبر إلا حين يورد تصحيحه أو تضعيفه للمرويات، فانظر لحسن أثر "أهل الحديث" على الناس، ولذلك فقد صدق ابن تيمية حين فسر خفة انحرافات الفلاسفة مثل ابن ملكا وابن رشد (مقارنة بابن سينا والفارابي) بكونهم نشؤوا بين أهل الحديث وانتفعوا بهم.

وأتعجب ممن يكيل الإطراء لكتاب "بداية المجتهد"، وينسى أن مادة الكتاب كله هو من جهد ابن عبدالبر، بل حتى ابن حزم الموسوعي تراه في كتبه يقول كتبت لابن عبدالبر وأخبرني ابن عبدالبر، بل في رسالة لابن حزم تحدث فيها عن علوم أهل الأندلس تحدث بفخامة لاتوصف عن عظمة كتاب التمهيد لابن عبدالبر، وأنه لايوجد مثله في الكلام على فقه الحديث، وهكذا كان يبجله ابن تيمية أيضاً.

ومن أطرف الأخبار في هذا الباب، ويستحق أن يفرد في باب من العلم خاص وهو (باب مانقل فيه أهل المذهب مذهبهم عن غيرهم) حيث وجدت موضعاً طريفاً في رد المحتار لابن عابدين قرر فيه المذهب الحنفي لا بناءً على نص للحنفية، بل بناء على نص لابن تيمية في حكاية المذهب الحنفي، حيث يقول ابن عابدين عن مسألة الساب :

(فقد أفاد –أي ابن تيمية– أنه يجوز عندنا قتله إذا تكرر منه ذلك وأظهره، وقوله "وإن أسلم بعد أخذه" لم أر من صرح به عندنا، لكنه نقله عن مذهبنا وهو ثبت فيقبل).

وهذا موقف طريف جداً، فابن عابدين معروف في التشدد والتدقيق في حكاية المذهب، وأعظم من ذلك شدة الاطلاع على كتب الحنفية واستيعابها، ولا أظن في متأخري الحنفية من يضارع ابن عابدين في استيعاب كتب الحنفية والتدقيق فيها، لكن لعظم ثقته في نقل أبي العباس، فقد جعله من المذهب حتى وإن لم يجده عن أئمتهم!

أعتقد أن الإخوان مرت بهم ملاحظات طريفة حول التلاقح المذهبي، وتأثر المذاهب ببعضها، وظاهرة الفقهاء العابرين للحدود، وسيكون ضم هذه الفوائد لبعضها، وتصحيحها وتنقيح التعميمات الخاطئة فيها، ينتج مادة جميلة بإذن الله.

والله أعلم.

ابوعمر

جمادى الأولى ١٤٣١هـ

عودة المدرسة التجريحية

الحمدلله وبعد،،

الإخوة الفضلاء،، آلمني جداً عودة ظاهرة (تجريح العلماء والدعاة والمحتسبين) ورميهم بأنهم عبيد الحكومة، وخدم الاستبداد، وفي صفقة سياسية .. وما ينتج عن ذلك من انفصال الشباب عن العلماء والدعاة، واشتغاله بتوافه الأمور وقسوة القلب، وملء الشباب بالتعالي المجوف والغرور الفارغ والاعتداد المفرط بالذات والولوغ في أعراض أهل العلم والدعوة والمحتسبين بلا عمل، وكل ذلك يفضي إلى (البطالة الدعوية) وتدريجياً ينتهي الواحد منهم بـ(رقة الدين) فيتساهل في النظر المحرم والسماع المحرم والكلام المحرم، ويهجر القرآن، بل يؤول إلى حالة اغتراب اجتماعي، فإذا تأمل العاقل هذه المصائر علم خطورة تغذية الشباب بالحنق العام على أهل العلم والدعاة بعامة.

والله يا إخوان إننا مسؤولين أمام الله ونحن نرى بعض النزقين يتسببون في انتكاسات لا يعلمها إلا الله بسبب تهييج نفوس الشباب ضد العلماء والدعاة بدلاً من مساندتهم، فيجب أن نصنع شيئاً.

تذكروا يا إخوان قول الله تعالى في تناصر المؤمنين **(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) [التوبة، ٧١]** وقارنوا ذلك بهؤلاء الذين يتفننون في خذلان أهل العلم والدعوة بحجة أنهم عبيد الحكومة وخدم الاستبداد.

وتأملوا قول الله تعالى في سلامة الصدر لأهل الإيمان ونبذ الغل تجاههم **(وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)** [الحشر، ١٠] وقارنوا ذلك بهؤلاء الذين امتلأت قلوبهم بالغل على أهل العلم والدعوة بحجة أنهم يشرعنون الاستبداد السياسي وغيرها من شماعات الظلم والجور.

أحببت أن أساهم في الذب عن أهل العلم والدعوة عبر إعادة نشر هذه المقالة التي بالمرفق، فآمل من إخواني إعادة نشرها، أو إعادة نشر نظيرها مما كتبه الإخوان من مقالات مباركة إن شاء الله، المهم التصدي لهذه الظاهرة الخطيرة، هدى الله وغفر لهؤلاء المسترسلين فيها لايلوون على شئ.

ابوعمر - **شعبان ١٤٣١هـ**

التغريض السياسي

الحمدلله وبعد،،

هذه رسالة إليك أنت يا أخي المتدين، يامن لاتزال الحمية للشريعة والغيرة على الاسلام وأهله تلتهب في قلبك، أنت تعرف –يا أخي الكريم– أن هناك اليوم قراصنة جدد مهجوسون مشغوفون لايرتاح لهم جانب في أن يجتاحوا تدين الشباب ويسلبوهم غيرتهم ليجعلوهم مشاركين لهم حول طاولات الأهواء ولذائذ التنصل عن أحكام رب العالمين، ويستخدمون في ذلك كل وسائل الاتصال والتأثير في الناس، سواء عبر الأعمدة الصحفية أو المقابلات الفضائية أو بالأقنعة المنتدياتية أو بالسهرات الفكرية، بل حتى برسائل الجوال، منهومون لاينقطعون في بعث وترويج كل تعليق أو نقل أو اقتباس أو إشاعة يكون من شأنها إرباك قناعات الناس تجاه أحكام الشريعة، وتصديع اليقين بالمعطيات الشرعية، وتذويب التدين في نفوس الناس، أنت تعرف ذلك جيداً، ولم يعد الأمر بخافٍ على أحد، ولكني –يا أخي الكريم– أريد أن أحدثك عن بعض تقنياتهم ووسائلهم المدهشة في تجميد التدين في النفوس، وتبديد دوافع الغيرة والحمية للشريعة.

ووالله الذي لا إله غيره أن رأس مال المرء في هذه الدنيا دينه وإيمانه وعلاقته بالله ورسوله، وماهي إلا سويعات قلائل ويقال "أحسن الله عزاءكم في فلان"، وينتقل المرء إلى عالم آخر هو مستقبله الحقيقي لن ينفعه فيه إلا صبره في هذه الأيام المحدودة على مراد الله ورسوله، ولذلك تتوافد الملائكة من شتى الأبواب على أهل الجنة لحظة دخولها منوهين بصبرهم على مراد الله ورسوله كما قال تعالى **(وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ)** نسأل الله الكريم أن نكون جزءاً من هذا المشهد البهيج، وفي الصباح يحمد القوم السرى.

والمراد يا أخي الكريم أنه لاخير فينا –والله العظيم– إن بقي شبابنا الأخيار ضحايا لمكر هؤلاء في سلب الشباب تدينهم وتكبيل انقيادهم لله ورسوله، وقد شاهدنا من مكرهم ألواناً وألواناً تجعل المرء يصفق كفاً بكف متعجباً كيف يمضي هؤلاء ليلهم ونهارهم في تشويش تدين الناس والشباب المسلم ولاحول ولاقوة إلا بالله، ويشهد التاريخ أن تلبيس مفاهيم التدين على الناس من أعظم مهام المفسدين كما قال الحق تبارك وتعالى **(لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ)** .

لنأت الآن إلى غرض هذه المقالة وهو ذكر أساليب وتقنيات أهل الأهواء الفكرية في إضعاف التدين في النفوس:

أول وأهم وأكثر التقنيات فاعلية هي "**شحن الشاب ضد المتدينين والأخيار**" تمهيداً لعزله عن مغذيات التدين، وهذه الطريقة في غاية الفعالية والتأثير، لأن إسقاط الآمرين بالمعروف بالكامل إسقاط للمعروف الذي يحملون، وإسقاط الناهين عن المنكر بالكامل إسقاط لنكارة المنكر الذي ينكرونه، فإسقاط العلماء والدعاة بالكامل إسقاط للعلوم الشرعية والدعوة الاسلامية التي يحملون، فبدلاً من النقاش الموضوعي حول أدلة أحكام الشريعة يكتفون باسقاط الحامل ليسقط المحمول، ولذلك تجد حرصهم وولعهم الشديد بتشويه المتدينين والمصلحين والعلماء وسائر الناجحين من دعاة أهل السنة والجماعة وإلصاق كافة المعايب والمهامز بهم.

ومن أكثر وسائلهم رواجاً لتحقيق هذا الغرض "**اتهام المصلحين بالأغراض السياسية**" فتجد هؤلاء يقولون لك دوماً هؤلاء الفقهاء والدعاة يبحثون عن السلطة، أو يقولون لك هؤلاء لهم "صفقة سياسية مع الحكومة" وقد التقيت مرةً بأحد هؤلاء فأخذ يدور ويطوف حول فكرة أن هؤلاء الاسلاميين عندهم صفقة قذرة مع الحكومة، قلت له أعطني مسألة شرعية واحدة، مسألة واحدة فقط، غيّر جمهور العلماء والدعاة فيها موقفهم لأجل أن السلطة السياسية تريد ذلك، أو بدّل أهل السنة والجماعة الحكم الشرعي فيها لأجل صفقة سياسية كما تقول؟

تردد هذا المسكين قليلاً، ثم ذكر أمثلةً زادت دعواه هشاشةً، فقال: انظر الآن في التهييج الطائفي عند الاسلاميين وحماسهم ضد الشيعة وخرافة "المد الصفوي"، ونحوها من المصطلحات، كل ذلك لأن الدولة الآن لها صراع مع إيران، فهذا التأليب الاسلامي ضد الشيعة الآن إنما هو صفقة مع الحكومة، فقال له أحد الجالسين: أهل السنة والجماعة منذ خلق الله الشيعة وعندهم موقف جذري ضدهم يصل إلى تكفير بعض طوائفهم، وقال له آخر: وهل "منهاج السنة" لابن تيمية صفقة مع حكومتنا أيضاً؟!

والمراد أن أهل السنة لهم موقف عقائدي صريح ضد الشيعة سواء كان النظام السياسي المحلي يتبنى الحوار والدبلوماسية معهم، أم يتبنى المواجهة الاعلامية ضدهم، فلم يغير أهل السنة موقفهم العقدي، بل ولم يكلفوا أنفسهم –أصلاً– بمعرفة بوصلة مصالح النظم السياسية المعاصة وتبدلاتها المستمرة في العلاقة مع الشيعة، فالعقيدة عقيدة.

فقال صاحبنا دعنا من هذا المثال: هل تتذكر إنكار فلان وفلان (وعدد أسماء شخصيات بعينها) ضد الاختلاط في المنتدى الاقتصادي بجدة، وكل ذلك لأن أحد أجنحة السلطة له موقف ضد الجناح الآخر، فقلت له: منكر الاختلاط أحد أهم المنكرات المعروفة عند المذاهب الأربعة لأهل السنة والجماعة، ومنذ مائتي سنة ودعاة أهل السنة صاروا يكتبون فيه بشكل متزايد بتزايد البلاء، ولم يغير الفقهاء والدعاة موقفهم لأجل أن السلطة السياسية تريده، أو لأجل أن السلطة السياسية لاتريده.

ثم أنت الآن لو دققت في كلامك لاكتشفت أن مؤداه أنك تقول أن السلطة فيها جناحان، أي أنك ترى أن السلطة فيها جناح مستفيد من دعم الاختلاط وجناح يستفيد من معارضته، وهذا يعني أن غالب العقائد والأحكام الشرعية لاتخلوا من وجود طرف سياسي قد يستفيد منها، وبالتالي فلو اعتبرنا ذلك قادحاً فيها لتركنا عقائد الاسلام وشرائعه بالكلية! حتى لاتكون صفقات سياسية كما تردد.

قال لي: انظر في الهجمة التي يقودها فلان وفلان (وعدّد –أيضاً– أسماء شخصيات دعوية بعينها) ضد غازي القصيبي ومن يسمى الفريق الليبرالي للملك عبدالله، كل ذلك أيضاً جزء من صفقة سياسية قذرة، قلت له: موقف الاسلاميين من غازي القصيبي تعرف أنت أنه منذ أيام أزمة الخليج، ولم يغيروا موقفهم منه لأن شخصية سياسية ما طلبت منهم ذلك.

قال لي: حسناً .. هل تنكر أن الملك فيصل وقع صفقة سياسية مع الاسلاميين لضرب الناصرية والقومية والماركسية والبعثية الخ، قلت له: يارحمك الله، أجزم أنك تعرف في قرارة نفسك كذب هذا المثال، فأنت تعرف –بالشكل الكافي جداً– أن عبدالناصر نكّل بالعلماء والدعاة، وأقام لهم المعتقلات الجماعية، وأعدم "ضمير الدعوة" في تلك المرحلة سيد قطب رحمه الله، ولذلك ناصبه الدعاة العداء، وليس لأن الملك فيصل طلب منهم ذلك، أو لأنه أبرم معهم صفقة سياسية. وأنت تعرف أيضاً –بصورة واضحة تماماً– أن موقف الاسلاميين من سائر التيارات التغريبية هو هو لم يتغير، فلم يكن الاسلاميون ماركسيون ثم انقلبوا على ماركس لما طلب منهم الملك فيصل ذلك.

شارك شخص آخر من نفس طينة صاحبنا وقال: أتنكر أن رمزكم الدعوي رقم واحد أيام أزمة الخليج صار اليوم يمدح النظام العلماني التونسي ويتهم الاسلاميين بأنهم شوهوه، ومن تقبل إراقة الإطراء الديني للنظام العلماني التونسي فهو لمن فوقه أشد إطراءً، أم أن هذه أيضاً ليست مصافحة سياسية؟! قلت له: بيض الله وجهك، جعل الله والديك في الجنة، فقل لي بالله عليك كيف صار موقف فقهاء ودعاة أهل السنة من هذه المقالة التي ذكرتها؟! فهذا مثال ناصع عليك لا لك، وهو أن الاتجاه الإسلامي تيار رشيد عاقل شديد النفور من تبديل الأحكام الشرعية في دهاليز السياسة.

يا أخي الكريم أنت تزعجنا في كل مجلس بأن الاسلاميين عندهم صفقة سياسية قذرة مع أحد أجنحة السلطة، وإلى الآن لم تأتِ بمثال واحد، بل بمسألة شرعية واحدة فقط، تثبت فيها أن جمهور الاسلاميين من فقهاء ودعاة أهل السنة والجماعة غيروا رأيهم فيها لأن السلطة السياسية طلبت منهم ذلك، ألا تستحي من تكرار هذه القضية؟!

ثم لو سرنا على منطقك هذا لقلنا أيضاً: يجب أن لاننتقد الرمز الشيعي حسن نصر الله حتى لاتكون صفقة سياسية مع اسرائيل، ويجب أن لانهاجم التشيع الإيراني حتى لاتكون صفقة سياسية مع النظم الملكية الخليجية، وكان يجب على المسلمين أن لايقاوموا الغزو الروسي لأفغانستان، بل كان يجب على الأفغان أن يرحبوا بالروس ويقدموا لهم ألذ وجبات التميس حتى لاتكون صفقة سياسية مع أمريكا، ويجب على المسلمين أن لايقاوموا اجتياح صدام للكويت وشمال المملكة حتى لاتكون صفقة سياسية مع القوات الأمريكية، وكان يجب على المسلمين أن لايقاوموا الغزو الأمريكي للعراق حتى لاتكون صفقة سياسية مع حزب البعث، الخ هذه التفريغات للمحتوى الموضوعي للعقائد والأحكام بذريعة أن طرفاً سياسياً ما يستفيد منها فهي صفقة سياسية!

بل إذا أصبحت تفكر بهذا المنطق الساذج فأخشى أن تتهم النبي وأصحابه حين تمنوا هزيمة الفرس بأنهم في صفقة سياسية مع الروم، أو أنهم يخدمون مصالح الامبراطورية الرومية، وأن تتهم النبي بأنه حين شرع تمويل السّلم أنه في صفقة سياسية مع كبار المقرضين، وأنه حين حرم هروب الرقيق أنه في صفقة سياسية مع طبقة السادة، وأن الصحابة –رضوان الرحمن عليهم– إنما قاتلوا المرتدين مع أبي بكر الصديق ليس لأجل قادح عقدي يتصل بإنكار أحد القطعيات الشرعية، بل لهدف اقتصادي لأجل الميزانية وخزينة الدولة.

وهكذا تحاول إسقاط كل مفهوم شرعي عبر البحث عن مستفيد منه، ثم إطلاق الشائعات أن فقهاء ودعاة أهل السنة والجماعة في صفقة سياسية مع هذا المستفيد من هذا الحكم الشرعي، وهذه الطريقة —صدقني– سرعان ماتنكشف بمجرد أن يواجهك الباحث الواثق بالمعطيات الموضوعية للحكم الشرعي، ويتيقظ لهذا الفخ التقليدي الذي تضعه له، والذي هو بكل اختصار "الطعن في الأحكام الشرعية بتهمة الصفقة السياسية مع المستفيدين منها".

مضى على هذه المناقشة زمناً، ثم وقعت حادثة "الاختلاط الكاوستي" في الشهر الماضي فأرسل لي صاحبنا وقال: (**هاه يابوعمر .. لاتزال على رأيك .. انظر حولك حفلة الفتاوى التي تساقطت تدعم مشروع الاختلاط**) قلت له: والله لم أر أعظم مكابرة منك، هذه الحادثة تثبت فعلاً استقلال جمهور الاسلاميين من فقهاء ودعاة أهل السنة الذين شهدت لهم الأمة بالعلم والديانة، أفلا ترى الفريق الوزاري المعني بالأمر ضغط بقوة في هذا الاتجاه، إلى درجة تنظيم مؤامرة "صبيحة المقالات الشرية" ، ثم إقالة أحد أعضاء هيئة كبار العلماء بهدف إرهاب المنكرين، ثم التدمير المنظم للمواقع الالكترونية الاحتسابية الشهيرة .. ومع كل هذا الثقل الحساس للموضوع وتبعاته الخطيرة، وصفاقة الفريق الليبرالي/السياسي الذي يقود المشروع، مع ذلك كله فقد صرح بالانكار والتغليظ الشيخ الإمام عبدالرحمن البراك وصالح الفوزان والعباد والسعد والطريفي وغيرهم، وكتبت مجموعة من علماء وقضاة مكة المكرمة بياناً مطولاً أدانت فيه الاختلاط، وكتب كثير من المفكرين والكتاب الاسلاميين مقالات تنتقد الوضع، ثم عادت قناة المجد واستضافت الداعية المعروف ناصر العمر وتحدث مجدداً عن الموضوع، فضلاً عن مئات المقالات التي كتبها الشباب المسلم في المنتديات والمجموعات البريدية ..الخ

بل أنت تعلم أن مراسلي الصحف الكبرى يطوفون يومياً على المشايخ في الرياض والحجاز والشرقية وغيرها علهم يظفرون بأي دعم فقهي، ومع ذلك لم يظفروا إلا بأسماء معينة إما هذه هي طبيعتها منذ الأصل، وإما أنها من الشخصيات المعزولة عن الواقع فاستغفلت ولم تعرف بالضبط أبعاد تلك الاستدراجات الصحفية.

والمراد أنه مع كل هذه المقاومة والإنكار العلني، وتمسك البقية بالتحريم ممن آثروا الصمت؛ تصر على أن فقهاء ودعاة أهل السنة إنما تقوم مبادؤهم على الصفقات السياسية!

وهذه –بالمناسبة– من أقبح أساليبهم في المغالطة، حيث يأتون بنماذج لشخصيات تنسب نفسها للعلم الشرعي، برغم أن الناس تعلم تبعيتها السياسية التامة، وليسوا من علماء أهل السنة المتبوعين الذين شهد لهم الخاص والعام بالعلم والديانة، فيأتي هؤلاء المفسدون ويأخذون مواقف هذه الشخصيات ويستدلون بها على أن علماء ودعاة أهل السنة والجماعة كذلك، ويقولون انظر إلى مواقف فلان وفلان، والجميع يعلم أن هذه الأسماء المذكورة إنما يتعاملون مع العلم الشرعي باعتباره "كادر وظيفي" وليس باعتباره "رسالة دينية" .

وهذا الأسلوب يتكرر كثيراً، وأحياناً يستخدمون فيه المكاثرة والتهويل فيحشرون أسماء لشخصيات رسمية من نمط "الشيخ الوظيفي" الذي سبقت الاشارة اليه، ويقولون انظروا إلى تغير فتاوى هؤلاء لما غيَّر النظام السياسي موقفه! وسلوكهم هذا في المكابرة المكشوفة يذكرني بنفس سلوك شيخ الشيعة الحلِّي الذي تساجل مع الامام ابن تيمية، حيث زعم الحلِّي أن في أهل السنة من هو مؤمن بالتشيع لكنه يخفيه لكي لايذهب عليه نفوذه السياسي! حيث يقول الحلي في منهاج الكرامة:

(وكثيرا ما رأينا من يتدين في الباطن بمذهب الإمامية، ويمنعه عن إظهاره حب الدنيا وطلب الرياسة، وقد رأيت بعض أئمة الحنابلة يقول إني على مذهب الإمامية، فقلت: لم تدرِّس على مذهب الحنابلة، فقال ليس في مذهبكم البغلات والمشاهرات. وكان أكبر مدرسي الشافعيه في زماننا حيث توفي أوصى أن يتولى أمره في غسله وتجهيزه بعض المؤمنين، وأن يدفن في مشهد مولانا الكاظم، وأشهد عليه أنه كان على مذهب الإمامية).

فرد عليه ابن تيمية بأنه هذه أخبار مرسلة غير مبرهنة، وبأنه على فرض ثبوتها فلايمتنع أن ينتسب إلى أهل السنة مبتدع، كما انتسب إلى الصحابة منافقون، والجملة الأهم في جواب الامام ابن تيمية هي قوله:

(ومن استدل بزندقة بعض الناس في الباطن على أن علماء المسلمين كلهم زناقدة؛ كان من أجهل الناس) [منهاج السنة النبوية]

وهكذا فإن من استدل بموقف بعض الموظفين المنتسبين للعلم الشرعي على أن جمهور علماء أهل السنة ودعاتهم كذلك فهو من أجهل الناس.

المهم .. لا أطيل عليكم بقصتي مع هذا المغالط، لكن كل الذي أريده منك يا أخي الكريم أنك حين تواجه شخصاً من هؤلاء المفسدين يحاول "شحن المتلقين ضد المتدينين" عبر مضغ هذه الفكرة التقليدية وهي أن فقهاء ودعاة أهل السنة لاينطلقون من عقائد وأحكام شرعية فعلية، بقدر ماهي صفقة سياسية مع الحكومة، فأرجوك أرجوك أن تتحاشى التوتر والانفعال، اطرح عليه بكل هدوء سؤالاً واحداً فقط: **"أعطني مثالاً واحداً فقط لمسألة شرعية غيَّر الاسلاميون فيها الحكم الشرعي لأجل أن طرفاً سياسياً ما طلب منهم ذلك؟"** .

وصدقني بمجرد أن تطرح هذا السؤال في مواجهته فستجد كيف يتحول هديره واستطالته إلى تقلصات في قسمات وجهه تبدأ بالارتباك وتنتهي بالحيرة، وسينكشف للمتلقين بكل بساطة مكر هذه الدعوى.

ولكن لم يستخدم قراصنة الأديان هذه الدعوى كثيراً؟

الحقيقة –بكل اختصار– أن اللجوء الى اتهام فقهاء ودعاة أهل السنة والجماعة بالأغراض السياسية (عبر البحث عن المستفيد السياسي من الحكم الشرعي) إنما هي مجرد آلية مريحة للتخلص من عبء الإجابة الموضوعية على اعتبارات الأحكام الشرعية، فهؤلاء المفسدون تشيع فيهم الأنيميا العلمية الفظيعة، سيما في علوم الوحي، فلايمكنهم جمع أسانيد الأحاديث محل البحث ومعرفة صحتها وسقمها، ولاتحرير نسبة المذاهب لأربابها، ولاتحقيق مواطن الاجماع والخلاف، ولامعرفة القواعد اللغوية المؤثرة على لفظ القرآن والسنة ودلالتهما، ولاالقدرة على تتبع تصرفات الشارع في الموضوع محل البحث، ونحو ذلك من القدرات والإمكانيات العلمية اللازمة للتفنيد الموضوعي، وبالمقابل: تملي عليهم أهواؤهم وشهواتهم الرغبة الملحة في التخلص من ضغوط الخطاب الدعوي الذي ينشر هذه المفاهيم الشرعية التي تقلق وتزعج نزواتهم، وتحرجهم بتكريس البشاعة الاجتماعية للمنكرات التي يهوونها، فلذلك يلجؤون إلى إسقاط الخطاب الشرعي ذاته عبر اتهام أهل السنة بأن قضاياهم الشرعية هذه إنما هي "صفقة سياسية" فيسقطون المحمول باسقاط الحامل له، لكي يتخلصوا من كلفة الانقياد لله رب العالمين.

ولكن هل آلية "التغريض السياسي" (أعني اتهام المصلحين بالأغراض السياسية) وسيلة جديدة ومعاصرة؟ لا، أبداً، بل كان خصوم الأنبياء يستخدمونها منذ آماد سحيقة، ولذلك لما عجزت حاشية فرعون عن مواجهة موسى "موضوعياً" لجأت إلى اتهامه بالأغراض السياسية، كما حكى الله مقالتهم فقال:

(قالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ)

فانظر –بالله عليك– كيف أنهم لما أفلسوا في التفنيد الموضوعي لحجج موسى على قضاياه الشرعية، لجؤوا إلى اتهامه بأنه باحث هو وشقيقه عن النفوذ السياسي، ويهدفون من ذلك إلى تشويهه لشحن الناس ضده وعزلهم عنه، وقد كان للفقيه اللامع ابن سعدي –رحمه الله– تعليقاً أخاذاً على هذه الحجة السياسية لحاشية فرعون، حيث يقول رحمه الله :

(هذا لا يحتج به من عرف الحقائق، فإن الحجج لا تدفع إلا بالحجج، وأما من جاء بالحق فردُّ قوله بأمثال هذه الأمور إنما يدل على عجز موردها عن الإتيان بما يرد القول الذي جاء به خصمه، لأنه لو كان له حجة لأوردها، ولم يلجأ إلى قوله: قصدك كذا، أو مرادك كذا)[تيسير الكريم الرحمن].

والمراد أن مايردده هؤلاء المتبرمون من انتشار التدين في الناس بأن القضايا الشرعية هي صفقات سياسية إنما هو مجرد تحاشٍ واعٍ للالتزامات العلمية في مواجهة أصول وقواعد ومنطلقات أهل السنة والجماعة، والتسييس عموماً (أي الاتهام بالأغراض السياسية) لايؤثر على الحقائق الموضوعية ذاتها، فهب فعلاً أن فلاناً أو فلاناً من الناس ممن يقحمون أنفسهم في سلك العلوم الشرعية لهم علاقات مشبوهة مع بعض النافذين في النظم السياسية، فما دخل هذا كله في القضايا الشرعية ذاتها والتي تشكلت وقررت في كتب أهل العلم قبل أن يلبس أحبار السوء هؤلاء مشالحهم؟!

على أية حال.. الباحث الموضوعي المنصف يرى الأمر أيسر من ذلك بكثير، وهو أن الفقيه والداعية المسلم الذي شهدت الأمه بصلاحه وتقواه، قد يعرض له أحياناً قصور بشري فيسترسل في الالتفات إلى ثناء المخلوقين، أو يتزين لهم بكلمة أوكلمتين ونحوها، ولكنه يجاهد نفسه ويعود للاقبال على إرادة وجه الله والدار الآخرة، هذا حق وواقع لاينكره أحد، بل أهل السنة دائموا التذكير بتفتيش النيات والتفطن لعزوبها وانصرافها عن غير مولاها، أما القول بأن القضايا الشرعية العقدية والفقهية والأخلاقية المذكورة في القرآن والسنة، والتي تتابع أهل العلم على شرحها وبيانها، أنها صفقات سياسية فهذا كله مجرد نفق منحط يتسلل أصحابه من خلاله ليتجنبوا رذض الحوار تحت ضوء البراهين.

ولايشفي نفس المؤمن ويروي غليلها حين التأمل في هذه الصراعات الفكرية مثل أن يستحضر الانسان أن مبنى هذه المرحلة من حياة الناس كلها على "اختبار الانقياد" لله ورسوله، فلادين إلا بامتحان وتمحيص ولذلك قال تعالى في سياق التعجب من فهم الناس في مطلع سورة العنكبوت (**الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ**).

ولذلك فمن أعظم غايات الخالق من التشريعات القرآنية والنبوية فحص مابداخل هذه النفوس من الانقياد لله ورسوله، ولذلك أخبر سبحانه وتعالى أن اختلاف شرائع الأنبياء كلها إنما كانت بغرض "اختبار الانقياد" كما قال تعالى في سورة المائدة (**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ**).

ومن تتبع تعقيبات القرآن على التشريعات أخذته الدهشة من كثرة إشارة الله سبحانه وتعالى بعد الأحكام التي يشرعها إلى أن مراده اختبار وتمحيص انقياد الناس له جل وعلا، ومن ذلك –مثلاً– أن الله لما ذكر تشريع الجهاد قال (**ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ**) ، ولما ذكر الله تشريع تحريم الصيد على الحاج قال تعالى (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ**) . وهذا الابتلاء للصحابة بوفرة الصيد في الزمن المحرم فيه الصيد، يشبه ابتلاء من قبلنا بوفره الصيد في الزمن الذي حرم الله عليهم الصيد فيه كما قال تعالى (**إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ**). ولما ذكر الله بعض أحكام الأيمان في سورة النحل قال (**إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ**).

والمراد أن الله سبحانه وتعالى قاصد إلى فحص مافي داخل هذه النفوس من الاستسلام لله ورسوله كما قال تعالى (**وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ**). فبعض الناس يوفقه الله فيصبر وينجح، وبعض الناس يرسب في أدنى تجارب الاختبار فيضيع مستقبله الحقيقي كما قال تعالى (**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ**).

عذراً عزيزي القارئ لقد استطردت كثيراً كثيراً، والحقيقة أنني كنت أتمنى عرض تقنيات أخرى يستعملها هؤلاء المفسدون في تذويب التدين في النفوس لكنني أطلت كثيراً هاهنا، فأتمنى أن تتاح حلقة قادمة –بإذن الله– لعرض تقنياتهم الأخرى مثل "تنقيض الفروض الكفائية" و "تحويل الاستثناء إلى أصل" و "التنميط الغريزي للمتدين" و "حاكمية الخلاف" و "اختزال الشريعة في قطعي الثبوت والدلالة" .. وغيرها من التقنيات والآليات الماكرة التي يستعملونها في تبديد دوافع التدين في نفوس الشباب المسلم.

فإلى حلقة قادمة بإذن الله، واسأل الله أن يحفظ علينا وعلى شباب المسلمين إيمانهم وتدينهم وتعظيمهم لكتاب الله وسنة رسوله، وحبهم لأهل العلم الربانيين، والله أعلم.

ابوعمر - ذو الحجة ١٤٣٠هـ

معادلة المخالف والمخذل

الحمدلله وبعد،

جلست مرةً أتأمل الفتن التي تدحرجت علينا طوال السنة الماضية .. وكنت في كل فتنة تمر ألاحظ أنه يبرز في المشهد دوماً فريقان من الناس .. فريق (مخالف) يتبنى المنكر بضراوة ويدافع عنه ويعطي الإشارة لبدء الغارة الصحفية .. وفريق آخر لا ينتمي لهؤلاء ولا يتبنى المنكر لكنه (مخذل) يبدأ في إصدار عبارات التهوين من القضية وأن الأمر لا يستدعي الإنكار ولا الغيرة ولا الحمية تحت الشعارات المعروفة: لماذا تضخمون الأمور؟ أين حاجات الناس الفعلية؟ الخ.

من الناس من ينكسر أمام ضغط (المخالف) فالمخالف اليوم له طريقته الخاصة والمتميزة في إسالة لعاب الباحثين عن المنصب والمكافآت المالية والفلاشات الصحفية..

ومن الأخيار –والله الحمد– من هو شريف النفس فلا يرضى أن يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل، ولذلك لا يرضخ لإغراءات وجبات (المخالفين) الدسمة .. لكن ينهار أمام ضغط (المخذلين) .. لأن كثيراً من المخذلين يظهر في صورة أنه رجل من الصف، ولذلك يكون أثر (المخذلين) على كثير من الأخيار أكثر من أثر (المخالفين) ..

فالمخذلون يقولون لك غالباً: نحن لا نختلف مع المحتسبين في أن هذا غير مقبول شرعاً، والحقيقة أنه لم يكن يعجبنا أنه حصل، لكن الأمر يسير جداً، فلا داعي لإنكار المنكر، ولا داعي لمقاومة من يتعدى على الحكم الشرعي، تارةً يقولون هذا الكلام باسم احترام المخالف وأن الشريعة كفلت الحرية للزندقة إذا لم يتعدَّ على الآخرين، وتارة يجعلون هذا باسم تركيز الاهتمام بالقضايا الكبرى (القضايا الكبرى عندهم ليست هي كل القضايا التي عظمها القرآن، وإنما هي يختصرونها فقط في القضايا المادية للناس).

حسناً.. دعونا مما سبق .. فليس هو المهم .. وإنما المهم أنني كنت أظن أن هذا التصنيف إلى (مخالف) و (مخذل) أنه مجرد ملاحظة شخصية اتفقت عرضاً .. وقبل يومين مر بي حديث شهير جداً خرّجه البخاري في الصحيح توقفت أمامه برهة كأنني لأول مرةً أقرؤه في حياتي.. توهمت كل شئ إلا أن يكون الرسول نفسه –صلى الله عليه وسلم– أشار إلى هذا التصنيف (المخالف) و (المخذل) .. والله لقد غمرني شعور غريب وأنا أرى النبي نفسه يقسم الناس أمام الدعاة إلى هذين الفريقين اللذين كنت أراهما عياناً أمام ناظري في كل فتنة تمر .. يقول النبي صلى الله عليه وسلم:

(لا يزال من أمتي أمةٌ قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك) [البخاري ٣٦٤١]

ورب محمد أنني جمدت وأنا أقرؤ هذا الحديث كأنني أقرؤه لأول مرة .. فتأمل كيف نبه النبي –صلى الله عليه وسلم– على (المخالف) و (المخذل) وعد بذهنك لكل فتنة مررنا بها وسترى مصداق خبر محمد صلى الله عليه وسلم ..

وتأمل كيف نبه النبي–صلى الله عليه وسلم– إلى أن لكلٍ من هذين الفريقين (ضرر)، فهذا يعني أن هناك من سيتضرر وإلا لما سماه النبي ضرراً ..

وتأمل كيف نبه النبي–صلى الله عليه وسلم– إلى أن المحتسبين الناجحين هم من يستطيع التخلص من ضرر (المخالف) و (المخذل) سوياً..

ثم تأمل كيف نبه النبي على أن هذه الطائفة (قائمة بأمر الله) وأمر الله يشمل الدين كله .. فمن أحدث في الأحكام الشرعية محدثات تحت ضغط الثقافة الغربية فقد خرج عن القيام بأمر الله بقدر ما أحدث ..

لكن أين خطورة التخذيل على المخذِّل نفسه؟ هؤلاء المخذلون –هداهم الله– كم أتمنى أن يأخذوا ساعة تأمل يسيرة مع أنفسهم ويتدبروا كيف جعل الله تعالى (التخذيل شعبة من النفاق) .. كما نبه القرآن لذلك في قوله تعالى (**قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ**) **[الأحزاب ١٨]**.

وهاهنا سننتقل إلى السؤال المنطقي اللاحق: وما خطورة الشعبة الواحدة من شعب النفاق؟ الشعبة الواحدة من شعب النفاق خطورتها أنها بريد النفاق الخالص .. فالمرء إذا وقع في شعبة نفاق جرته الشعبة إلى شعبة مثلها فتتكاثر عليه شعب النفاق حتى تخرجه من الإيمان.. فشعب النفاق تتصارع في القلب مع شعب الإيمان .. والمحصلة النهائية لمن غلب.. ولا يدري المرء بم يختم له ..

بل إن الله جل وعلا قد يعاقب من استرسل في شعبة من شعب النفاق بأن يسلط عليه مثلها كما نبه القرآن على ذلك في قوله تعالى (**فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا**) **[البقرة ١٠]** ، وقوله تعالى (**فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ**) **[الصف ٥]**.

فتأمل كيف أشارت الآيات إلى أن الإنسان إذا تساهل في شئ من الضلال فإن الله قد يعاقبه بأن يزيده من جنس ضلاله .. نسأل الله أن يحفظنا وإخواننا المخذلين .. وأن يهدي المخالفين يارب .. وأن يزيد الله نصره للمحتسبين القائمين بأمر الله..

ابوعمر

شعبان ١٤٣١هـ

خواطر قرآنية قصيرة..

صدمة التذكر

والله إن مانتذكره من معاصينا لكافٍ بأن يوبق آخرتنا، فكيف إذا انضم إلى ذلك معاصٍ فعلناها ونسيناها، والله تعالى يقول (**يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ**) **[المجادلة: ٦]** اللهم اصفح عن خطايا لانزال نذكرها، وخطايا نسيناها سنراها في صحائفنا حين نلقاك، اللهم لاتردنا خزايا عن باب عفوك ياجواد ياكريم.

الراضون

من الأشياء التي تبتهج بها نفسي حين يتهادى إلى أذني صوت أحد كبار السن يذكر الله.. لا أدري لماذا يكون لزجل ذي الشيبة بالتسبيح وقع تنفسح به أرجاء النفس.. وأحس بسكينة غريبة تغشى المكان من حولي.. بل وأشعر أن ثمة توتراً يغادر المكان.. بمجرد أن تطفو همساتهم المتهدجة بعبارة "سبحاااان الله.. سبحاااان الله".. وخصوصاً إذا كان في أواخر الليل وهم يحملون على أنفسهم إما لصلاة أو قراءة أوغيرها .. ومن الأمور التي كانت تشد انتباهي أن كل من رأيت من كبار السن الصالحين اللاهجين بذكر الله، أنهم يعيشون "رضا نفسي" عجيب ومدهش.. لا أعرف أحداً من كبار السن الذاكرين لله إلا ولاحظت في روحه طيب الخاطر والانشراح والرضا الذاتي..

وبكل صراحة فإنه لم تكن الظاهرتان مرتبطتان في ذهني بصورة واضحة، ولكن قبل أيام يسيرة مرت بي آية من كتاب الله كأنها كشفت لي سر هذا المعنى، وكيف يكون التسبيح سائر اليوم سبباً من أسباب الرضا النفسي، يقول الحق تبارك وتعالى:

(وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى) [طه: ١٣٠]

لاحظ في هذه الآية كيف استوعبت سائر اليوم.. قبل الشروق والغروب، وآناء الليل التي هي ساعاته، وأول النهار وآخره، ماذا بقي من اليوم لم تشمله الآية بالحث على التسبيح؟ ولذلك شرع الله في هذه المواضع أعظم التسبيح وهي الصلاة، والرضا في هذه الآية عام في الدنيا والآخرة..

فسبحان من جعل النفوس ترتوي بالرضا من ينابيع التسبيح.. وكم نحن مغبونون في أيام ولياليِ وسنين تصرمت دون أن نعمر آناء الليل وأطراف النهار بالتسبيحات.. ياخسارة تلك السنوات.. فسبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضاء نفسه، وزنة عرشه ومداد كلماته.. اللهم اجعلنا لك من المسبحين..

ابوعمر - ربيع الآخر ١٤٣١هـ

خـاطرة قرآنـية

تلاحظ دوماً أن ثمة علاقة تنمو تدريجياً بين "**التفريط الديني**" وبين نزعة "**التهكم بالمتدينين**".. مالسبب ياترى في هذه العلاقة الحميمية بين التفريط والسخرية؟ الحقيقة أن الإنسان منذ أن يتعثر في أودية التفريط تحاصره لسعات التأنيب الداخلية.. ومن أشد مايؤذيه لحظات الإخلاد الهادئة حين يستعرض شريط التناقض بين المطلوب والواقع..

والنفس البشرية عادة تدفع باتجاه الانسجام الداخلي والتخلص من التناقضات.. فإما أن يعدل الإنسان سلوكه لينسجم مع قناعته.. وهذا هو سلم الصلاح.. وإما أن يعدل من قناعته لتنسجم مع سلوكه.. وهذه منحدرات الضلال.. أما حالة الكدمات المتواصلة بين القناعة والسلوك فهي حالة مؤذية جداً.. وهذا مايجعل النفس البشرية الضعيفة تفرح بالفتوى المتساهلة لأنها تشل عنها تلك الطرقات الداخلية المستمرة.. ولذلك لخص السلف هذه الحالة في عبارة مجازية تدلك على جمع السلف بين دقة التفكير والبلاغة الأدبية حيث قالوا (المعاصي بريد الكفر)..

حسناً .. كيف يتخلص الإنسان كلياً من ضغط التأنيب الداخلي؟ الحقيقة أن السخرية بالمتدينين من أهم الوسائل التي توفر للإنسان الراحلة الكلية من هذه الضغوط.. وضع الصورة المطلوبة في قالب هزلي يبدد نفوذها على النفس البشرية .. ولذلك نبه القرآن إلى هذه العلاقة بين "التفريط" و "السخرية" فقال تعالى:

(أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ) [الزمر: ٥٦]

ابوعمر - صفر ١٤٣١هـ

لم نفعلها .. وحُسِبت علينا !

حين يقف الإنسان في اليوم الآخر لحظة تسليم الصحائف والاطلاع على محتوياتها، فإن الإنسان ربما لن يتفاجأ كثيراً من خطايا نفذها فعلاً وقام بها، فهو قد علم مسبقاً بأنه سيراها في صحيفته.. ولكن المفاجأة المذهلة أن يجد الإنسان في صحيفته خطايا لم يفعلها هو، ومع ذلك يجدها مدونة في كتاب أعماله.. ربما يجد الإنسان في صحيفته خطايا لعشرات الأشخاص، بل ربما لمئات الأشخاص، بل ربما لملايين الأشخاص؛ وكلها محسوبة في صحيفة سيئاته، وسيحاسبه الله عليها..

حسناً .. من أين جاءته هذه الأعمال التي لم يعملها؟ استمع إلى هاتين الآيتين العجيبتين اللتين تكشفان هذه الحقيقة المرعبة:

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ) [النحل:٢٥]

(وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ) [العنكبوت:١٣]

يا ألله .. كم من كلمة نطقنا بها في مجلس من المجالس وقلنا فيها على الله بغير علم، فتأثر بها أحد الجالسين فتجرأ على المعصية، فصارت خطيئته في صحائفنا ونحن لانعلم.. وكلما كرر معصيته .. تكررت في صحائفنا..

كم من مقالة أثار فيها كاتب من الكتّاب شبهة شوشت على آلاف القراء فتساهلوا في ذلك الحكم الشرعي، ونقلوا هم بدورهم تلك الشبهة إلى آلاف آخرين .. فيأتي ذلك الكاتب يوم القيامة يجرجر في صحيفته خطايا آلاف وآلاف من الناس لايعرفهم..

كم من منتسب للدعوة مكّنه التغريبيون من فضائياتهم ليوفر لهم لغة شرعية مشحونة بمضامين غير شرعية .. فانخدع به ملايين من العامة وثقوا في لحيته ومشلحه ولحنه بألفاظ تشبه ألفاظ المشايخ.. فصار يدفع باتجاه توهين التدين في نفوسهم وأوقعهم في شذوذات فقهية وشبهات عقدية كانوا في سلامةٍ منها..

كنت مرةً أتحدث مع بعض الإخوة عن أحد متفقهة التغريب المذبذبين الذين ليسوا مع أهل السنة ولا مع أهل الضلال.. فقال لي أحدهم محتجاً: ولو .. هذا الرجل يستمع له الملايين في الفضائيات..

الحقيقة أنني حين سمعت مثل هذا الاعتراض أطرقت وشعرت بحزن عميق، وأخذت أقول في نفسي: مسكين .. لايعلم أن زيادة الأرقام تعني زيادة عدد الضحايا.. لايعلم أن زيادة الأرقام تعني زيادة أوزار المضللين التي ربما يحملها يوم القيامة..

والله إن الإنسان إذا جلس مع نفسه وأخذ يتذكر خطاياه أدرك أنها كافية أن توبق مستقبله الأخروي .. فكيف إذا انضم إلى ذلك أن يحمل فوق ظهره معاصي أشخاص آخرين لايعرفهم .. والله إن الغبن كل الغبن أن يرى المرء نفسه يوم القيامة يصطلي بنار جهنم لا لمعصية فعلها هو وإنما لمعصية فعلها غيره!

إنها مجرد كلمة متهورة في حكم شرعي استحسنها المرء بذوقه وغفل عن تبعاتها المفتوحة..

إذا كان الأمر بمثل هذه الخطورة فكيف غفلنا عنه؟ إنه الرين الذي غلف القلوب حتى غفلت عن فظائع وأهوال هي أقرب للمرء من شراك نعله..

أخي الغالي .. والله إني لأحب لك ما أحب لنفسي .. فياليتنا يا أخي الكريم إذا أثيرت في مجلس من المجالس مسألة شرعية أن نتلوا في أنفسنا قوله تعالى (**لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ**) .. وقوله تعالى (**وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ**).. فياليتنا نسلم من معاصينا فضلاً عن أن نسلم من معاصي الآخرين..

ابوعمر

ربيع الآخر ١٤٣١هـ

جوابات القرآن

-كلما عظم شأن الرسالة عظم شأن ناقلها، فأي رسالة أعظم من أن يكون المتكلم بها رب العالمين، ونزل بها من السماء سيد الملائكة، واستقبلها على الأرض قلب سيد البشر: (**وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ، عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ**) **[الشعراء:١٩٢-١٩٤]**

ولذلك فإن كل من نقل هذه الرسالة القرآنية وبثها في الناس فقد تشرف بارتباطه بهذه السلسله، ألا ترى النبي في الصحيح يقول (خيركم من تعلم القرآن وعلمه).

-إذا كان الله نهى نبيه عن مقاطعة القرآن بالقرآن، فكيف بمن يقاطع القرآن بأمر الدنيا، (**وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ**) **[طه:١١٤]**

-تختلف طرائق الدعاة في تذكير الناس، فبعضهم يستعمل القصص والأمثال، وبعضهم بذكر الأهوال، وبعضهم بالأصوات الزاجرة، وأشرف من ذلك كله إيقاظ القلوب بالقرآن، ألا ترى الله يقول عن نبيه (**قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ**) **[الأنبياء: ٤٥]**

-ما قرأت هذه الآية إلا شعرت بالخجل من جنس بني آدم، كيف عبر عن غيرنا بالعموم وعبر عنا بالجزء : (**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِوَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ**) **[الحج: ١٨]**

-حين يكون مع المبدأ شئ من حظ النفس يُقبِل الكثيرون، وحين يكون مع المبدأ شئ من الكلفة يكثر التعلل والتنصل، ألا ترى الله تعالى يقول (**لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ**) **[التوبة:٤٢]** وهذا مايفسر للمراقب: لماذا في وقت نفوذ الدعوات ينتسب لها الرسالي والنفعي، وفي فترات الضعف يتساقط النفعيون؟!

-إذا عمر القلب بإرادة وجه الله والدار الآخرة استكثر أدنى تقدير يبديه من حوله تجاهه، فتراه ممتناً لأبسط اهتمام تبذله زوجته له، وخجولاً من أقل توقير يبديه أقرانه تجاهه، ألا ترى الله يقول عن هذا الصنف (**إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لانُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاشُكُورًا**) **[الإنسان: ٩]**

وإذا شحن القلب بحظوظ النفس استقل كل حشمة يحيطه من حوله بها، ويتطلب فيمن حوله أن لاتنقطع إشادتهم وتنويههم بما قام به، لذا تراه دائم التذمر والنقمة ولمز من حوله بجحد فضائله، وينسى أنه يعمل العمل لنفع نفسه أصلاً، ألا ترى الله يقول عن هذا الصنف (**يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لاتَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ**) **[الحجرات: ١٧]**

-لو فتشت في خفايا كثير من النفوس لوجدت تصورات مطمورة بأن هذه الأمم الغربية قوة لاتقهر، بل لقد صرح بذلك كثير من "أهل الأهواء الفكرية" فرددوا في كتاباتهم مصطلح "المعجزة الغربية" بما يحمله من إيحاءات الاستسلام وتأبيد الهزيمة .. ولأن العليم الخبير سبحانه يعلم مايتسرب إلى النفوس من هذه التصورات فقد نبه سبحانه لذلك مسبقاً فقال (**لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ**) **[النور: ٥٧]**

-في سورة النور ذكر الله ثمان آيات متصلة كلها في تعظيم "**الانقياد للوحي**" (الآيات ٤٧-٥٤) ، ثم أعقبها بآية عن "**الاستخلاف والتمكين**" (٥٥) ، فكأن هذا -والله أعلم- إشارة إلى أن التمكين ثمرة الانقياد.

-يكثر في كتابات أهل الأهواء الفكرية أنهم حين يستعرضون أصحاب المكتشفات العلمية أو الأعمال الإنسانية أن يجزموا بأن هذه الشخصيات في الجنة حتى وإن لم يؤمنوا بنبوة محمد، وتراهم يقولون "كيف يكون هؤلاء في النار وقد نفعوا البشرية جمعاء؟!" ، فلست أدري كيف يتجرأ هؤلاء على تحدي حكم الله الذي اشترط الإيمان بنبوة محمد (**وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ**) **[التوبة:٥٤]**

-مروجوا الشهوات لايقتصر ضررهم على أنفسهم كما يتصور البعض، بل يورطون أقوامهم معهم إذا أتاحوا الفرصة لهم، ألا ترى الله يقول (**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ**) **[إبراهيم:٢٨]**

-مارأيت أحداً من المجادلين في دين الله بلامخزون علمي إلا وأدهشني كيف يلوي عنقه استكباراً إذا واجهته الأدلة التي تحرج جدله، وقد أشار القرآن لهذه العلاقة فقال: (**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ، ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**) **[الحج: ٨-٩]**

-لايحصل العلم بلقاء عابر، وإنما بملازمة ومتابعة العلماء، ألا ترى موسى يقول للخضر (**قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**) **[الكهف:٦٦]**

-أي بشاعة للتقصير في بر الوالدين أكثر من كون الله جعله جريمة "جبروت" فقال عن عيسى (**وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا**) وقال عن يحي (**وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا**) **[مريم: ٣٢، ١٤]**

والله أعلم،،

الترغيب والترهيب في قصقصة الأحكام الشرعية

الحمدلله وبعد.

الوسائل التي يستعملها من يبحثون عن تشذيب الإسلام ليتوافق مع ثقافة الغرب المنتصر تتفاوت بحسب طبيعة الشخصية المستهدفة، فتارة يستعملون مع الشخصية المستهدفة أسلوب "الترغيب"، فيوضع في برامج فضائية في أوقات الذروة، ويطبل له كتاب الأعمدة الليبرالية باعتباره نموذج "الشيخ الواعي"، وتزداد المدائح الصحفية بمقدار جرأة "الشيخ الواعي" على مواصلة مسلسل حصد الأحكام الشرعية.

والأسلوب الأخر هو أسلوب "الترهيب"، وهو غالباً يتم بترويع الشخصية المستهدفة عبر سيناريوهات يبدعها خيالهم حول مخاطر الأحكام الشرعية والتي تنتهي دوماً بتفجير حزين، تخيلات سينمائية تبدأ بأي فتوى ولا تنتهي القصة إلا على حطام الألغام المتناثرة! فياسبحان من أعطاهم هذه الخصوبة التخيلية..

يقولون لك احذر أن تتحدث عن نواقض الإسلام، لأنه ربما فهم منك (شاب متهور) تطبيق هذه الأحكام بنفسه، فيقوم بعملية تكفير وتفجير!

احذر أن تتحدث عن (كفر الحكم بغير ما أنزل الله)، لأنما ربما فهم منك (شاب متهور) أنه يمكن أن يطبق ذلك بنفسه، فيقوم بعمليات تفجيرية ضد النظم العربية الوضعية!

احذر أن تتحدث عن (كفر من سب الله ورسوله)، لأنه ربما فهم منك (شاب متهور) أنه يمكن أن يقوم بذلك بنفسه، فيبدأ في سلسلة اغتيالات للمثقفين الذين يتهكمون بالأحاديث النبوية!

احذر أن تتحدث عن (كفر تارك الصلاة) لأنه ربما فهم منك (شاب متهور)أنه يمكن أن يطبق ذلك بنفسه فيبدأ في التصفية الجسدية لبعض أقاربه!

واحذر.. واحذر.. واحذر.. لم؟ حتى لاتهجم علينا من جديد قصة (الشاب المتهور)!

يامسكين هذا (الشاب المتهور) صار للأحكام الشرعية بالمرصاد!

أتدري أين المشكلة؟ المشكلة أن دروس مشايخ أهل السنة حضرها مئات الآلاف من الشباب عبر أجيال مستمرة، وهم يسمعون هذه الأحكام الشرعية ولم يفهموها بالطريقة الفوضوية التي يصورها أصحاب (هوليود الفتاوى) .. وبالمقابل فإن المجموعات الشبابية المحدودة التي تورطت في حركة (الغلو في التكفير والقتال) تبين من سيرهم الذاتية أن جمهورهم لم يكن مواظباً على ملازمة أهل العلم وحضور الدروس الشرعية!

فانظر كيف أن هذه الدروس الشرعية للربانيين من أهل العلم والتي كشفت الأحداث أنها هي الضمانة الصحيحة للعلم المنضبط صارت تصور أنها هي المشكلة!

على أية حال .. أوصي القارئ الكريم حين يقرأ القرآن أن يخفت صوته حين يمر بأي آية كفر أو قتل، لأنه ربما يكون بجانبه لاسمح الله (شاب متهور) فماهي إلا دقائق ويسمع دوي الانفجار بجانبه!

ابوعمر - ربيع الآخر ١٤٣١هـ

أمنيات التفسير

بعض أهل الأهواء يذكر أحياناً آيات يحتج بها على مقتضى هواه، وهو يعلم في قرارة نفسه أن هذا التفسير للآية الذي يطرحه مجرد "أمنية" أكثر من كونه يقين بمعنى الآية، فهو في الحقيقة يتمنى فقط أن يكون معنى الآية كما يريد.

لنضرب على ذلك مثلاً قبل أن نتناول هذه القضية، خذ معي هذا المثال: يأتي بعض أهل الأهواء ويحتج على فكرة تكريم الأديان، وتشريف الإنسان بذاته بغض النظر عن هويته الدينية، بقوله تعالى (**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**) وهو يعلم في قرارة نفسه أن هذا "تكريم خَلْقي"، وأما قيمة الإنسان غير المسلم فقد شرحتها النصوص الأخرى كقوله تعالى (**قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ**) وقوله (**إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا**) وقوله (**وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ**) وأمثال هذا التحقير والإزراء بقيمة الإنسان غير المسلم لاتحتاج لبحث في القرآن.

حسناً ماسبق هو مثال فقط أردنا وضعه على المشرحة كـ"وسيلة إيضاح"، فهذه الحالة السابقة مجرد نموذج لأشخاص كثيرين يستدلون بآيات وهم يعلمون أن تفسيرهم للآية مجرد "أمنية" فقط، أي أنه بودّه لو كان معنى الآية كذلك. كانت هذه الحالة واضحة في ذهني، لكني تفاجأت بأن هذا المعنى منصوص في القرآن، حيث نبه الله على أمنيات التفسير بقوله تعالى:

{وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ}.

يا ألله .. علمهم بمعاني النصوص هو مجرد أمنيات لا حقائق!

يقول إمام التابعين في التفسير الإمام مجاهد بن جبر:

(كانوا يتكلمون بالظن بغير ما في كتاب الله، ويقولون هو من الكتاب، أمانيّ يتمنونها) [الطبري، ٢/٢٦١]

ويشير الإمام ابن تيمية إلى ماتتناوله هذه الآية من المعاني فيقول:

(وذم الله الذين "لايعلمون الكتاب إلا أماني"، وهو متناول لمن ترك تدبر القرآن ولم يعلم إلا مجرد تلاوة حروفه، ومتناول لمن كتب كتاباً بيده مخالفاً لكتاب الله لينال به دنيا) [درء التعارض]

بالله عليك.. تأمل في كثير من التفسيرات والتأويلات والتجديدات التي تطرح اليوم للنصوص الشرعية، أليس أكثرها مجرد "أمنيات تأويلية" يعلم ملقيها وكاتبها قبل غيره أنه يتمنى فقط!

حين أستمع لشخص من هؤلاء الذين انهمكوا في تقديم خطاب ديني جديد عبر "البرامج الدينية" في الإعلام الليبرالي، أو عبر "الكتابات الفكرية" التي يسمونها التجديد الديني، أتمتم رغماً عني وبشكل تلقائي بهذه الآية:

لايعلمون الكتاب إلا أمانيّ.. لايعلمون الكتاب إلا أمانيّ !

ألا ما أكثر "المتمنّين" اليوم ..

ابوعمر - صفر ١٤٣١هـ

القبعة المخفية

الحمدلله وبعد،،

دعونا نتخيل المشهد التالي: لوجاءنا رجل ينسب نفسه إلى المشيخة والفتيا، وأخذ يردد أن (العبرة بالكتاب والسنة) وأن المرجع الحاكم هو (النص الشرعي) لا غير، فكلامه هاهنا تنظير صحيح لا غبار عليه، لكن حين جئنا لجرد فتاوى هذا المنتسب للمشيخة وجدناه يفتي في كل المسائل بما يوافق مراد السلطان، ولا يخرج عن ذلك قيد شعرة، سواءً كانت المسألة تتعلق بالعقيدة أو أموال الناس أو المسائل السلوكية الخ.

وكلما قال له الناس: أنت لا تتبع النص وإنما تتبع مراد السلطان؟ قال لهم: بالعكس، أنا أتبع النص، وكل المسائل التي أفتيت بها عندي فيها نصوص شرعية، وكلها أفتيت بها بعد البحث والتأمل والنظر في النصوص، وهذا ما أدين الله به، ويجب عليكم إحسان الظن، وأن تبعدوا عن أنفسكم قلق اتباع السلطان، واستحضار هذه العلاقة، الخ.

سؤالي هنا: هل تتوقع أن الناس سيصدقون هذا الشخص؟ وأنه فعلاً لم يكن يتبع هوى السلطان في كل هذه المسائل وإنما وافقه عَرَضاً هكذا؟ يعني أن توافُق عامة فتاواه مع مراد السلطان إنما وقع اعتباطاً ومصادفةً لا عن ميول مسبقة؟

بالطبع لن يصدق الناس ذلك، لكن كيف توصل المتلقون إلى التأكيد بأن هذا الشخص ليس مرتبطاً بالنصوص بقدر ما هو مرتبط بمؤثر خارجي يحمل النصوص عليه؟

الحقيقة أن المتلقي لا يكتشف ذلك من الكلام النظري الذي يردده هذا الشخص حول اتباع النص، ولا من الفتوى الواحدة والاثنتان، وإنما من مجمل سلوكيات الخطاب.

ماذا يعني هذا؟ هذا يعني أن ما يكشف التوجه الحقيقي للخطاب ليس (القاعدة المعلنة نظرياً) ولا (المسألة والمسألتان) ، وإنما (كثرة المسائل) هي التي تكشف القواعد الفعلية المضمرة، فالقواعد المتبناة فعلياً تسري في التفاصيل ويستخلصها المتلقون منها فيعرفون أصول الشخص من خلال انبثاثها في تطبيقاته ومواقفه، والقواعد منبثة في الفروع كانبثاث الأعصاب في جسم الإنسان.

هل هذا معنى جديد؟ لا، أبداً، فقد نبه المحققون من أهل العلم بشكل مبكر على أن كثرة التطبيقات تكشف القواعد الحقيقية للشخص حتى وإن لم يصرِّح بها، ومن هذه التنبيهات الرائعة مقولة شيخ غرناطة العلامة الشاطبي –رحمه الله– في الاعتصام حيث يقول (ويجرى مجرى القاعدة الكلية كثرة الجزئيات) [الاعتصام للشاطبي، ٢/٢٠١] وهذا الاقتباس من عيون تجليات الشاطبي رحمه الله.

حسناً انتهينا الآن من مشهد فقيه السلطان دعونا ننتقل لمشهد آخر:

لو جاءنا شخص ينتسب إلى التجديد الديني وقال لنا أن مشروعه هو تجاوز التقليد، ونبذ المألوفات التي نسبت للشريعة خطأً، وإعادة فحص الفتاوى الشائعة، وأن لا عبرة إلا بالنص الشرعي فقط، وأن هذا هو الطريق لنهضة الفقه وتقدم الخطاب الديني.

فما رأيكم في هذا الكلام؟

بالنسبة لي –شخصياً– أرى أن هذا تنظير في غاية الروعة، ولا يستطيع باحث موضوعي كائناً من كان أن يعترض عليه، بل هذا مطلب شرعي أصلاً.
لكن حين جئنا للمواقف الجزئية والفروع والتطبيقات وجدنا هذا الشخص يحاول أن يميل بالمسائل لموافقة الفكر الغربي والقيم الغربية والثقافة الغربية، أو على الأقل عدم التصادم بها.

فإذا كان الحكم الشرعي يتصادم مع مقررات الثقافة الغربية تطلب له المخارج، فإن كان الحديث فيه مدخل تشبث بتضعيفه وصار من المتشددين في التصحيح، وإن كان الحديث ثابتاً لا مدخل عليه لكن يوجد حديث ضعيف معارض له قفز إليه وصار في غمضة عين آخذا بمنهج المتساهلين في قبول الأحاديث وأن التشدد في الأسانيد خطأ.

فإن كان الحديث صحيحاً ولا معارض له؛ نبش التراث بحثاً عن مخالف، فتارة يقول لك نُقِل عن ابن شبرمة، وتارة يقول لك نُقِل عن أبي ثور، وهو لا يعير هؤلاء أصلاً أدنى مرجعية لكن يبحث عن أقرب مخرج طوارئ، وصار "مجرد" وجود الخلاف مبرراً لترك الحكم الشرعي المعارض للثقافة الغربية.
فإن لم يجد مخالفاً في التراث الإسلامي يظهر لك –وإن كان على خجل أحياناً– بعبارات تتحدث عن أن تجربة السلف تجربة عظيمة لكنها لا تلزمنا!
أو يبدأ يتحدث عن المقاصد الشرعية وأننا أهلمنا المقاصد ولم نفهم المقاصد ولا زلنا نجهل الشاطبي الخ وطبعاً يعني بالمقاصد ليست المقاصد الشرعية كما يعرفها الأصوليون وأهل العلم وإنما يقصد تحويل النصوص الجزئية إلى معني سيال لا ينضبط، وغالب من يردد المقاصد في هذا السياق يعنون بالمقاصد تعطيل حجية النصوص الجزئية، ويظن أن هذا هو معنى المقاصد.
لماذا كل هذا الدوران؟ لأنه تشبع بالثقافة الغربية المهيمنة وصار يرى بمنظارها ويحاكم الأمور إليها بشعور، وهو قليل، وبلا شعور، وهو الأكثر ..
أنا لا ألوم الغربي أن يقيّم المسائل طبقاً لما تقرؤه عينه الزرقاء .. لكني ألوم العربي أن يقيِّم المسائل بعين مزرقّة..

حسناً .. دعونا نضرب أمثلة: طوال تاريخ الإسلام كان فقهاء وقضاة الصحابة والتابعين وأتباع التابعين يعملون بـ "حد المرتد" بلا أية إشكالات جذرية .. ثم بعد تصرم خمسة عشر قرن تفاجأنا بأن هذا كان خطأ في فهم الإسلام، أي أن الدماء التي حكم فيها قضاة الصحابة والتابعين وأتباع التابعين كانت كلها خطأ، والذي فهم الحكم الشرعي هم مجموعة من المفكرين المعاصرين!

وطوال تاريخ الإسلام كان فقهاء الصحابة والتابعين وأتباع التابعين ثم المذاهب الأربعة يتحفظون في العلاقة بين الرجل والمرأة، وفصّلوا كثيراً من أحكام الذرائع فيها، ثم فجأة وفي هذا العصر صارت أحكام المرأة تمثل "أزمة" !
يالطيف يارب .. يعني معقولة كل هاتيك القرون ما فهمت حكم الله ورسوله وفهمه مجموعة من المفكرين المعاصرين؟!

وهكذا كان فقهاء ومجاهدي الإسلام جميعاً وبلا استثناء يقررون جهاد الطلب ويذكرون أحكامه الشرعية، ومافتوح الإسلام وغزوات المجاهدين في أصقاع الأرض إلا جهاد طلب؛ ثم جاءنا هؤلاء وصاروا يتطلبون المخارج لجهاد الطلب.

وهكذا كان فقهاء القرون المفضلة والمذاهب الأربعة يقررون الحسبة والإنكار ويذكرون تفاصيل نصوصها وأحكامها الشرعية، ثم بعد كل هذه القرون جاءنا مجموعة من المفكرين وقالوا كل هذا خطأ، وإنما يفرق في المنكر بين التعدي على الآخرين وبين المنكر الشخصي، فالمنكر الشخصي الذي لا يضر الآخرين لا إنكار فيه.

من أين يا أحبابنا أتيتم بهذا الضابط الجديد في فريضة الحسبة والإنكار؟ هل هذا هو المبدأ الغربي (تنتهي حريتك حين تبدأ حرية الآخرين) ؟ قالوا: معاذ الله، بل هي قراءة موضوعية غير تقليدية للنصوص الشرعية!

ما الجديد في حد الردة، وما الجديد في أحكام المرأة، وما الجديد في أحكام الكافر، وما الجديد في الحسبة والإنكار؟ هل هناك وحي نزل بعد محمد صلى الله عليه وسلم؟ هل هناك أحاديث نبوية جهلها فقهاء الصحابة والتابعون وعرفها هؤلاء؟ ما الجديد ياترى؟ الجميع يدرك وبأبسط ملاحظة أنه لا جديد أصلاً في المعطيات الشرعية، وإنما الجديد هو أن تلك العقول تشبعت بثقافة الانسان الغربي وصارت تميل إلى موافقته، وتريد أن تقنع نفسها، وتقنعنا معها، أنها في كل هذه الانحيازات لثقافة الغربي أنها قراءة تجديدية مستقلة موضوعية محايدة تفتح باب الاجتهاد وبعيدة عن أي مؤثرات غربية.
كل هذه التفاصيل والمسائل التي وليتم وجوهها شطر البيت الأبيض وقعت هكذا اتفاقاً ومصادفةً ؟ معقولة يا جماعة؟

المهم .. لو جاءنا هؤلاء وقلنا لهم: أنتم تتبعون الثقافة الغربية ولا تتبعون النصوص الشرعية، فقالوا لنا: أبداً، هذا ظلم وتجني، كل المسائل التي عملنا فيها لنا فيها وجه شرعي، وما حدث من موافقة الفكر الغربي في هذه المسائل فهي موافقة عرضية وليست مقصودة.
فهل ياترى سيصدق الناس ذلك؟
اشهدوا علي بالبلاهة إن صدقت ذلك ..

ياجماعة هذا والله إزراء بالعقول أن نصدق أن أحكام وأصول شرعية بعد خمسة عشر قرن تم تغييرها إلى ما يوافق ثقافة الغربي ويقول لنا أصحابها أن هذا كان بعد بحث لهم ونظر في النصوص!

يالبراءتهم وطيبتهم وهم يدّعون ذلك!
بل كل من ظهرت في تطبيقاته هذه الميول علمنا قطعاً أن تحت عمامته قبعة مخفية..

والمراد أنه إذا جاءنا رجل وسكب علينا مقطوعات لذيذة في تعظيم النص وحجيته، وأنه مقدم على كل الآراء والأذواق والثقافات، ثم كلما جاء لمسألة شرعية حرفها لتوافق الثقافة الغربية، تارة بتضعيف لفظ النص، وتارة بتأويل معنى النص، فهاهنا يتبين من كثرة هذه الجزئيات أن لدى هذا الرجل أصلاً بدعياً وهو "تغريب الفقه الإسلامي" حتى ولو لم يصرح بهذا الأصل المنحرف، بل حتى لو صرح بنقيض هذا الأصل.

وقد نبه القرآن إلى سر هذه المسألة وهي أن الاحتكام للنص ليس مجرد قاعدة معلنة، بل يجب أن يظهر في التطبيقات والفروع، كما يشير القرآن لذلك في قوله تعالى:
(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ) [النساء ٦٠]
فهم نظرياً أعلنوا الإلتزام بالنصوص، وعملياً تولوا عنها..

كما نبه القرآن إلى ظاهرة (العلاقة البراجماتية مع النص) وهم أولئك الذين يتمسكون بالنصوص إذا كانت تؤدي إلى أهوائهم، ويتملصون منها إذا عارضت أهواءهم، كما يقول تعالى: (وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ** وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ) [النور ٤٨]

وخلاصة الأمر .. أن مَن أكثر من حمل النصوص والأحكام على موافقة الثقافة الغربية وعدم مصادمتها؛ علمنا أن هذا أصل خفي عنده يتحكم في تفكيره الفقهي حتى وإن لم يصرح به، وهذا نظير من لاحظ الناس عنده كثرة حمل الفتاوى ومعاني النصوص على هوى السلطان، فإنهم يعلمون أن هذا أصل مضمر عنده، حتى لو أزعجهم بكثرة حديثه أن الأصل عنده هو اتباع النصوص، بل حتى لو صرح هؤلاء بذم هذا الأصل فإن كثرة الفروع كاشفة له.

والله تعالى أعلم.

ابوعمر

شعبان ١٤٣١هـ

إعادة قراءة الولاء والبراء

قرأت للبعض مؤخراً أطروحات متعددة حول ضرورة إعادة قراءة (الولاء والبراء) ، وقضايا بغض الكافر، والزوجة الكتابية، الخ الخ .. ولما تأملت في كلامهم وجدت أنهم لم يتخلوا عن (الولاء والبراء) مثقال ذرة، ولم يتغير عندهم أي شئ حول وجود (الولاء والبراء) في تصرفاتهم وسلوكهم، وإنما الذي تحول عندهم هو (أرضيةالولاء والبراء) أو المبررات التي تستحق الولاء والبراء فقط.

فقد كانوا سابقاً يقولون يجب أن يبغض الإنسان كل من كفر بالله بغضاً دينياً، ثم صاروا الآن يستفظعون ذلك، لكن لو قلت لهم: إنني أحب من يعادي وطني لشنعو عليك، ولو قلت لهم: إنني أوالي أو أصافح من يعادي وطني لاعتبروا ذلك تطرفاً وتخلفاً.

فالقضية يا سادة ليست تخلٍ عن الولاء والبراء، وإنما إعادة تحديد لمن يستحق الولاء والبراء، فقد كانوا سابقاً يقولون أن "الله" هو المستحق لأن يكون الولاء والبراء على أساس القرب والبعد عنه، وصاروا الآن يقولون "الوطن" هو الذي يستحق الولاء والبراء على أساس القرب والبعد عنه.
هذه كل القضية.

فالولاء والبراء لم ينته لحظة واحدة، ولكن تحول أساس الولاء والبراء من (الله) إلى (الأرض) كما أشار تعالى فقال (وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ) [الأعراف: ١٧٦] وقال تعالى (اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ) [التوبة:٣٨]

وهكذا كان فريق من الناس في عصر رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يتعاملون مع الجهاد على أسس وطنية، لا على أسس عقدية، فهم لم يرفضو القتال، ولكن يرون القتال مبرراً على أساس الوطن لا العقيدة، كما قالوا في تحليلهم الفكري لجهاد الرسول (وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا) [الأحزاب: ١٣]

إنه مشهد يتكرر، ولكنه يتكرر بألم، حين تكون الأرض أغلى في نفوسنا من الله، فيكون الولاء والبراء والبغض والمعاداة على أساس الوطن أمراً مقبولاً، بل رقياً فكرياً، لكن الولاء والبراء والبغض والمعاداة على أساس القرب والبعد من الله؛ فهذا كله تخلف وتقوقع في قراءات ضيقة لبعض النصوص!

الأمر لا يحتاج بتاتاً كل هذه الفذلكة، لكن لأن العقيدة انهارت في النفوس، وتشبعت القلوب بالإخلاد إلى الأرض، فقد فزع البعض إلى عيون الزوجة الكتابية لعلهم يجدون بين مشاعرها عذراً لنقل ولائهم وبرائهم من (الله) جل جلاله إلى (الوطن).

القضية باختصار شديد، لو كانوا يريدون الحق؛ أن كل كافر فهو عدو لله بمجرد كفره كما قال تعالى (فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ) [البقرة:٩٨] ، وأخبر أنه لايحب الكافرين فقال (فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ) [آل عمران:٣٢] وأخبر أنه يمقت الكافرين فقال (وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلا مَقْتًا) [فاطر:٣٩].

وعداوة المؤمن تبع لعداوة الله كما قال تعالى (إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا) [النساء:١٠١].

فكل مؤمن لابد أن يقوم في نفسه "العداوة القلبية الدينية" لكل عدو لخالقه ومولاه جل وعلا، فإن لم يجد هذه العداوة القلبية الدينية لأعداء ربه سبحانه فليبكِ على إيمانه، ولو كمل حب الله في قلبه فيستحيل أن يحب خالقه وعدو خالقه في آن واحد.

إلا إن كان المؤمن يتجرأ ويقول إن أعداء الله أحبابٌ له، فهذا شأن آخر.

أو كان المرء يقول: إن الكافر إذا لم يحاربنا فهو ليس عدو لله، وإذا حاربنا فهو عدو لله، فصارت كرامته أعظم في نفسه من كرامة الله، فهل يقول هذا عاقل؟!

فأي تحدٍ لله تعالى أن نقر أن الله عدو لجميع الكافرين، وأن الله لايحب جميع الكافرين، ثم نتحدى ربنا جل وعلا ونقول: أما نحن فنحب بعض الكافرين؟!

وتأمل معي في قوله تعالى (هَاأَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ) [آل عمران:١١٩]

فهؤلاء قوم مظهرين للمسالمة، بل يظهرون غاية المسالمة، حتى أنهم إذا لقو الذين آمنوا قال آمنا، ومع ذلك يلوم الله المؤمنين على حبهم، ولم يبح لهم حبهم بحسب ظاهرهم.

ثم تأمل معي كيف انعكست آيات البراء وبغض الكفار على أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– فمن ذلك أن اسماء بنت عميس وهي ممن هاجر إلى الحبشة تقول كما في صحيح البخاري (كنا في أرض البعداء البغضاء بالحبشة) [البخاري، ٤٢٣٠]
فبالله عليك انظر في قول هذه الصحابية الجليلة، فأهل الحبشة مسالمون، بل نفعوا أصحاب النبي حيث وفروا لهم لجوءاً سياسياً في وقت الأزمة مع قريش، ومع ذلك تسميهم "البُغَضاء"، لماذا؟ لأن هذه الصحابية الجليلة استوعبت درس القرآن جيداً، وأن كل كافرٍ فهو قطعاً عدو لله مبغوض له مهما كان مسالماً عسكرياً.

ولما بعث نبي الله –صلى الله عليه وسلم– عبدالله بن رواحة إلى اليهود لخرص الثمار خافو أن يظلمهم فقال لهم كما عند أحمد بسند صحيح: (يا معشر اليهود أنتم أبغض الخلق إلي، وليس يحملني بغضي إياكم على أن أحيف عليكم) [أحمد: ١٤٩٦٦]

فهؤلاء كفار مسالمون وليسو محاربين، ومع ذلك يستعلن رضي الله عنه ببغضه لهم.

وأمثال هذه النماذج كثيرة في سيرة أصحاب رسول الله من بغض الكافر حتى لو كان مسالماً، ومن الطرائف أن بعض الناس لكي يتخلص من هذا الأصل الشرعي العظيم صار يسلك استراتيجية إلصاق أحكام البراء بالوهابية، ويدعي أننا أسرى للفكر الوهابي، وأن مسألة بغض الكفار جميعاً إنما هي فكرة وهابية، الخ وهي حيلة ساذجة للتخلص من قاعدة شرعية.

والواقع أن قاعدة (البغض العقدي للكافر) قد أطبقت عليها المذاهب الأربعة لأهل السنة والجماعة وليس مسألة ابتكرتها الدرر السنية، فقد قال السرخسي الحنفي (وهكذا ينبغي لكل مسلم أن يكون في بغض اليهود) [المبسوط، للسرخسي، ١١/٢٣].

وتعرض القرافي المالكي لبعض الأوامر الشرعية فقال (حب المؤمنين، وبغض الكافرين، وتعظيم رب العالمين،.. وغير ذلك من المأمورات) [الفروق، للقرافي، ٢٠١/١]
وقال ابن الحاج المالكي أيضاً (واجب على كل مسلم أن يبغض في الله من يكفر به) [المدخل، لابن الحاج، ٤٧/٢]
وقال الشيخ عليش المالكي (نفوس المسلمين مجبولة على بغض الكافرين) [منح الجليل، لعليش، ١٥٠/٣]
وفي أشهر متون الشافعية (وتحرم مودة الكافر) [الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع، للشربيني]
وقال العز بن عبدالسلام الشافعي (جنايته على أمر نفسه بالكفر أخرته، وأوجبت بغضه) [قواعد الأحكام، للعز بن عبدالسلام، ٧٢]
بل هذا ابن سعدي الذي يحاول البعض تزوير صورته وأنه كان فقيهاً تغريبياً مبكراً يوضح رحمه الله التلازم بين الإيمان بالله وبغض الكافر فيقول (الإيمان يقتضي محبة المؤمنين وموالاتهم، وبغض الكافرين وعداوتهم) [تيسير الكريم الرحمن]

والمراد أن نصوص فقهاء المذاهب الأربعة لأهل السنة كثيرة في منع حب الكافر، فكيف يقال أن وجوب بغض الكفار فكرة ولدت في الدرعية وانتهت مع مؤتمرات حوار الأديان؟!

أم أن أئمة المذاهب الأربعة في القرون المتقدمة حفظوا في صغرهم "كشف الشبهات"؟! أم أرسلت إليهم نسخٌ من الدرر السنية؟!

أما قولهم: (إننا نقر أن الله أمر بمعاداة أعدائه كقوله تعالى (لاتتخذوا عدوي وعدوكم أولياء) لكن هذه في المعتدي وليس كل الكفار أعداء لله) فهل يقول هذا من قرأ كتاب الله؟! فكل كافر فهو عدو لله أصلاً كما قال تعالى (فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ) [البقرة:٩٨] ، وقال تعالى (إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا) [النساء:١٠١].

وأما قولهم (أننا نقر أن الله نهى عن موالاة الكفار، لكن آيات النهي عن موالاة الكفار لايلزم منها النهي عن حبهم والأمر ببغضهم، لأن الموالاة فيها قدر زائد على مجرد الحب والبغض وهي "النصرة") فالجواب أن "الموالاة" لفظ عام يشمل الحب والنصرة، فالحب موالاة، والنصرة موالاة، والنهي عن العام يشمل جميع أفراده.

ومن ظن أن الموالاة لاتكون إلا لما تركّب منهما فقد خالف النص الذي منع الحب كقوله (ها أنتم أولاء تحبونهم ولايحبونكم) وهي في المسالمين، وخالف إجماع الفقهاء على منع حب الكافر ومودته، فضلاً عن مخالفته لما حرره الفقهاء المحققين كقول الإمام ابن تيمية (وأصل الموالاة هي المحبة، كما أن أصل المعاداة البغض) [منهاج السنة]

وأما قولهم (إننا نقر أن الله نهى عن موادة من يحاد الله ورسوله، لكن المحاد هو المحارب) فهذا تحريف لكتاب الله، فإن الله تعالى قال (يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ) [التوبة ٦٢-٦٣]

فهؤلاء الذين حلفوا لرسول الله ليسوا محاربين، ومع ذلك جعلهم الله محادين!

ولما ذكر الله حدود الله في مطلع المجادلة قال (إن الذين يحادون الله) ومعلوم أن انتهاك حدود الله ليس محاربة، ومع ذلك جعله الله محادة لله جل وعلا.

فإن كان هؤلاء يجعلون "المحادة" هي "المحاربة" فهذا باطل بكون الله في كتابه سمى مادون المحاربة محادة، وإن كان هؤلاء يجعلون المحادة كل قول وفعل يسئ إلى الله وكتابه ونبيه وشريعته، فلايكاد يوجد كافر معاصر لايسئ لأحكام الله في التعدد والقوامة والحجاب والقرار في البيوت والقتال الخ. فهؤلاء يقولون لنا إن الموادة المهي عنها مخصوصة بالمحاد، فإذا قلنا لهم هؤلاء الذين ينتقدون أحكام الشرع من مستشرقين وسياسيين ومفكرين وعامة في المجتمعات الكافرة، لكنهم مسالمون غير محاربين، هل يجوز مودتهم، عادوا وتناقضوا وقالوا نعم يجوز لأنهم غير محاربين، وتركوا علتهم الأولى وهي المحادة!

وأما احتجاجهم بترخيص الشارع في الزواج بالكتابية، وأن هذا ينقض كل الآيات والأحاديث والآثار وإطباق المذاهب الأربعة، فقائل هذا الكلام ليست إشكاليته إشكالية مسألة مفردة بعينها، بل لديه إشكالية منهجية، وهي ترك الأصول الظاهرة وتحويل الاستثناء والمحتمل إلى قاعدة!

والجواب عن استدلالهم بـ(أن الله أباح الزواج بالكتابية، والزواج يفضي للمودة) أن يقال:

المودة الحاصلة بالزواج بالكتابية هي أمر كوني قدري، وأمر الله ببغض الكافر أمر شرعي ديني، وأوامر الله الشرعية لايعترض عليها بالأمور الكونية. والمحتج بذلك هو نظير من يقول: أن الله خلق الخلق مختلفين ولن يزالوا كذلك، فلا داعي للأمر بالجماعة والائتلاف! فأبطل أمر الله الشرعي بالأمر الكوني.

أو كمن يقول أن قضى على العباد أن تقع منهم المعاصي، وأخبر أن بني آدم مذنبون خطاؤون، وعليه فلا داعي لأن ننهى الناس عن المعاصي، فأبطل أمر الله بعدم معصيته بناء على الأمر الكوني من وقوع المعاصي!

وهكذا، فكيف يعترض على أمر الله ببغض الكفار، بأمر كوني قدري وهو وقوع المتزوج في حب زوجته؟!

ثم إنه لايمتنع أن تكون بين الزوجين عداوة دينية كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ) [التغابن: ١٤]

فالله أثبت احتمال قيام العداوة الدينية بين الزوج والزوجة، فلا أدري لماذا يأخذون آية (خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً) [الروم: ٢١] والتي تتحدث عن المودة القدرية الكونية، ولايضمون معها هذه الآية (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ) [التغابن: ١٤] والتي تثبت احتمال قيام العداوة الدينية.

ثم إن المودة التي ذكرها الله بين الزوجين لايلزم منها أن تكون دوماً هي الحب، بل قد يكون المراد بها الصلة والإحسان كما قال تعالى (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) فالنبي لايطلب أن يتحاب مع كفار قريش وإنما كما في صحيح البخاري عن ابن عباس أنه قال (إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة) [البخاري:٤٨١٨]

ثم إن مايجده الإنسان في نفسه من الولاء والحب لوالده وشقيقه أعظم مما يجده من الولاء لزوجته، ومع ذلك قطع الله موالاة الأب الكافر المسالم، والشقيق الكافر المسالم، كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ) [التوبة:٢٣]

ثم إن أهل العلم بينوا أنه مورد الأمرين مختلف أصلاً، فبغض الكافر المسالم وعداوته القلبية هي بغض وعداوة قلبية دينية، أما المودة التي تقع بين الزوج والزوجة فهذه مودة غريزية فطرية، ولايمتنع أن يجتمع الأمران في شخص واحد.

وأما قولهم (إنه يمتنع أن يجتمع في الشخص الواحد محبة وبغض، وبالتالي فما دام يجوز أن يحب زوجته الكتابية فلينتفِ البغض الديني عنها!) فهذا كلام ساقط، فإن الدواء يجتمع فيه الحب والبغض، فهو محبوب من وجه مبغوض من وجه، وهذا مثال يكرره أهل العلم كثيراً للتدليل على كيفية اجتماع الحب والبغض في شخص واحد.

ونظير ذلك في الشرعيات أن القتال في سبيل الله يجتمع فيه كره طبيعي لما فيه من إيذاء النفوس، وحب شرعي لما فيه من الثواب العظيم، كما قال تعالى في الكراهية الطبيعية للقتال (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ)[البقرة:٢١٦] وقال تعالى في الحب الشرعي للقتال (وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ) [التوبة:٩٢].

فانظر كيف أخبر أنهم يكرهون القتال طبعاً، ثم تفيض عيونهم من الحزن إذا فاتهم القتال لحبهم إياه شرعاً ودياناً!

فمن أنكر الكره الطبيعي للقتال فقد كابر، ومن أنكر الحب الشرعي للقتال فما عرف معنى الإيمان بعد، فإن أثبت اجتماعهما في محل واحد فكيف ينكر اجتماعهما في شخص واحد وهو الزوجة الكافرة؟!

وكذلك فإن كل نفس تجد في داخلها كراهية السجن كراهية طبيعية، ولكن لما كان فيه مصلحة شرعية ليوسف –عليه السلام– صار أحب إليه شرعاً وإن كان يبغضه طبعاً، كما قال تعالى عن يوسف (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ) [يوسف:٣٣] .

وكذلك فإن الإنسان إذا تصدق بأنفس ماله عنده اجتمع في هذا الفعل حب وبغض، فهو يحب ماله طبعاً، ويحب التخلي عنه والصدقة به شرعاً، كما قال تعالى (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) [آل عمران:٩٢] وقال تعالى (وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ) [البقرة: ١٧٧] وقال تعالى يُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ) [الإنسان:٨].

وأما قول بعضهم (إن الحب والبغض عمل قلبي يهجم على القلب لاحيلة فيه، وبالتالي يعفى عن حب الكفار) فمؤدى كلام هؤلاء إخراج الحب والبغض عن أصل التكليف، وبالتالي إبطال كل أوامر الحب والبغض التي أمر الله بها ورسوله، فصار أمر الله بحبه، وحب رسوله، وحب الأنصار، وحب آل البيت، وغيرها من الشرائع، كلها لغو وعبث لاقيمة له لأن الحب والبغض شأن قلبي يهجم على الانسان ولاحيلة له فيه.

بمعنى أن قول النبي مثلاً في صحيح البخاري (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده) لو جاء شخص وقال الحب عمل قلبي يهجم على المرء بلا حيلة، ولا أجد في نفسي حب النبي أكثر من والدي وولدي؟! فهل هذا مقبول؟!

ولذلك لما جاء عمر وأخبر النبي بما في نفسه لم يقبل النبي هذا الكلام، وصحح له هذا الفهم، حتى ارتقى إيمان عمر، كما في البخاري (يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك فقال له عمر ، فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي فقال النبي صلى الله عليه وسلم الآن يا عمر).

فعمر حين قال (لأنت الآن أحب إلي من نفسي) إنما جاهد نفسه حين عرف ثواب الحب، فالحب والبغض يحصل بالمجاهدة.

ولذلك فإنه لما أبغض بعض الناس بعض التشريعات بغضاً دينياً جعل الله ذلك منهم ردة وخروجاً عن الإسلام ولم يقل الحب والبغض شعور يهجم على القلب لاحيلة له فيه! كما قال تعالى (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ) [محمد:٩]

وأما قول بعضهم (بعض الكفار يحسنون إلينا، فكيف نكرههم وهم يحسنون إلينا، ولايوجد إنسان سوي إلا وهو يحب من أحسن إليه، ويجد ذلك في نفسه ضرورة) . فهؤلاء المعترضين بمثل ذلك لم يتفطنوا إلى أن الحب هو حصيلة أفعال المحبوب، والبغض هو حصيلة أفعال المبغوض، فهذا الكافر أحسن إليك بمال أو هدية أو ابتسامة لكنه أساء إلى ربك بالكفر، وربك أغلى عليك من نفسك، ولذلك فإساءته لك أعظم أضعافاً مضاعفة من إحسانه المادي إليك، إلا إن كانت نفسك أغلى عليك من ربك وخالقك، وصرت ترى أن من أساء إليك فهو مستحق للبغض، لكن من أحسن إليك واساء لخالقك فهو مستحق للحب، فقائل هذا قد جعل نفسه أعظم من الله ولاحول ولاقوة إلا بالله، وإلى هذا المعنى أشار السبكي إشارة بديعة للغاية حين قال في فتاواه:

(والذي يظهر أن النفوس الطاهرة السليمة لا تبغض أحدا ولا تعاديه إلا بسبب، إما واصل إليها، أو إلى من تحبه أو يحبها، ومن هذا الباب عداوتنا للكفار بسبب تعرضهم إلى من هو أحب إلينا من أنفسنا) [انظر فتاوى السبكي، ٤٧٦/٢]

فمن اعترض بالقول أنه ليس من المروءة أن أبغض كافراً أحسن إلي؟ فيقال له: بل ليس من المروءة أن تحب كافراً أساء لخالقك لمجرد أنه رشاك بلعاعة من الدنيا، فخالقك قد أحسن إليك أضعاف أضعاف ما يقدمه لك هذا الكافر، بل لانسبة للنعم التي أعطاك إياها خالقك ولعاعة الدنيا التي أعطاك إياها هذا الكافر.

وعلى أية حال فإن من يستحضر أن هذا الكافر يسئ إلى الله بجحد إلهيته أو نبوة محمد ولم يهجم على قلبه بغضه قلبياً فهذا يعني أنه قلبٌ ميت، فليبك على قلبه، فإن القلب الحي لايرضى بأن يساء لخالقه ومولاه، إلا إن كان يعتبر الكفر وجهة نظر شخصية لاتغضب الله!

وأما قولهم: (كيف أكرهه وأحبه وقد يكون في داخل الأمر على خلاف ماهو عليه؟ بمعنى قد أعتقد أنه كافر لكنه في حقيقة الأمر مسلم) فيقال الحب والبغض من الأحكام الشرعية، والأحكام الشرعية تعلق بالظاهر، ولذلك كان تطبيق هذا الحكم على الأعيان مسألة اجتهادية قد يصيب المرء فيها وقد يخطئ خطأً مغفوراً، ولذلك قال ابن تيمية (ثم الناس في الحب والبغض، والموالاة والمعاداة، هم أيضا مجتهدون يصيبون تارة ويخطئون تارة)[الفتاوى ١٥/١١]

وقبل ذلك نبه الإمام محمد بن الحنفية كما رواه اللالكائي عنه حيث يقول رحمه الله (من أبغض رجلا على جور ظهر منه، وهو في علم الله من أهل الجنة؛ أجره الله كما لو كان من أهل النار).

وأما قولهم (الكفار متفاوتون فكيف نجعلهم سوياً في البغض والمعاداة القلبية؟!) فهذا غير صحيح، ولم يفتِ أحد من أهل السنة بكون الكفار سواءٌ في البغضاء، فإن الكفر يتفاوت في ذاته، كما يتفاوت الإيمان، ولذلك فإنه كما يكون في أهل الخير أئمة في الإيمان كما قال تعالى (وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا) فإنه كذلك يكون في الكفار أئمة فيه كما قال تعالى (فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ) [التوبة:١٢].

وكما يتفاوت حب اهل الإيمان بحسب رسوخهم وإمامتهم فيه، فكذلك تتفاوت معاداة وبغض الكفار بحسب رسوخهم وإمامتهم فيه.

وأما قولهم (إن تغيير الحكم الشرعي في بغض الكفار سيكون له دور في الترويج للاسلام والدعوة) قائل هذا الكلام عكس النتيجة كلياً، بل تحريف النصوص الشريحة في بغض الكفار أعظم ذريعة إلى الطعن في علماء الإسلام ودعاته أنهم كذابون مخادعون يتلاعبون

بنصوص شريعتهم لأجل مصالح حركية! إنه لايخدم صورة الإسلام مثل العلم الصحيح الصادق، قد يتدرج العالم أو الداعية في تنفيذ بعض الأحكام، أما تحريف الأحكام الشرعية فهذا لايقع من عالم صادق لأجل أي مصلحة موهومة! وشتان بين التدرج والتحريف، على أن بعض أهل الأهواء يحتجون بأفعال النبي وعمر بن عبدالعزيز في التدرج على التحريف!

ثم افترض أننا استطعنا عبر عمليات تجميلية تحريف نصوص (بغض الكفار) فماذا سنصنع بقوله تعالى عن الكفار (إن هم إلا كالأنعام) وقوله تعالى (إن شر الدواب عند الله الذين كفروا) وقوله تعالى (كمثل الحمار يحمل أسفارا) وقوله تعالى (إنما المشركون نجس) وقوله تعالى (وأن الله مخزي الكافرين) وقوله تعالى (يريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين) وقوله تعالى (أعزة على الكافرين) وقوله (فإن علمتموهن مؤمنات فلاترجعوهن إلى الكفار لاهن حل لهم ولاهم يحلون لهن) الخ الخ ؟!

هل سنحرف كل هذه الآيات ونظائرها حتى نقوم بترويج الإسلام والدعوة؟! هناك ملفات كثيرة يريد متفقهة التغريب العبث بها، لكن آخر مايمكن أن يحرفوه هو موقف القرآن من الكافر، لقد وضع القرآن الكافر في غاية مايتصوره العقل البشري من دركات المهانة والحقارة والانحطاط واستعمل القرآن كل التعابير الممكنة في بيان رجسية الكافر، فأي تأويل يارحمكم الله يمكنه أن يتلاعب بهذه الآيات القرآنية؟!

على أية حال.. هل تدري أين جوهر المشكلة في كلام هؤلاء الذين يريدون تغريب العقيدة؟ إنها في حرمان المسلمين من أوثق عرى الإيمان (أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله).

الله سبحانه وتعالى ينبهنا ويقول بكل وضوح (فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ) [آل عمران:٣٢] ويقول (إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ) [الروم:٤٥] وأنتم تقولون: فأما نحن فنحب بعض الكافرين، ألا تخشون من الله وأنتم تتحدون محاب الله ومباغضه؟!

وهذه المسألة من أوضح تطبيقات تقديم المتشابه على المحكم، و عاهة (تقعيد الاستثناءات) أي تحويل الاستثناء إلى أصل، والأصل إلى استثناء، فالله أمر ببغض الكفار وأجاز نكاح الكتابية، فأخذوا الاستثناء وهدموا به الأصل! فهل هذا إلا فعل أهل الأهواء؟!

فكفُّو يارحمكم الله عن تشذيب الإسلام وقصقصته لأغراض التبسم في مؤتمرات إنشائية يخدع بها الحاضرون أنفسهم!

ابوعمر

ربيع الأول ١٤٣١هـ